العدد
160
السنة الرابعة عشرة
صيف 2017

رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب

الحوار

- الإسلام والمسلمون وتنوع الانتساب
- عقوبة الرجم في الفكر الإسلامي المعاصر
- المثاقفة الذاتية وأثرها في تعزيز العملية التعليمية
- حل جدل المكونات من منظور قرآني
- آن أوان دعوة المسلمين إلى الإسلام..!

مجلة سياسية ثقافية فصلية تصدرها مؤسسة الإعلام والفن للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political and cultural magazine, issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز: صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير: سالم الحاج

salimalhaj83@yahoo.com

07504499179

هيئة التحرير

سعد الزيباري saadz76@yahoo.com

نبيل فتحي حسين nabil_fathi72@yahoo.com

سرهد أحمد علي Sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني

قوباد ياسين طه tqubadyasen@yahoo.com

الموقع الإلكتروني: http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الإلكتروني: Alhiwar2003@yahoo.com

العنوان: أربيل ـ محلة طيراوه / مقابل نقليات الشمال / قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

محتويات العدد

*** ملف العدد:**		٤
تقديم		٥
جدلية الدعوة والسياسة في العمل الإسلامي	د.هادي علي	٦ – ١٢
رؤوس أقلام بشأن الجدل الدائر بين الدعوة والسياسة	أ. خليل إبراهيم	١٣–١٨
العلاقة بين الدعوة والسياسة في أدبيات الاتحاد الإسلامي	سرهد أحمد	١٩–٢٣
عبق الكلمات: وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً	عبدالباقي يوسف	٢٤–٢٥
*** دراسات:**		٢٦
عقوبة الرّجم في الفكر الإسلامي المعاصر بين الرفض والقبول	د.صهيب آميدي	٢٧–٤٨
(د.عماد الدين خليل) والاستشراق في التاريخ الإسلامي	د.محمد علي صالح	٤٩–٦٥
حلقات مفقودة من تاريخ منطقة بهدينان	د.فرست مرعي	٦٦–٨٢
المثاقفة الذاتية وأثرُها في تعزيز العمليّة التعليميّة	سعد الزيباري	٨٣–١٠٣
رؤية: خُلق الإنصاف!	شيروان شميراني	١٠٤–١٠٥
*** مقالات:**		١٠٦
الإسلام والمسلمون وتنوع الانتساب	أ. صلاح الدين بهاء الدين	١٠٧–١١٠
الحياة التي يريدها كتاب الله..!	د.عماد الدين خليل	١١١ – ١٢٣
آن أوان دعوة المسلمين إلى الإسلام..!	د.حكيم مختار	١٢٤ – ١٢٨
حل جدل المكونات من منظور قرآني	أ. محمد رؤوف محمد	١٢٩ – ١٣٠
في ظلال دعاء سيدنا (يونس) – عليه السلام –	د.دحام الهسنياني	١٣١ – ١٤٥
مرافىء: أعطني تنمية، واقمعني كما تشاء!	د.يحيى ريشاوي	١٤٦
*** شؤون سياسية:**		١٤٧
الإقليم الكوردي واختلال توازن القوى!	د.زيرفان البرواري	١٤٨ – ١٤٩
مهاترات الإخوة الأعداء	د.سعد الديوجي	١٥٠ – ١٥١
*** ثقافة:**		١٥٢
– حساسية الروائي وذائقة المتلقي	علاء الدين حسن	١٥٣ – ١٥٩
لقاء مع الشاعر العراقي د.وليد الزبيدي	بسام الطعان	١٦٠ – ١٦٥

شهداء الوطن وخوارج الكفن (شعر)	حسين حسن التلسيني	١٦٦-١٦٩
بصراحة: في انتظار الحسم	صلاح سعيد أمين	١٧٠
*** قراءة في كتاب:**		١٧١
الإسلام والدولة المستحيلة	د.مصطفى عطية جمعة	١٧٢- ١٨٣
الهند من خلال رحلة ابن بطوطة	د.محمد نزار الدباغ	١٨٤- ١٨٩
*** تقارير**		١٩٠
- الأمين العام يدعو السياسيين إلى الحوار	تقرير: المحرر السياسي	١٩١-١٩٢
- الاتحاد الإسلامي ومشروع التعاون الإسلامي	أربيل/ الحوار	١٩٣-١٩٤
- الملتقى الفكري لـ(المنتدى العالمي للوسطية)	متابعة: سرهد أحمد	١٩٥-٢١١
*** آخر الكلام:** التوفيق بين الماضي والحاضر	محمد واني	٢١٢

ملف العدد

- جدلية الدعوة والسياسة في العمل الإسلامي ... د.هادي علي

- رؤوس أقلام بشأن الجدل الدائر بين الدعوة والسياسة أ.خليل إبراهيم
- العلاقة بين الدعوة والسياسة في أدبيات الاتحاد الإسلامي سرهد أحمد

تقديم

نشرنا في العدد الماضي وقائع ندوة الحوار الثالثة، والتي كانت مخصصة للحديث عن موضوع (جدلية العلاقة بين السياسة والدعوة).. وفي هذا العدد تفتح "الحوار" ملفاً حول الموضوع نفسه، لغرض استطلاع آراء المفكرين والكتاب والباحثين، وطرح المسألة من جوانب مختلفة، للوصول إلى تكوين رؤية واضحة حولها..

وننشر في هذا العدد مساهمة كل من السادة: (د.هادي علي)، و(أ.خليل إبراهيم)، بالإضافة إلى تقرير أعدّه الزميل (سرهد أحمد)، على هامش ندوة الحوار السابقة، ويعد استكمالاً لها..

نأمل أن تكون "الحوار" بفتحها لهذا الملف قد أسهمت في إغناء الحوار في مسألة شائكة من مسائل الفكر والعمل الإسلامي المعاصر، وهي تدعو كافة المهتمين بهذا الشأن من الباحثين والكتاب، وقادة العمل الإسلامي، إلى رفد المجلة بآرائهم وتعليقاتهم وبحوثهم، خدمة لمسيرة العمل الإسلامي المعاصر..

جدلية الدعوة والسياسة في العمل الإسلامي وضرورة الفصل بينهما

د.هادي علي

✍مما لا شك فيه أن التيار الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية تواجهه تحديات فكرية وسياسية مختلفة، ومن هذا المنطلق فهو يحتاج إلى تجديد وتغيير وابتكار آليات جديدة لمواكبة مسيرة التحولات المعاصرة.

وفي هذ المضمار، فإن جدلية الدعوة والسياسة في العمل الإسلامي، وكيفية ممارسة كل منهما على أكمل وجه، هي من أهم تلك التحديات التي تشهد حواراً جاداً داخل التيار نفسه، حيث أصبحت مسألة فصل الدعوة عن العمل السياسي، ومأسستها، هي الإشكالية الرئيسية التي تعاني منها حركات الإسلام السياسي بصورة عامة. وبات من الواضح أن الحالة التقليدية للعمل الإسلامي، التي تجمع العمل الدعوي إلى جانب العمل السياسي والحزبي، لا تصلح لهذا العصر، بل

تحتاج إلى إيجاد صيغ وآليات جديدة لممارسة كل منهما، وعدم الخلط بينهما، كما هي عليه الآن.

مكانة الدعوة في العمل الإسلامي

لا بد من الاعتراف بتلك الحقيقة:إن الغاية الأساسية لنشوء الحركات الإسلامية في الأصل، وفلسفة وجودها، واستمراريتها، منذ بداية ظهورها وإلى الآن، هي الدعوة إلى إحياء القيم والأخلاق والشعائر الإسلامية، وتربية الفرد المسلم على تلك المعاني، والعمل على حفظ الهوية الإسلامية للمجتمعات المسلمة، وعدم ذوبانها أمام التحديات.

إن أداء هذا الواجب المقدس، كما يفهم من المنهج القرآني، يعتبر لبّ رسالة الأنبياء (عليهم السلام) على مدار التاريخ، الذي هو واجب (إقامة الدين)، كما يؤكد عليه القرآن الكريم عندما يقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ الشورى-١٣.

وفي هذا العصر، الذي هو عصر التكنولوجيا والعمل المؤسساتي والتخصص في جميع نواحي الحياة، فإن من واجب الدعاة وقادة العمل الإسلامي أن يعملوا من أجل ممارسة الدعوة إلى الله بشكل صحيح ومناسب لمتطلبات العصر. وفي سبيل ذلك عليهم أن يتجاوزوا الأساليب التقليدية، وينتهجوا أساليب جديدة عن طريق المؤسسات المعاصرة والمناسبة لهذا المجال الهام.

الوظائف الأساسية للعمل الدعوي

ونرى من الضروري أن يركز العمل الدعوي في هذه المرحلة على المجالات التالية:

١-الدفاع عن وسطية الإسلام كالاتجاه الصحيح والوحيد لرسالة الإسلام، حيث إن التطرف والتشدد الديني، خاصة بعد ظهور (داعش)، وغيرها من الحركات المتشددة والإرهابية، باسم الإسلام، انتقل إلى مرحلة خطيرة ومعقدة، مما جعل وسطية الإسلام وإنسانية رسالته في مواجهة السؤال والتشكيك.

٢-من الضروري أن يكون الاهتمام الأكثر بالجانب الروحي والمعنوي، وترسيخ القيم والأخلاق، التي هي لبّ رسالة الإسلام والحاجة الأساسية للجيل الجديد في هذا العصر.

٣-الدعوة في المجال السياسي لها وظيفتان:

الأولى: ترسيخ وتعميق الوعي السياسي للجماهير بأن الدولة ورجال السلطة هم ممثلون ووكلاء عن الشعب، ويجب أن لا يقبل منهم الاستبداد والفساد.

والثانية: تربية وإعداد الشخصية الملتزمة بالقيم والمبادئ، والذي يعمل على أداء

واجبه في مؤسسات الدولة على أكمل وجه، ويبتعد عن ممارسة الظلم والفساد، وإضاعة المال العام، واستغلال الوظيفة والسلطة لأغراض شخصية، التي هي المشكلة الأساسية والقاتلة لرجال الدولة وأصحاب السلطة في البلاد الإسلامية.

مكانة السياسة في العمل الإسلامي

فيما يتعلق بأهمية السياسة، ومكانتها، في المنظور الإسلامي، فمما لا شك فيه أن من خصائص الإسلام الأساسية أنه منذ مجيئه، وعبر التاريخ، كانت له طبيعة سياسية، وأنه امتزج بعملية الحكم طوال تاريخه. ومن جانب آخر، نجد أن انتشار الإسلام، وتقدمه، وكذلك توقّف الحركة بالإسلام، في المراحل المختلفة، وإلى الان، ارتبط بشكل من الأشكال بكيفية ممارسة الحكم والتنظيم السياسي، بصورة صحيحة أوغير صحيحة.

بناءاً على هذا، فإن العمل السياسي بمرجعية إسلامية واجب مهم، ووظيفة شرعية، يجب على أصحاب التيار الإسلامي أن يقوموا بأدائه بأحسن وجه، من أجل تحقيق الأهداف التالية:

١-تجسيد القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام في مجال الحكم والسياسة.

٢-المشاركة الفعالة في الإصلاح السياسي، ومواجهة الفساد والاستبداد.

٣- العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية، وتأسيس الحكم الرشيد، في البلاد الإسلامية.

إن تحقيق هذه الأهداف هو جزء رئيسي من مقاصد الإسلام، وشريعته، في المجال السياسي.. والعمل من أجل تحقيق هذه الأهداف واجب شرعي، ومكمّل لأهداف العمل الدعوي، من قبل أصحاب التيار الإسلامي.

غير أن أداء هذاالواجب بشكل صحيح ومناسب لهذا العصر، يكون عن طريق حزب سياسي، بحيث يكون رواده وكوادره من حملة الرسالة الإسلامية.

مسألة الفصل، ومبرراتها

إن معالجة تلك الإشكالية- أي إشكالية الخلط بين الدعوة والسياسة- في العمل الإسلامي المعاصر، هي إحدى ضرورات المرحلة، وذلك لعدة أسباب منها:

١- إن كلاً من الدعوة والسياسة لها خصوصيتها الوظيفية، بالإضافة إلى قواعد العمل والكوادر الخاصة بكل منهما، والخلط بينهما في مؤسسة واحدة ليس من صالح أي منهما. إذ إن وظيفة الدعوة هي وظيفة أخلاقية وتربوية، ولها خطابها الخاص بها، وتحتاج إلى نوع من الحياد وتهيئة أجواء هادئة بعيدة عن المنافسة والصراع الذي يتميز به العمل السياسي والحزبي.

وفي الوقت ذاته، فإن العمل السياسي والحزبي يهتم بالشأن العام، سواء من موقع المعارضة، أو من موقع المشاركة في السلطة. ولا شك إن له خطاباً، وقواعد عمل، وكوادر، خاصة به. وهذا لا ينفي أن الإسلام كدين، وكمصدر للقيم والمبادئ والأخلاق، يجب أن يكون دافعاً وموجهاً وملهماً لجميع نواحي الحياة، بما فيها المجال السياسي.

٢- إن طبيعة الدعوة لهاصفة تكاد تكون ثابتة نوعًاما، وتعمل في إطار المبادئ الثابتة للإسلام، وتوجهها أحكام الحلال والحرام. أما السياسة، فلها صفة التغيّر المستمر، وتعمل في إطار المقاصد العامة للإسلام، وتوجهها ضوابط المصلحة، وأحكام الخطأ والصواب.

٣- الغاية من الدعوة هي إبلاغ الهداية الإلهية إلى الناس وأفراد المجتمع، بصورة عامة، ووسائلها هي المسجد، والموعظة الحسنة، والعمل الخيري، وما إلى ذلك.

أما الغاية من السياسة، ومن المنظور الإسلامي، فهي العمل من أجل تحقيق العدالة للعباد، وإعمار البلاد، عن طريق تأسيس نظام حكم رشيد.. ووسائلها هي: الخطاب، والمواقف السياسية، والمشروع السياسي، والمشاركة في الانتخابات العامة، والمعارضة أو المشاركة في الحكم.. وشتان بين هذين المجالين.

٤- لا يمكن أن يكون الحزب السياسي أداة أو وسيلة مناسبة للدعوة والتربية الدينية، لأن منطق السياسة -كما يقال- هي المنافسة والمغالبة ومصارعة الخصوم. أما منطق الدعوة، فهو العمل على نشر المحبة والوئام وكسب القلوب وتهيئة الأجواء الهادئة لتقبل القيم والأخلاق.

فالجمع بينهما في مؤسسة واحدة، وهي الحزب السياسي، كما هوعليه الأمر الآن، أمر غير صحيح، وغير مناسب.

٥- إن القرآن الكريم يؤكد مراراً على تلك الحقيقة الكبيرة بأن الرسالة الرئيسية للأنبياء (عليهم السلام)، ولرسول الإسلام، بصورة خاصة، هي رسالة الدعوة، وإبلاغ الهداية، وتربية الناس على عقيدة التوحيد، والالتزام بالقيم والأخلاق الفاضلة.

هذه الحقيقة تكررت في القرآن الكريم بصيغ متشابهة، تكاد تكون واحدة، في أكثر من سورة، ومنها:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة-٢.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة-١٢٩.

ومن جانب آخر، فإن شمولية رسالة الإسلام، وتعدد الوظائف التي كان يقوم بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، لا يعني أن جميع هذه الوظائف والواجبات يقوم بها شخص واحد، أو مؤسسة واحدة، بعد النبي. بل يمكن، ومن الضروري أيضاً، أن تتوزع تلك الواجبات والمهام على أسس التخصص والخبرة والمهارة والكفاءة.

والآيات القرآنية نفسها تؤكد على ضرورة تفرّغ مجموعة من المسلمين لدعوة الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل التربوي، كما جاء في هاتين الآيتين:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ العمران-١٠٤.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة-١٢٢.

فكلمات (الأمّة)، أو (الفرقة)، أو (الطائفة)، كما جاءت في هاتين الآيتين، تشير إلى مؤسسات متخصصة، بلغة العصر..

وقد انفصلت الدعوة عن السياسة، في التاريخ الإسلامي، بصورة عملية، بين شريحة العلماء والفقهاء والمرشدين من جانب، وبين شريحة الأمراء ورجال الدولة، من جانب آخر. غير أن مرجعية الدولة والمجتمع، عبر التاريخ، كانت للإسلام وشريعته.

لهذه الأسباب، وغيرها كثير، نرى أنه من غير الممكن، وغير الصحيح،أن تُجمع عملية الدعوة والتربية، وكوادرها، مع العمل الحزبي والسياسي، وكوادره، في مؤسسة واحدة، كما هو عليه الحال الآن لدى كثير من الحركات الإسلامية. هذه الحالة غير صحيحة، وتحتاج إلى الإصلاح والتغيير، وأداء كل منها عن طريق المؤسسات الخاصة بهما.

تجارب الفصل بين الدعوة والسياسة

هناك عدة تجارب ونماذج للفصل بين الدعوة والسياسة في بعض البلاد الإسلامية، تحت تأثير الظروف الذاتية والموضوعية التي تمربها الحركات الإسلامية في تلك البلدان، مما جعلها تتعامل مع هذه المسألة المهمة بأساليب وآليات مختلفة.. ونحن هنا نشير إلى ثلاث من تلك التجارب:

أولاً/ تجربة العمل الإسلامي في تركيا، والتي هي خاصة بالظروف السياسية هناك، حيث بدأت الدعوة إلى إنقاذ الإيمان على يد (بديع الزمان الشيخ سعيد النورسي) – رحمه الله- بعيداً عن السياسة.. واستطاع هو، وطلابه، بالإضافة إلى الجماعات الصوفية المنتشرة في تلك البلاد، المحافظة على الهوية الإسلامية، والالتزام بالشعائر الدينية في

المجتمع التركي، بالإضافة إلى تربية جيل متدين وملتزم بالإسلام.

أما في الجانب السياسي، وبالاعتماد على الديمقراطية الموجودة هناك، ومنذ نهاية السبعينات في القرن الماضي، فقد بدأ الأستاذ (نجم الدين أربكان)، ورفاقه، وهم من رواد وأبناء الاتجاه الإسلامي في تركيا، بممارسة العمل السياسي في إطار التعددية المقننة هناك، وهم الآن يحكمون تركيا باسم (حزب العدالة والتنمية)، وقدموا تجربة غنية وناجحة في مجال الإصلاح السياسي والاقتصادي. التجربة التركية تمثل الفصل التام بين الدعوة والسياسة، وهي خاصة بالظروف السياسية والقانونية الموجودة في هذا البلد.

ثانياً/ تأسيس حزب سياسي تحت (وصاية) ورقابة قيادة الحركة أو الجماعة الإسلامية.. مثال على ذلك: تجربة (جبهة العمل الإسلامي) في الأردن، أو تجربة (الحزب الإسلامي العراقي)، أو تجربة حزب (العدالة والحرية) المصرية، الذي تشكل مباشرة بعد ثورة ٢٥ يناير/ ٢٠١١.

هذه التجارب، وأمثالها، كلها كانت فاشلة وغير ناجحة، لأنها كانت جزءاً مباشراً من الحركة الإسلامية الأم، وتتحرك تحت أوامر وتوجيهات قيادة الحركة، وهي في الحقيقة شكل من أشكال الخلط بين الدعوة والسياسة، ولا يمكنها أن تتحرك بحرية في إطار العملية الديمقراطية.

ثالثاً/ تجربة الإسلاميين في المغرب العربي، حيث هناك مؤسستان مختلفتان، ومستقلتان تماماً، وبينهما –كما يقال– نوع من الشراكة الاستراتيجية بين المؤسسة الخاصة بالدعوة، وهي: (حركة التوحيد والإصلاح)، وبين: حزب (العدالة والتنمية)، الذي يمارس السياسة والعمل الحزبي، في إطار قانون الأحزاب واللعبة الديمقراطية. والجهتان تعملان بصورة متكاملة لتحقيق المشروع الإسلامي الخاص بالمغرب. هذه التجربة تعتبر تجربة ناجحة لحد الآن.

ماذا يعمل الإسلاميون في كوردستان؟

لا شك أن مسألة الفصل بين الدعوة والسياسة أصبحت تحدياً حقيقياً يواجه التيار الإسلامي في كوردستان، في هذه المرحلة، وإلى حد ما أصبح مطلباً جدياً لنسبة غير قليلة من الكادر القيادي لهذا التيار. لذلك صار من المحتم والملح على قيادة هذا التيار أن تعمل وبجد لحل هذه الإشكالية، وأن يعملوا على تبني عملية الفصل كجزء من مشروع العمل المشترك بينهم، ويجعلوه من أولى أولوياتهم.

ونحن نرى بأن التجربة المغربية في هذا المضمار هي أقرب تجربة مناسبة وصالحة

للاستفادة منها من قبل التيار الإسلامي في كوردستان. غير أنهم بحاجة إلى مرحلة انتقالية للإعداد اللازم والوصول إلى رؤية مشتركة وموحدة بهذا الخصوص، على أن يقوموا:

أولاً/ بإقرار مبدأ الفصل بين الدعوة والسياسة بصورة مركزية، وعلى مستوى الهيئة العليا للعمل المشترك بين الأطراف الثلاثة، (وأعني بذلك الأحزاب الإسلامية الثلاثة الموجودة على الساحة السياسية في الإقليم)، والإعلان عنه بصورة رسمية، وتحديد مدة زمنية لا تتجاوز سنتين أو ثلاثة على أكثر تقدير كمرحلة انتقالية، كي يتوصلوا خلالها إلى الاتفاق على برنامج الفصل وتنفيذه.

ثانياً/ أن يعملوا، من الآن، فصاعداً، على تمييز وتجميع المؤسسات والأجهزة الحزبية الخاصة بالدعوة والتربية، وتفريغ الكوادر المختصة في هذا المجال، وإبعادهم عن المنافسة الحزبية، كتمهيد لحل الإشكالية في الوقت المقرر.

وجدير بالإشارة هنا، أن ماقام به (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) في مؤتمره السابع والأخير، المنعقد في آيار/٢٠١٦، يعتبر مقدمة مناسبة في هذا المجال، حيث تقرّر تجميع المؤسسات الحزبية الخاصة بالمجال السياسي، وكذلك الدعوي، كل منهما في إطار (مجلس) خاص بهما.

وفي الختام:

ومن أجل معالجة هذه الإشكالية المعقدة، وحفظ سلامة الخطوات العملية، ووحدة الصف الداخلي للتيار الإسلامي، أرى ضرورة مراعاة النقاط التالية، وأخذها بنظر الاعتبار:

أولاً/ من الضروري أن تثبت أطراف التيار الإسلامي الكوردستاني، وبصورة عملية،أن التيار الإسلامي تيار حي، ومتطور، وله القدرة على التجديد، وابتكار الأساليب والوسائل المتجددة لمواكبة العصر.

ثانياً/ أن يثبتوا بأنهم حركة منفتحة على الواقع المتغير، وبإمكانهم التعامل الصحيح مع تلك المساحة الواسعة التي تركتها الشريعة الإسلامية للمتغيرات المتجددة. وبمعنى آخر: عليهم أن لا يقعوا في مأزق الجمود، وتقليد الماضي، باسم التمسك بالمبادئ، والموازنة بين الثوابت والمتغيرات.

ثالثاً/ وفي جميع الأحوال، عليهم أن يلتزموا بمشروعهم الإصلاحي الخاص بهم، ويحافظوا على الهوية الإسلامية لتيارهم، بالإضافة إلى حفظ استقلاليتهم السياسية، والتي تعتبر الميزة الأساسية والضرورية لهم❐

رؤوس أقلام بشأن الجدل الدائر بين الدعوة والسياسة

أ.خليل إبراهيم

تشهد الساحة الفكرية والسياسية لدى الإسلاميين،أفراداً وجماعات، وغيرهم من المهتمين بالشأن الإسلامي، وبخاصة فيما يسمى بـ (الإسلام السياسي)، جدلاً واسعاً، وحوارات ساخنة، ونقاشات مستفيضة، حول العلاقة بين الدعوي والسياسي،وفي ضرورة الوصل والجمع بينهما، أو الفصل والقطيعة بين المجالين، أو التمييز والفصل الوظيفي بين الأمرين، كل من منطلقاته الفكرية، وتجاربه العملية، وقراءة الواقع الدعوي ومتطلباته، والواقع السياسي ومقتضياته، على المستويات المختلفة: الذاتية والموضوعية، والداخلية والخارجية.

إن الحديث عن الفصل أو التمييز بين المجال الدعوي والمجال السياسي، وفك الارتباط بينها، ليس أمراً جديداً، بل هو قديم

حيث تطرق إليه الإمام (حسن البنا) في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي،حيث ألمح إلى ضرورة الفك والتمييز بين المجالين، إذ تتفرغ (الجماعة) للعمل الدعوي، بأبعاده التربوية والثقافية والاجتماعية. وفكّر (حسن البنا) في لحظة تاريخية، في سنة ١٩٤٦، وطرح على (مكتب الإرشاد) فكرة اندماج (الإخوان) مع أحد الأحزاب السياسية في (مصر)، ورشح (الحزب الوطني)، الذي أسسه (مصطفى كامل)، وبعده تزعم الحزب (فتحي رضوان) و (نورالدين طراف).

والذي يسند هذا القول، جواب الأستاذ (فريد عبدالخالق)، عندما سئل على فضائية (الجزيرة)، في عام ٢٠١٢: لو أن (حسن البنا) حيّ الآن، ما الرسالة التي سيوجهها لجماعته، وللرئيس (محمد مرسي)؟. فقال: سيقول لهم: أيها الإخوان لديكم جزء دعوي وجزء سياسي، وعليكم أن تفصلوا بينهما، وكل ميسر لما خلق له، وكل جانب يقوم عليه أفراد مختصون، ويجب أن يكون كل من هذين الجانبين مستقلاً تماماً.

إن فتح ملف التمييز بين الدعوي والسياسي، من قبل الحركات الإسلامية المعتدلة، والتي تنتمي إلى الوسطية والاعتدال، يأتي في سياق عمليات النقد الذاتي، والمراجعات الفكرية، وتقييم مسيرة الجماعات الإسلامية، بغية الوقوف على الأخطاء، وتشخيص مواطن الضعف والخلل، وتحديد جوانب القصور، بهدف تصحيحها وتصويبها.. الأمر الذي يدل على النضوج الفكري، والرشد السياسي، ومعرفة متطلبات العمل الحضاري، بشقيه: الدعوي والسياسي، في اللحظة التاريخية الراهنة.

قبل الخوض في تناول جوهر الموضوع، أرى من الضرورة بمكان التأكيد على الحقائق الآتية:

أولاً: يتسم الإسلامبأنه دين شامل يتسع لكل شؤون الحياة، ويتناول جميع مظاهرها، وتنظّم تعاليمه شؤون الناس كافة، في الدنيا والآخرة.

ثانياً: السياسة جزء من الدين، وفرع من فروعه، وأن سبب ضعف الدين، وضياعه، هو زوال سلطته السياسية. ويخطئ من يظن أن الدين لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه. يقول (الإمام الغزالي): "إعلم أن الشريعة أصل، والملك حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع".

ثالثاً: ما يتداول في الأوساط الإسلامية حول موضوع الفصل بين الدعوة والسياسة، لا ينبثق من المنظور العلماني، والسياق التاريخي الغربي، من عدم تدخل الدين في السياسة، وإبعاده عن قضايا الشأن العام، وإقصائه من مسرح الحياة السياسية.لأن

السياق التاريخي مختلف، والتجربة الإسلامية ذات خصوصيات مغايرة تماماً، فيما يتعلق بعلاقة الدين بالسياسة.

رابعاً: إن الاتجاه نحو إغراق العمل الدعوي في المناكفات السياسية، وإخضاعه لحسابات الصراعات الحزبية، وإدخاله في المعارك الانتخابية، أمر يضر بالدعوة، وفعالياتها،ورموزها، ويمس بمصداقية العاملين فيها، ويحمل معه مخاطر تستهدف المؤسسات الدينية ومراكز التعليم الشرعي والإرشاد والتوجيه في المجتمع. الأمر الذي يتطلب تجنب الدعوة والعلماء الشرعيين العمل الحزبي والمعترك الانتخابي، للمحافظة على مسار خدمة الدين، والدعوة إلى الله، وعدم استنزاف القوى العاملة في مجال التعليم الديني ومؤسسات التدين العام، من مساجد ومعاهد الدراسات الشرعية.

خامساً: إن ممارسة الفعل السياسي، والعمل الحزبي، لا ينبغي أن يمارسا بعيداً عن المرجعيةالإسلامية، وقيمها، ومقاصدها، وأهدافها، لأن الأحزاب ليست كيانات مستقلة عن مرجعيات فكرية، فكل حزب ينطلق في برنامجه السياسي من منظور قيمي وفكر آيديولوجي.. فأيّ انسلاخ من مرجعية الإسلام، هزيمة نفسية، وضياع للبوصلة والاتجاه.

سادساً: إن النجاح والإنجاز والإبداع من نتاج التخصص والتفرغ في مجالات العلوم والمعارف، وفي ميادين الإصلاح والنهضة، لذا نرىأنالإسلام يرفع من شأن التخصص،ويحثنا على ذلك، ويضع نظاما محكماً بقوله تعالى:(فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) التوبة: ١٢٢، وقوله تعالى: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) الفرقان: ٥٩، وقوله: (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) فاطر: ١٤.. فلكل مجال رجاله من أهل الخبرة والكفاءة والاختصاص. ولما رأى أحد علماء الحديث براعةَ(أبي حنيفة) وحذقه في الاستنباط من الحديث، قال له قولاً، يحترم الاختصاص ويعترف به، ولا يتجاوزه: "نحن الصيادلة، وأنتم الأطباء"، أي: نحن في الحديث كالصيدلي عنده الدواء، وأنتم كالطبيب يشخص الداء، و يصف الدواء.

فعدم التمييز بين شمولية الإسلام في التصور، كدين ووحي، وبين الإسقاط على الواقع، والإنجاز في الميدان،من أبرز أسباب الضعف في الأداء والمكتسبات، والتعثّر في الإصلاح.

سابعاً: تأتي الدعوة بضرورة التمييز بين الدعوي والسياسي، و عدم دمجهما في إطار واحد، من قبل أصحاب الاتجاه الدعوي، أكثر مما تأتي من أصحاب الاتجاه

السياسي،للحيلوله دون استغراق الدعوي في المعترك السياسي، أو طغيان الجانب السياسي على الجانب الدعوي.

وانطلاقاً مما سبق،إن المقصود بالفصل بين المجالين هو الفصل الوظيفي، من حيث التخصص والتفرغ والتأهل، فهو تمييز عملي تنظيمي إداري مستقل، بناء على معرفة تامة بتمايز ميدان الدعوة، بأدبياتها، وآدابها، بخطابها وبرامجها، برموزها ووسائلها، عن ميدان السياسة و تجاذباتها، وصراعاتها، وقواعد العمل فيها.

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى رائد هذه الفكرة، والمنظر لها، في كثير من مقولاته: المفكر الإسلامي (راشد الغنوشي)، رئيس (حركة النهضة) التونسية، لوكالة الأناضول، حيث يقول: "نحن لا نتحدث عن علاقة فلسفية بين الشقين السياسي والدعوي داخل حركة النهضة، لأننا نعتقد أن الإسلام دين شامل، وأن المسلم يمارس كل نشاطه في ظل عقيدته، فلا فصل في عقل المسلم وقلبه بين الدنيا و الآخرة." وأضاف: "نحن نؤثر استخدام كلمة التمايز والتخصص، بدل كلمة الفصل (بين الشقين السياسي والدعوي)، التي تعود بنا إلى فلسفات أخرى، وإلى مراجع أخرى، تتعلق بمسائل فلسفية حول العلاقة بين الدين والسياسة. فنحن نتحدث عن تمايز وتخصص". وقال: "نحن نتحدث عن مرجعية إسلامية، ونحن لا نريد سياسة منعزلة عن القيم الدينية، بل نريد سياسة ببواعث و قيم إسلامية ومقاصد شرعية".. فالمقصود إذاً هو إيجاد حزب سياسي، ينطلق من مرجعية الإسلام وقيمه ومقاصده، يمارس نشاطه السياسي، ويقوم بأدواره، وأداء وظائفه، حسب متطلبات الساحة السياسية، وقواعد اللعبة فيها، بشكل احترافي، ويترك أمر الدعوة إلى الدعاة والجمعيات ومنظمات المجتمع المدني، وسائر المؤسسات التي تعنى بهذا الشأن. فالحزب يخوض المعترك السياسي، بتقلباته وضغوطاته، ويستقطب كل من يوافق على برنامجه السياسي وأهدافه العامة، دون النظر إلى الرؤى الفكرية أو الدينية أو المذهبية. الأمر الذي يجنب الدعوة، وأجهزتها، من تحمل تبعات إخفاقات السياسي، وتعثراته، أو إنجازاته ومكتسباته. الحزب وحده يتحمل مسؤولية مواقفه وتحالفاته، وما تقدمه من وعود انتخابيه، وما تحققه من مكاسب ومصالح، عبر المعارضة أو المشاركة في الحكومة. ومن شأن هذا التمييز وضع كل من السياسي والدعوي في إطاره،وفي سياقه الذي يليق به، وينسجم معه في الأدوات والمناهج والبرامج والخطاب والأهداف..

أرى أن هذا التمييز يخدم الدعوة ومؤسساتها، ويعزز من دور الدين، ويرسخ

حضوره أكثر في المجتمع، حيث يحرر الدعوة من قيود السياسة وإكراهاتها، ويجنبها المحاربة والمحاصرة والتحجيم لأغراض سياسية، من قبل أحزاب السلطة، فتبقى الدعوة حرة طليقة،تنشط في المحيط المجتمعي كحاجة وكضرورة".

خصائص كل من الدعوة و السياسة

ثمة تمايز واضح بين كل من الدعوي والسياسي، في المنهج والخطاب والوسائل والآليات، فلكل ميدان لغته ومنطقه، وآلياته وأهدافه، ورجاله وكفاءاته.

فالدعوي ينطلق من حقائق الوحي وبينات البلاغ المبين، تعلماً وتعليماً، تربية وتزكية، نشراً وبناءاً. قال تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الجمعة: ٢، ولقد لخص (ابن القيم)–رحمه الله– معنى الدعوة إلى الله، في قول بليغ وكلام رصين، قال: "والرسل من أولهم إلى خاتمهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه..." (انظر: مدارج السالكين ج٣\ ٣٤٨–٣٤٩). فجوهر الدعوة هي الرسالة القرآنية، وتبليغها،ودعوة الناس إليها، وتربيتهم عليها، فالدعوي أساسه الوحي، وركيزته الحقيقة.

أما السياسي، فهو انشغال بالهموم اليومية، والقضايا المحلية، ومتابعة المتغيرات والتطورات، على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، ومعرفة دورك وموقعك وموقفك منها، انطلاقاً من المصلحة، واستهدافاً للإصلاح السياسي والاجتماعي، وتطوير البلد من خلال البرامج والمشاريع عبر المشاركة في السلطة وأدوات الوصول إليها، أو المعارضة والتأثير في الرأي العام،وصناعة القرار. فالدعوي أشمل من السياسي، وهو متجرد ومثالي وثابت في طبعه، بينما السياسي متقلب متغير يتناول الحالي والواقعي، فهو تجريبي في ممارسته، والخلط بينهما يسيءإلى الأمرينمعاً، بما يمنع الفاعلية والتأثير في الميدانين. وعن تمايز منطق المجالين يقول (محمد مختار الشنقيطي): "إن منطق الدعوة هو الاكتساب، ومنطق السياسة هو المغالبة، فغاية الدعوة كسب الخصم، وغاية السياسة غلبة الخصم، والجمع بين المنطقين يضر بكل منهما، وتعقيد المجتمعات المعاصرة يحتاج حلولاً معقدة، من ضمنها الفصل بين الوظائف الاجتماعية المختلفة"، "وهذا شبيه بفصل العمل الخيري عن العمل السياسي في أغلب دول العالم، ثم إن الفصل يضمن مزيداً من حرية الحركة والمناورة للمجالين السياسي

والدعوي، ويجعل كلاً منهما متحرراً من أعباء الثاني" (موقع عربي ٢١ الإخباري).

كما ويشير (فهمي هويدي) إلى أنهلم يعد مقبولاً الدمج بين المجالات في الدول الكبرى، وليس من المستساغ وضعها في وعاء واحد، داعياً إلى ضرورة التمييز بين هذه المجالات، من حيث النظر والعمل. ويؤكد على أن العمل السياسي، بتقلباته وصراعاته، يجلب علىلاعبيه عواصف شديدة.

فإذا كان الدعوي مستقلاً ومنفصلاً عن السياسي، فقد حافظ على وجوده، ونجا من مخاطر تلك العواصف الهوجاء.

هذا على المستوى النظري، وتصور بعض المفكرين، أما على مستوى التجارب القائمة، فنحن بحاجة إلى دراسة أعمق، وتقييم موضوعي، آخذين بنظر الاعتبار ملابسات وظروف وبيئة كل تجربة على حدة،فهناك تجربة الاستقلال بالتخصص بشكل كامل، مثل تجربة حزب العدالة والتنمية التركي.وتجربة إنشاء ذراع سياسي للجماعة يخضع لها،مثل تجربة الإخوان في الأردن ومصر واليمن والعراق.. و ثمة تجربة حزب العدالة والتنمية المغربي،حيث قررت الحركة (حركة التوحيد والإصلاح) المضي في الخط الدعوي، وأن يمضي (حزب العدالة) في الخط السياسي، دون تداخل أو خلط، مع الإبقاء على مرجعية تشاورية.

وهناك تجارب أخرى تدمج بين الدعوي والسياسي والاجتماعي، مثل (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، و(حركة حماس)، و(مجتمع السلم) الجزائري.

ونحن في كوردستان نحتاج إلى دراسات معمقة، ومراجعات جذرية، وتشخيص الحالة الإسلامية في كوردستان، وقراءة الظروف والمتغيرات التي تشهدها الساحة، والتجاذبات الموجودة فيها، وتقاطع المصالح، وتصارع المشاريع التي تتنازع المنطقة، للوصول إلى صيغة مثلى في فك ارتباط الدعوي بالسياسي، تناسب كوردستان والحالة الإسلامية فيها.

وتجري في أروقة (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) المناقشات والحوارات حول الفرز بين الملفين السياسي والدعوي على قدم وساق، وهناك تقدم ملحوظ على المستوى العملي، وإن كان بطيئاً، في صالح التمييز بين الدعوي والسياسي، من حيث التخصص والهيكل التنظيمي والإداري، لذلك ففي المؤتمر السابع للحزب اتخذ قرار التمييز داخل إطار الحزب، فأنشئت ثلاثة مجالس: مجلس للشؤون السياسية والجماهيرية، ومجلس للدعوة العامة، وآخر للتنظيم والتربية والشأن الداخلي للحزب. وهذا التقسيم بمثابة مقدمة وتمهيد للفصل الكامل بين الدعوي والسياسي في المستقبل.. وبالله التوفيق❐

العلاقة بين الدعوة والسياسة

في أدبيات الاتحاد الإسلامي الكوردستاني

تحرير: سرهد أحمد

موضوع العلاقة بين الدعوة والسياسة في أدبيات (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) يأتي في جزء منه تتمة للحوارات التي دارت في الندوة الثالثة التى عقدتها (الحوار) تحت عنوان (جدلية العلاقة بين الدعوة والسياسة في الفكر الإسلامي)، والتينشرت تفاصيلها في العددالسابق للمجلة، ولأن المشاركين في الندوة هم من القريبين إلى مركز صنع القرار في (الاتحاد الإسلامي)،فإن آراءهم حول هذا الموضوع المطروح تشكّل استبياناً لمفهوم العلاقة بين الوظيفتين، ونوعها، في فكر (الاتحاد)، خصوصاً وأن الإجابات التي

استعرضها الأساتذة كانت رداً على سؤال: (ظهور دعوات قوية داخل الحزب للفصل بين الوظيفين علاقاتياً، وأسباب عدم تبنّيها).. وقبل أن نورد الإجابات، يفترض استعراض مفهوم هذه العلاقة وطبيعتها في أيديولوجية (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، وأدبياته، منذ نشأته كجماعة دعوية، في منتصف القرن الماضي،والإعلان عن نفسه حزباً سياسياً،أواسط تسعينيات القرن ذاته.

الاتحاد الإسلامي دعوة وجماعة، قبل أن تكون حزباً سياسياً..

طرح (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) هذه الأدبية الفكرية على لسان أمينه العام الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين)، ونشرها في كراس بعنوان: (توجيهات ميدانية)،سنة ١٩٩٨، حيث يقول:"إننا دعوة إسلامية، وجماعة داعية إلى الخير، ننظر إلى الحياة والكون والإنسان بمنظار الإسلام، نزنها بميزانه، وندرك مدى عمق الحاجة البشرية إلى فاطر السموات والأرض، وما فيها، وندرك خطورة الموقف عندما ينسى الإنسان سر خلقه ومهامه في الكون، ويغفل عن بعثه بعد موته، ومايؤول إليه أمره في الحياة الأبدية".

ويضيف: "هنا الفارق الكبير بيننا وبين جيراننا من العاملين في الساحة السياسية"."وبهذا ينكشف مانقوله دائماًأننا سرج منيرة، وأننا أدلاء خير، وأننا على أمر أكبر من حزب سياسي متعارف عليه.. لأن مانحن بصدده هو مهمة الرسل (عليهم الصلاة والسلام)".

تصور (الاتحاد) للعمل السياسي..

يطرح (الاتحاد الإسلامي) تصوّره لوظيفة (السياسة)، على لسان أمينه العام، في نفس الكراس، قائلاً: "العمل السياسي – في مفهومنا – هو جهاد سياسي، وجزء من العبودية التي نمارسها. والحزب السياسي عندنا جهاد سياسي جماعي، يتولى المشروع السياسي المعاصر، تكملة للأبعاد الأخرى من

الحياة الإسلامية. والحكم الإسلامي وسيلة من وسائل تعبيد الناس لرب العالمين، وهو في نفس الوقت من ثمار نضالات الجهاد السياسي الجماعي الذي يمارسه الحزب السياسي".

التأكيد على الجمع بين الوظيفتين..

يؤكد(الاتحاد الإسلامي)، في أدبياته التي يتضمنها الكراس، على الجمع بين الدعوة والسياسة، ويعتبرها من التجارب الناجحة في ميدان العمل السياسي الإسلامي المعاصر في المنطقة، قائلاً: "الاتحاد الإسلامي جمع بين العمل الدعوي والخدمي والسياسي، وفي صورة متوازية، ويمارس التعددية السياسية في ساحة شائكة، وقام بترجمة الأفكار والنظريات الإسلامية في ميدان العمل والتطبيق، مع مراعاة خصوصيات الزمان والمكان".

ويشدّد على المنهج الجامع:"فهذا منهجكم الفكري التربوي الدعوي، الذي يرّبي الفرد علمياً وتربوياً وحركياً، ويصنع منه الرجال".."وهذا هو منهجكم السياسي، الذي رسم لنفسه حدود الممكنات، وتعامل مع الواقعيات، وكتب للجماعة مسك الاستقلالية في القرار، وضبطَ المسار بضوابط الثوابت الشرعية، وحرص على حسن التعامل مع الجيران السياسيين، وتعامل مع التعددية السياسية تعاملاًإيجابياً مميزاً".

وفيالسنوات الأخيرةشهدت الأروقة القيادية، والتنظيرية، للاتحاد الإسلامي الكوردستاني، طروحات قوية، طالبت بفصل الدعوة عن السياسة، تلك الطروحات تستند إلى عدة مبررات، منها: تغيّر المرحلة، ولابد من مواكبة المتغيرات، والتخلّي عن الأدبيات القديمة، لصالح أخرى عصرية، تستوعب أطياف المجتمع، وتستهدف الجميع بالمشاركة. وهذا اعتقاد البعض، فيما يقول البعض الآخر:إن المقصود من طرحهم هو الفصل الوظيفي والمؤسساتي، وأن الجمع يثقل كاهل الاتحاد بمؤسسات دعوية، تنمو وتتوسع أفقياً على حساب المؤسسات السياسية، التي تأتي عمودياً، بحسب التسلسل والمهمة الوظيفية، وأن الأخيرة هي اليد الطولى للحزب،والضرورة القصوى لإدامة عملية الاتصال وصولاًإلى السلطة، عملاً بالقول المأثور"إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

هذه الدعوات، وإن وجدت آذاناً صاغية، لكن لم تأخذ طريقها إلى التبني والتطبيق.. وعن أسبابذلك، يقول الكاتب والباحثالأستاذ (هيوا حامد):"القيام بعملية الفصل بين الدعوة والسياسة، لاتفرضه معطيات البيئة السياسية والمجتمية، بل يرتبط بالبيئة الداخلية للحزب ذاته، فالاتحاد الإسلامي الكوردستاني كان في الأصل جماعة

دعوية، تحوّل إلى حزب سياسي استجابة لضرورات المرحلة ومتطلباتها. وعليه، فإن البناء الحزبي للاتحاد – الكوادر والجماهير – قائم على أدبيات الجماعة الدعوية، وشكّل فيما بعد –ولازاليشكّل – القاعدة التنظيمية الحالية.. وحينما يريد (الاتحاد الإسلامي) التأثير في هذه القاعدة، يلجأ إلى الماضي،ويستحضر تراث الجماعة الدعوية. وأقولها بصراحة: لايملك (الاتحاد) وسائل للتأثير سوى القليل، خصوصاً المؤسسات ذات الطابع المهني المجتمعي.. وخلاصة القول هي إن فكّ الارتباط بين الدعوة والسياسة أمر بالغ الصعوبة والتعقيد بالنسبة للاتحاد الإسلامي".

أماالمفكر والباحثالأستاذ (عمر إسماعيل)، فيتفق مع طرح الأستاذ (هيوا حامد)، مبيّناًأن:"الاتحاد الإسلامي لم يكن حزباًفي الأساس، بل جماعة انتظمت في كيان دعوي، وفيما بعد استثمرت هذه الجماعة الدعوية الظروف السياسية والقانونية، التي كانت مؤاتية آنذاك، وأعلنت عن نفسها حزباً سياسياً باسم (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني).. و(الاتحاد) لازال يمارس العمل السياسي بنفس الوسائل التي يمارس بها وظيفة الدعوة، بمعنى آخر: كثرة المؤسسات مع الأخذ بالأدوات والوسائل ذاتها، وهذا يمثّل ثقلاً مضافاً لاطاقة للاتحاد به.. وأعتقد أن التخلص من هذا العبء يكمن في القيام بفصل مؤسسي ووظيفي". مشيراًإلى وجود أحزاب في العالم العربي والإسلامي مارست هذا الفصل الوظيفي، ونجحت فيه، مثل: (حزب العدالة والتنمية) المغربي، الذي يمارس السياسة، وذراعه الدعوي: (حركة الإصلاح والتوحيد)، وهي مؤسسة تقوم بوظيفة الإرشاد والتبليغ ونشر الثقافة الإسلامية.

ويرى الكاتب والصحفي الأستاذ (علي صالح ميران)،أن هناك ماوصفه بـ(الفوبيا) من دعوات فصل الدعوة عن السياسة، ويضيف قائلاً: "البعض من كوادر الاتحاد الإسلامي يتصور أنه في حال تم الفصلفسينسلخ الحزب عن(التدين)، وهذا بحدّ ذاته سوء فهم لابدّ من تداركه، وتصحيحه".

وتابع حديثه:" هناك كوادر مؤهلة لشغل مناصب إدارية وحكومية، يمكن أن تشكّل نموذجاً دعوياً في أداء وظيفتها بالالتزام والإخلاص، وهما ركيزتان من ركائز القيم الإسلامية، والتحلّي بهما من صميم الدعوة إلى الله".

من جانبه قال الباحث في الفكر الإسلامي الأستاذ (عبد اللطيف ياسين): صحيح ماذهب إليه الأساتذةمن أن الأحزاب الإسلامية ولدتمن رحم الدعوة، مثلاً في (مصر)، وغيرها من البلدان الإسلامية، فالأشخاص الذين كانت لهم اهتمامات دعوية

ودينيـــة، هـــم أنفسهمأسســـوا الأحـــزاب السياسية..هذا هو الشق التاريخي، أما الشـق المصلحي، فهو ترشـيح الأحـزاب الإسـلامية للرمـوز الدينيـة والعلمائيـة في الانتخابـات، بهـدف كسـب الأصـوات، لأن قطاعـاً مـن المجتمع يتأثر بهذه الرموز، وينصاع لخطابهـا. وهذا التوظيف ليس حراماً، ولاعيباً. رغـم ذلك لايمكن أن يستمر، لأن الدعاة والعلماء ليس مكانهم البرلمان، أو أي مؤسسة سياسـية أخرى، والأخيرة محصورة علـى المشـتغلين في العمل السياسي، ويجب أن ننمي وعي الأفراد بهذا الأمر.

أمـا الأكـاديمي والباحـث الاجتمـاعي الأسـتاذ (هيـوا علـي)، فيوضّـحأن البيئـة المجتمعيـة مؤاتيةلعمليـة الفصـل، لكـن البيئـة الداخليـــة للاتحـــاد الإســـلامي غـــير مهيئة،مؤكـداًأن:"هناك إشـكالية عميقـة في التصور والفهم، فقسم من كوادرنا لم يهضـم هذه المسألة الفكرية، وقسم آخـر يسـتوعب الفكرة، ويدرك أهمية المسألة، لكنه لايريد أن يشذّ عن قاعدة (الواقع القائم)".

من جانبه، قال الكاتب والصحفي الأستاذ (سالم الحاج):"بغضّ النظر عن مـا إذا كانـت البيئـة الداخليـة للاتحـاد الإسـلامي مهيـأة أم لالفصـــل وظيفـــة الـــدعوة عـــن العمـــل السياسي،أعتقد أنهمن السابق لأوانه أن يخطو الاتحاد هكذا خطوة، فالشروع بهذه العمليـة لايتم بإصدار قرار، بل يجـب تهيئـة الأرضـية الفكريـة، وهـذه الأرضـية لاعلاقـة للاتحـاد الإسلامي وحده بها، فالقضية مرتبطة بعمـوم الفكر الإسلامي، وكافة التيـارات الإسـلامية في العالم الإسلامي..بمعنى أن القضـية مرتبطـة بمسيرة وتطـور الفكـر الإسـلامي، وتجلياتـه، وتجديده، في العصر الحديث، وليست مشكلة حزب، أو جماعة، هنا أو هناك.

ختاماً تظلّ هذه الطروحات قائمـة، وهـي تمثل التفاعلات الفكرية والتنظيرية التي لاغنى عنها لإيجاد أفضل السبل وأنجع الوسائل الـتي تهـدف للارتقـاء بـأداء (الاتحـاد الإسـلامي الكوردســتاني)، في الســاحتين الدعويــة والسياسية، بما يخـدم المجتمـع الكوردسـتاني، ويرفد الأمّة الإسلامية بعوامل النهوض❐

عبق الكلمات

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

يقول تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ الأنعام/ ٧٠.

أعرض عن ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، فهؤلاء ﴿اتَّخَذُواْ﴾ بدلاً عن دين الله الذي هو الإسلام، ديناً هو لَعِبٌ ولهوٌ، واستناداً إلى ذلك، يستهزؤون بآيات الله ﴿وَ﴾ قد ﴿غَرَّتْهُمُ﴾ جَعَلَتهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ينغرّون بها، ويتّبعون أهواءهم في ذلك.

هنا، يبيّن لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) الآيات، ويُحذّرهم من مغبّة الاستهزاء بها، ويدعوهم إلى دين الله، مكتفياً بذلك، وتركهم بعد الـ﴿ذِكْرَى﴾. فيكون قد أتاهم لأمر مُحدّد، وفور انتهاء المُراد من الحضور، يدعهم وشأنهم.

تستأنف الآية الكريمة:﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كل ﴿نَفْسٌ﴾مرتهنة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، حيث ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ لتلك النفس ﴿مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾، فلا أحد سوى الله قادر أن يتولّى أمرهم، ولا أحد سواه يشفع لهم. ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾﴿وَإِن﴾ تفدي ﴿كُلَّ﴾ فدية ﴿لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ لا يمكن لأي فدية أن تُصبح معادلاً للعقاب، والكلام هنا في الدنيا، أيْ يرتكب شخصٌ ما المعاصي، ثم يُنفق مالاً حتى يُصبح مُعادلاً لتلك المعاصي، كي لا يُحاسِبه الله (تعالى) عليها. فترى أناساً يستمرّون في الآثام، وبذات الوقت يُنفقون أموالاً طائلة على الفقراء والمحتاجين، بهدف أن يكون ذلك الإنفاق مُعادلاً لارتكاب الآثام، ويغدون في منأى عن الحِساب.

يبيّن الله بأنهم لو أنفقوا ﴿كُلَّ﴾ ما لديهم، ﴿لاَّ يُؤْخَذْ﴾ منهم شيء، لأن نيّة الإنفاق باطلة.

وعلى نقيض ذلك، فإن الذين يتوبون، وينفقون أموالهم في سبيل الله، يجدون عنده الثواب. فاعلموا يا مَن تكفرون بالله، وتستهزؤون بآياته، وتتّخذون من اللعب واللهو ديناً لكم، وقد جريتم خلف مغريات الحياة الدنيا. أنه لا يمكن له أن يتدخّل في مسألة عِقابكم، ولن يتولّى عِقابكم، سوى الله وحده، ولا أحد يجوز له أن يشفع لكم سواه، ولا يقبل الله منكم فدية نظير العذاب.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، كما لو أنك تقول: تَوَقّفَ الشخصُ بما ارتكبَ مِن جِناية، أي هو موقوفٌ على خلفيّة جِناية ارتَكَبها، ويكون له حكمه.

أمّا هنا، فهؤلاء الذين يقفون بين يدَي الله (عز وجل)، على خلفية ما تبيّن من أفعالهم، فـ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ عقابهم أن ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾. ﴿لَهُمْ﴾ يتناولون ﴿شَرَابٌ﴾ سائلاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ به سخونة شديدة، ﴿وَ﴾ إضافة إلى ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

لماذا يلقون كل هذا؟ يلقونه ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، ﴿كَانُواْ﴾ والقرآن ليس موجهاً إلى الـ ﴿كَانُواْ﴾، بل إلى الذين لم يتحوّلوا بعد إلى ﴿كَانُواْ﴾.

على ذلك، فيمكنك استنتاج أن كل هذه الألوان مِن العقاب، لم تقع بعد، لأن الذي يتوجّه إليه هذا الكلام هو حي، والقرآن موجّه إلى الأحياء، وبذلك فالكلام هو بمثابة تحذير من مغبّة ما سيؤولون إليه، ليس لأنهم سخروا من آيات الله، بل إذا استمرّوا في السخرية منها، ولم يتوبوا. أيْ يقول لهم القرآن الكريم: يمكنكم تفادي ذلك.

فإن رأيتَ شخصاً يمضي في طريق وعر نحو الهلاك، فتنصحه كي يتجنّب استئناف المسير تفادياً للهلاك المُحَقق الذي لابدّ أن ينتهي إليه، فلعلّه لا يعلم، فينتبه، أو لعلّه يعلم، فيتراجَع. فهو إذن قادر على التراجع إلى صراط مستقيم، وقادر على الاستئناف، ولكنك تكتفي بالتنبيه دون أن تفرض عليه شيئاً بالقوة. فإن رأيتَ به عناداً شديداً واستهزاءً بنصحك، تركته حيث هو، وإن رأيته استجاب، استَحسَنتَ تحوّله. ولله المثل الأعلى، فهنا بيان وتنبيه حتى لا يتحوّل هؤلاء الذين هم هنا، إلى ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، بل يتحوّل المسار بهم، ويظفروا بالنعيم ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يؤمنون، ويصلحون، ويحسنون. فكل ألوان العذاب التي يبيّنها القرآن، هي لأناس يمكن لهم أن يتفادوها، وليس لأناس لا يمكن لهم تفاديها، وإلاّ فالقراءة لم تعد مُجدية.

تُعلّمكَ الآية بأن القرآن الكريم مفتوح لهداية كل إنسان كائناً مَن كان، وفاعلاً ما فعل، ولا يوجد إنسان مُستثنى من التعرّض لهذه الهداية، لأن القرآن لم يُنزَل لأناس دون أناس، بل للناس كافة❐

عقوبة الرّجم في الفكر الإسلامي المعاصر بين الرفض والقبول	د. صهيب آميدي
الدكتور (عماد الدين خليل) والاستشراق في التاريخ الإسلامي	د. محمد علي صالح
حلقات مفقودة من تاريخ منطقة بهدينان	د.فرست مرعي
المثاقفة الذاتية وأثرُها في تعزيز العمليّة التعليميّة	سعد الزيباري

عقوبة الرّجم في الفكر الإسلامي المعاصر

بين الرفض والقبول

د.صهيب مصطفى ئاميدى

مقدمة

تعتبر عقوبة الرجم من القضايا المثيرة للجدل في أوساط المفكرين المعاصرين، وهي من الشبهات التي تثار حول الإسلام كثيراً. وفي داخل الفكر الإسلامي تتباين آراء المفكرين حول المسألة بين مؤيد ومعارض. هذا البحث يتناول هذه المسألة، ويحاول التعرف على الآراء المختلفة حول الموضوع، وأدلة كل فريق.

وتنبع أهمية البحث من حيث أن عقوبة الرجم تعتبر من المسائل الساخنة في الأوساط الفكرية المعاصرة، ومن حيث إن موضوع الرجم لم يخضع لدراسة متأنية عبر العصور، وإنما هي آراء تناقلها العلماء.

ومن هنا يحاول هذا البحث الإجابة على التساؤلات الآتية:

١. هل عقوبة الرّجم موجودة في الإسلام أم لا؟

٢. هل الرّجم حدّ أو تعزير؟

٣. هل ما ذكر في السنن من تطبيق الرجم في زمن الرسول(صلى الله عليه وسلم) نسخَ القرآن الكريم، أم أن القرآن نسخ تلك الأحكام؟

مفهوم الرّجم

ذكرت معاجم اللغة مجموعة من المعاني لكلمة الرّجم، ومنها(١): (القتل، الرمي بالحجارة، اللعن، الهجران والطرد، الظن، كما ورد في قوله تعالى ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾(٢)، السبّ والشتم، اسم لما يُرجم به، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾(٣).

والمعنى المقصود من هذه المعاني، في هذا البحث، هو المعنيين الأول والثاني، أيْ إننا نعني بالرّجم: العقوبة التي تهدف إلى القتل عن طريق الرمي بالحجارة.

الرّجم في التوراة والإنجيل

أولا: الرّجم في التوراة:

عقوبة الرّجم وردت في (التوراة) في عدة مواضع، وفي أكثر من حالة ومناسبة. ومن الحالات والجرائم الموجبة لرجم الإنسان:

١. عبادة غير الله: من الجرائم الموجبة لعقوبة الرّجم في (التوراة) عبادة غير الله، ومن أدلة ذلك:

- ورد في (سفر التثنية): (٦ وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ، قَائِلاً: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ، ٧ مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكَ، الْقَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ الْبَعِيدِينَ عَنْكَ، مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا، ٨ فَلاَ تَرْضَ مِنْهُ وَلاَ تَسْمَعْ لَهُ وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَرِقَّ لَهُ وَلاَ تَسْتُرْهُ، ٩ بَلْ قَتْلاً تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلاً لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا. ١٠ تَرْجُمُهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ)(٤).

- ورد أيضا في (سفر التثنية): (٢إِذَا وُجِدَ فِي وَسَطِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ يَفْعَلُ شَرًّا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلهِكَ بِتَجَاوُزِ عَهْدِهِ، ٣ وَيَذْهَبُ وَيَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى وَيَسْجُدُ لَهَا، أَوْ لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْقَمَرِ أَوْ لِكُلّ مِنْ جُنْدِ السَّمَاءِ، الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ أُوصِ بِهِ، ٤ وَأُخْبِرْتَ وَسَمِعْتَ وَفَحَصْتَ جَيِّدًا، وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ أَكِيدٌ. قَدْ عُمِلَ ذلِكَ الرِّجْسُ فِي إِسْرَائِيلَ، ٥ فَأَخْرِجْ ذلِكَ الرَّجُلَ أَوْ تِلْكَ الْمَرْأَةَ، الَّذِي فَعَلَ ذلِكَ الأَمْرَ الشِّرِّيرَ إِلَى أَبْوَابِكَ، الرَّجُلَ أَوِ الْمَرْأَةَ، وَارْجُمْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ)(٥).

٢. العمل يوم السبت: العمل في يوم السبت من الجرائم الموجبة للرجم. جاء في (سفر العدد): (٣٢ وَلَمَّا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَجَدُوا رَجُلاً يَحْتَطِبُ حَطَبًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ. ٣٣ فَقَدَّمَهُ الَّذِينَ وَجَدُوهُ يَحْتَطِبُ حَطَبًا إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَكُلِّ الْجَمَاعَةِ. ٣٤ فَوَضَعُوهُ فِي الْمَحْرَسِ، لأَنَّهُ لَمْ يُعْلَنْ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِ. ٣٥ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَتْلاً يُقْتَلُ الرَّجُلُ. يَرْجُمُهُ بِحِجَارَةٍ كُلُّ الْجَمَاعَةِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ». ٣٦ فَأَخْرَجَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَرَجَمُوهُ بِحِجَارَةٍ، فَمَاتَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى)(٦).

٣. عقوق الوالدين: ومن الأسباب الموجبة للرجم في (التوراة) عقوق الوالدين، حيث ورد في (سفر التثنية): (١٨ إِذَا كَانَ لِرَجُلٍ ابْنٌ مُعَانِدٌ وَمَارِدٌ لاَ يَسْمَعُ لِقَوْلِ أَبِيهِ

وَلاَ لِقَوْلِ أُمِّهِ، وَيُؤَدِّبَانِهِ فَلاَ يَسْمَعُ لَهُمَا. ١٩ يُمْسِكُهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ وَيَأْتِيَان بِهِ إِلَى شُيُوخِ مَدِينَتِهِ وَإِلَى بَابِ مَكَانِهِ، ٢٠ وَيَقُولاَن لِشُيُوخِ مَدِينَتِهِ: ابْنُنَا هذَا مُعَانِدٌ وَمَارِدٌ لاَ يَسْمَعُ لِقَوْلِنَا، وَهُوَ مُسْرِفٌ وَسِكِّيرٌ. ٢١ فَيَرْجُمُهُ جَمِيعُ رِجَالِ مَدِينَتِهِ بِحِجَارَةٍ حَتَّى يَمُوتَ)(٧).

٤. الزنى: ومن الجرائم الموجبة للرجم في (التوراة): الزنى، فقد ورد الحديث عن عقوبة جريمة الزنى في (سفر التثنية): (٢٠ وَلكِنْ إِنْ كَانَ هذَا الأَمْرُ صَحِيحًا، لَمْ تُوجَدْ عُذْرَةٌ لِلْفَتَاةِ. ٢١ يُخْرِجُونَ الْفَتَاةَ إِلَى بَابِ بَيْتِ أَبِيهَا، وَيَرْجُمُهَا رِجَالُ مَدِينَتِهَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَمُوتَ، لأَنَّهَا عَمِلَتْ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِزِنَاهَا فِي بَيْتِ أَبِيهَا. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ. ٢٢ إِذَا وُجِدَ رَجُلٌ مُضْطَجِعًا مَعَ امْرَأَةٍ زَوْجَةِ بَعْل، يُقْتَلُ الاثْنَانِ: الرَّجُلُ الْمُضْطَجِعُ مَعَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ إِسْرَائِيلَ. ٢٣ إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُل، فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، ٢٤ فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى بَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا)(٨).

هذا وقد ورد الرّجم في (التوراة) كعقوبة للحيوانات، حال اعتدائها على الإنسان. فقد ورد أن الرّجم هو عقوبة الثور الهائج، وذلك في (سفر الخروج): (وَإِذَا نَطَحَ ثَوْرٌ رَجُلاً أَوِ امْرَأَةً فَمَاتَ، يُرْجَمُ الثَّوْرُ وَلاَ يُؤْكَلُ لَحْمُهُ. وَأَمَّا صَاحِبُ الثَّوْرِ فَيَكُونُ بَرِيئًا. ٢٩ وَلكِنْ إِنْ كَانَ ثَوْرًا نَطَّاحًا مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ أُشْهِدَ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَمْ يَضْبِطْهُ، فَقَتَلَ رَجُلاً أَوِ امْرَأَةً، فَالثَّوْرُ يُرْجَمُ وَصَاحِبُهُ أَيْضًا يُقْتَلُ. ٣٠ إِنْ وُضِعَتْ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ، يَدْفَعُ فِدَاءَ نَفْسِهِ كُلَّ مَا يُوضَعُ عَلَيْهِ. ٣١ أَوْ إِذَا نَطَحَ ابْنًا أَوْ نَطَحَ ابْنَةً فَبِحَسَبِ هذَا الْحُكْمِ يُفْعَلُ بِهِ. ٣٢ إِنْ نَطَحَ الثَّوْرُ عَبْدًا أَوْ أَمَةً، يُعْطِي سَيِّدَهُ ثَلاَثِينَ شَاقِلَ فِضَّةٍ، وَالثَّوْرُ يُرْجَمُ. ٣٣)(٩).

ثانياً: الرّجم في الإنجيل:

ورد في (الإنجيل) ذكر حادثة وقوع جريمة الزنى، ومطالبة بتنفيذ الرّجم ضد المرأة الزانية، ولكن العقوبة لم تنفّذ. وذلك في (إنجيل يوحنا): (١ أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُون. ٢ ثُمَّ حَضَرَ أَيْضًا إِلَى الْهَيْكَلِ فِي الصُّبْحِ، وَجَاءَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ. ٣ وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِنًا. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسْطِ ٤ قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، هذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ، ٥ وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟» ٦ قَالُوا هذَا لِيُجَرِّبُوهُ، لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأَرْضِ. ٧ وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا

يَسْأَلُونَهُ، انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!» ٨ ثُمَّ انْحَنَى أَيْضًا إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى الأَرْضِ. ٩ وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ، خَرَجُوا وَاحِدًا فَوَاحِدًا، مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسْطِ. ١٠ فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَدًا سِوَى الْمَرْأَةِ، قَالَ لَهَا: «يَاامْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟» ١١ فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا»(١٠).

الرّجم في القرآن الكريم

عند استقراء آيات القرآن الكريم نجد أنه لم يتطرق للرّجم كعقوبة على جريمة، بالرغم من ورود لفظ الرّجم في حوالي أربع عشرة آية، وإنما جاءت بمعاني وإشارات أخرى، ومنها:

١. وصف للشيطان بأنه رجيم. ومن أمثلة ذلك:

– قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١١).

– قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٢).

٢. تهديد الأقوام السابقة للأنبياء والدعاة بالرّجم. ومن أمثلة ذلك:

– قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١٣).

– قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (١٤).

٣. ورد بمعنى الظن أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ (١٥).

٤. وورد بمعنى المرجوم، أي الشيء الذي يُرجم به، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (١٦).

وهكذا تبيّن أن الرّجم في القرآن الكريم ورد كوصف للشيطان تارة، وورد بمعنى الظن والشيء الذي يُرجم به، كما ورد كتهديد للأنبياء والدعاة من قبل الأقوام السابقة، ولكن لم يرد ذكر الرّجم كعقوبة أو حدّ للزاني المحصن(١٧).

لكن جمهور الفقهاء الذين قالوا برجم الزاني المحصن استشهدوا بأحاديث من السنة النبوية، وسنتعرف على تلك الأدلة في ما يلي.

الرّجم في الفكر الإسلامي المعاصر

ونقصد هنا تحديداً الرّجم كعقوبة لجريمة الزنى في حالة الإحصان، أيْ عقوبة الزاني المحصن. وعند البحث يمكن رصد ثلاث اتجاهاتللمفكرين المعاصرين إزاء عقوبة الرّجم:

١. الاتجاه الأول: هو اتجاه غالبية المفكرين والعلماء، وهو تأييد عقوبة الرّجم، واعتباره حدّاً لجريمة الزنى في حالة الإحصان.

٢. الاتجاه الثاني: اتجاه القائلين بأن الرّجم ليس عقوبة حدّ، بل عقوبة تعزير.

٣. الاتجاه الثالث: اتجاه الرافضين لعقوبة الرّجم.

وسنتناول كل اتجاه من هذه الاتجاهات، ونتعرض لأدلة كل فريق، وكما يلي:

فريق المؤيدين لعقوبة الرّجم:

كما أسلفنا، فإن غالبية العلماء والمفكرين يتبنون رأي جمهور الفقهاء بالقول بأن الرّجم حدّ من الحدود، وهو عقوبة للزاني المحصن، مع اختلافات وتفصيلات في تحديد شروط الإحصان. ولكن الذي يعنينا في هذا هو الأدلة التي استندوا إليها في تحديد عقوبة الرّجم، ويبدو أن المعاصرين تبنوا أدلة الجمهور قديماً في تثبيت عقوبة الرّجم. ومن أشهر تلك الأدلة:

١. حديث عمر (رضي الله عنه) بخصوص آية الرّجم، التي يُزعم أنها كانت موجودة في القرآن الكريم، ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها. هذا الحديث رواه (البخاري) مطولاً، وجاء فيه أن عمر رضي الله عنه قال: (... إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرّجم، فقرأناها وعقلْناها ووعيناها، رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرّجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرّجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف)(١٨).

٢. حديث عبادة بن الصامت الذي رواه (مسلم): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرّجم(١٩).

٣. السنة العملية للرسول صلى الله عليه وسلم، حيث وردت أحاديث تفيد بأن الرسول نفّذ عقوبة الرّجم على رجل من أسلم يدعى ماعزاً(٢٠)، وكذلك على امرأة غامدية(٢١)،وأيضا على امرأة أخرى، كما ورد في حديث العسيف(٢٢)، وكذلك على يهوديين(٢٣).

هذا، ومن القائلين بقول الجمهور من المعاصرين (محمد الطاهر بن عاشور) في تفسيره (التحرير والتنوير)، حيث يقول في تفسير آية النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (٢٤): "ففرض حدّ الزنى بهذه الآية جلد مائة، فعمّ المحصن وغيره، وخصصته السنّة بغير المحصن من

الرجال والنساء، فأما من أحصن منهما، أي تزوج بعقد صحيح، ووقع الدخول، فإن الزاني المحصن حدّه الرّجم بالحجارة حتى يموت. وكان ذلك سنّة متواترة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ورجم ماعز ابن مالك. وأجمع على ذلك العلماء، وكان ذلك الإجماع أثراً من آثار تواترها"(٢٥).

ومن القائلين بهذ الرأي أيضاً (السيد سابق)، في كتابه المشهور (فقه السنّة)، حيث نقل اتفاق العلماء على عقوبة الرّجم للزاني المحصن(٢٦).

ومنهم أيضاً فضيلة الدكتور (وهبة الزحيلي)، الذي بيّن أن عقاب الزناة الأبكار هو الجلد، وأنه ثبت في السنة رجم الزاني المحصن حتى الموت(٢٧).

فريق القائلين بأن الرّجم عقوبة تعزيرية، وليست حداً:

طرأ تطور على موقف بعض المفكرين المعاصرين إزاء عقوبة الرّجم، فخالفوا رأي جمهور العلماء، وذلك بالقول بأن الرّجم عقوبة تعزيرية، وليست حدّاً. ولعل من أبرز هؤلاء العلماء والمفكرين فضيلة الشيخ (د.مصطفى الزرقا) رحمه الله، وفضيلة الشيخ (د.يوسف القرضاوي).

أولا: الشيخ مصطفى الزرقا:

أشار الشيخ (مصطفى الزرقا) إلى موقفه ورأيه تجاه قضية الرّجم في كتابه (فتاوى الزرقا)، حيث قال، بعد أن ذكر الآثار التي رويت حول الرّجم: "ولكني أرى مجالاً كبيراً لاحتمال أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالرّجم في تلك الحوادث الثابتة على سبيل التعزير لا على سبيل الحدّ، إذ رأى أن زنى المحصن المستغني بزوجة شرعية يحتاج في ذلك العهد إلى زاجر أقوى من زاجر البكر ليقضي على سفاح الجاهلية المشهور. وهذا أمر يعود تقديره شرعاً إلى ولي الأمر، كما في سائر الحالات التي تستوجب الزجر بالتعزير المفوض إلى ولي الأمر. وعندئذ يمكن أن يقال في أمر الرّجم ما يقال في كل تعزير من أنه مفوّض إلى وليّ الأمر بحسب ما يرى من المصلحة، فإن شاء طبّقه، وإن شاء اكتفى بالجلد، الذي هو وحده الحدّ، وإن شاء جمعهما حدّاً وتعزيراً. وإن شاء حدّ المحصن حدّاً، وزاد عليه زاجراً آخر غير الرّجم تعزيراً، لأن زناه أشد وأفظع من زنى البكر. كل ذلك بحسب ما يرى من وجه المصلحة والحاجة الزمنية والشخصية، وفقاً لقاعدة التعزيرات، نظير مانرى في قوانين العقوبات اليوم من تخيير القاضي بين حدّين أدنى وأعلى من عقوبتي التغريم والحبس، كلتيهما أو إحداهما، وهو مما تقبله قاعدة التعزير الشرعي في الإسلام.

وهذا الرأي –أعني حمل ما ورد من السنة في الرّجم على قاعدة التعزير– وإن كان لم

يره أحد من الأئمة الأربعة، تشهد له بعض الدلائل في الحديث النبوي نفسه الذي قرر حكم الرّجم. ذلك أنه بعد أن قرّر القرآن في (سورة النساء) العقوبة المبدئية للزنى بقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنّ فِي الْبُيُوتِ حَتّىَ يَتَوَفّاهُنّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنّ سَبِيلاً﴾ (٢٨)، نزلت عقوبة الجلد في (سورة النور) للشريكين المتزانيين، فأعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بقوله: (خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة والرّجم بالحجارة)(٢٩).

ففي هذا الحديث النبوي، الذي هو النص الأصلي في تشريع الرّجم، نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أضاف على الجلد، الذي ورد في القرآن، تغريب عام للبكر، وأضاف الرّجم للثيب. وبهذا أخذ فريق من الأئمة، فقالوا: إن الحدّ في كل منها يتكون من العقوبتين معاً: التغريب مع الجلد في البكر، وكذا الرّجم مع الجلد في الثيب. لكن الحنفية ذهبوا إلى أن التغريب في البكر ليس جزءاً من الحدّ، بل هو تعزير مفوض تطبيقه وعدمه إلى رأي الحاكم ولي الأمر، وذلك بدليل من السنة نفسها: فالتغريب المقرون بالجلد في البكر، والمعطوف عليه عطفاً، يشركه في الحكم إذا صح أن يعتبر تعزيراً، كمذهب الحنفية، ويكون الحدّ هو الجلد فقط(٣٠).

ثانيا: الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي:

عبّر فضيلة الشيخ (الدكتور يوسف القرضاوي) عن رأيه في الرّجم، في الجزء الثالث من مذكّراته، أثناء حديثه عن موقف الشيخ (محمد أبو زهرة) الرافض للرّجم، والذي عرضه في مؤتمر في مدينة البيضاء الليبية عام ١٩٧٢، والذي سيأتي ذكره لاحقاً. حيث ذكر الدكتور (يوسف القرضاوي) الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ (محمد أبو زهرة) بعد الجلسة، وأنه قال له:

يا مولانا، عندي رأي قريب من رأيك، ولكنه أدنى إلى القبول منه. قال: وما هو؟

قلت: جاء في الحديث الصحيح: (البكر بالبكر: جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب: جلد مائة، ورجم بالحجارة)(٣١).

قال: وماذا تأخذ من هذا الحديث؟ قلت: تعلم فضيلتك أن الحنفية قالوا في الشطر الأول من الحديث: الحد هو الجلد، أما التغريب أو النفي، فهو سياسة وتعزير، موكول إلى رأي الإمام، ولكنه ليس لازماً في كل حال.

وعلى هذا نقول في الشق الثاني من الحديث: إن الحد هو الجلد، والرّجم سياسة وتعزير، مثل التغريب والنفي، فنُثبت ما جاءت به الروايات من الرّجم في العهد

النبوي، فقد رجم يهوديين، ورجم ماعزاً، ورجم الغامدية، وبعث أحد أصحابه في قضية امرأة العسيف.

وكذلك ما روي أن (عمر) رجم من بعده، وأن (علياً) رجم كذلك. ولكنّا نفسر هذه الوقائع على أنها لون من التعزير والسياسة الشرعية. والأحكام التعزيرية ليست لازمة دائماً، كما هو معلوم.

ولكن الشيخ لم يوافق على رأيي هذا، وقال لي: يا يوسف، هل معقول أن محمد بن عبد الله الرحمة المهداة، يرمي الناس بالحجارة حتى الموت؟ هذه شريعة يهودية، وهي أليق بقساوة اليهود(٣٢).

كما عبر (القرضاوي) عن رأيه هذا في تعليقه على (فتاوى الزرقا)، حيث قال: "إني والشيخ متفقان تماماً على هذه الوجهة، فالرّجم مع الجلد كالتغريب مع الجلد، وإن لم يقل بذلك أحد الفقهاء، ولكنه في رأيي اجتهاد وجيه"(٣٣).

فريق الرافضين لعقوبة الرّجم

هناك فريق ثالث من المفكرين والعلماء المعاصرين يرفضون عقوبة الرّجم نهائياً، وينكرون أن يكون الرّجم عقوبة إسلامية، بل هي عقوبة يهودية تسللت إلى النصوص الإسلامية. ويستندون في مذهبهم ورأيهم هذا على مجموعة من الأدلة النقلية والعقلية.

ومن أشهر هؤلاء فضيلة الشيخ (محمد أبو زهرة)، والعالم الكوردي فضيلة الأستاذ الدكتور (مصطفى الزلمي). وسنتعرض لرأي كلا الشيخين:

أولاً: الشيخ محمد أبو زهرة:

يعتبر الشيخ (محمد أبو زهرة) من أوائل من أثاروا رأياً مخالفاً حول عقوبة الرّجم في القرن العشرين. وبالرغم من أنه في كتبه وفتاواه المكتوبة كان يتبنى رأي الجمهور، حيث أورد أدلة الجمهور في ثبوت حدّ الرّجم، التي ذكرناها، ونسب إلى الخوارج، وبعض المعتزلة، وبعض الشيعة، أنه لا عقوبة في الزنى غير الجلد، وعرض أدلتهم، ولكنه في النهاية رجّح رأي الجمهور القائل بأن الرّجم حدّ وعقوبة للزاني المحصن(٣٤).

إلا أنه يبدو من بعض الأدلة والوقائع أنه عبّر عن رأي مخالف لذلك في أواخر حياته، وأنكر عقوبة الرّجم، وقال بأنها عقوبة يهودية تسرّبت إلى الإسلام، وذلك في مؤتمر (ندوة التشريع الإسلامي)، الذي انعقد في مدينة البيضاء في ليبيا عام ١٩٧٢، فقد نقل الشيخ (د.يوسف القرضاوي) في مذكراته عند حديثه عن تلك الندوة قائلا:

"في هذه الندوة فجّر الشيخ (أبو زهرة) قنبلة فقهية، هيجّت عليه أعضاء المؤتمر، حينما فاجأهم برأيه الجديد. وقصة ذلك: أن الشيخ رحمه الله وقف في المؤتمر، وقال: "إني

كتمت رأيًا فقهيًا في نفسي من عشرين سنة، وكنت قد بحث به للدكتور (عبد العزيز عامر)، واستشهد به قائلاً: أليس كذلك يا دكتور عبد العزيز؟ قال: بلى. وآن لي أن أبوح بما كتمته، قبل أن ألقى الله تعالى، ويسألني: لماذا كتمت ما لديك من علم، ولم تبيّنه للناس؟ هذا الرأي يتعلق بقضية (الرّجم) للمحصن في حد الزنى، فرأى أن الرّجم كان شريعة يهودية، أقرّها الرسول صلى الله عليه وسلم في أول الأمر، ثم نسخت بحد الجلد في (سورة النور). قال الشيخ: "ولي على ذلك أدلة ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٣٥)، والرّجم عقوبة لا تتنصف، فثبت أن العذاب في الآية هو المذكور في سورة النور: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٦).

والثاني: ما رواه (البخاري) في جامعه الصحيح عن الشيباني سألتُ عبدَ اللهِ بنَ أبي أوفى: هل رجمَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم، قلتُ: قبلَ سورةِ النورِ أم بعدُ ؟ قال: لا أدري(٣٧). فمن المحتمل جدًا أن تكون عقوبة الرّجم قبل نزول آية النور التي نسختها.

والثالث: أن الحديث الذي اعتمدوا عليه، وقالوا: إنه كان قرآنًا ثم نسخت تلاوته، وبقي حكمه، أمر لا يقرّه العقل: لماذا تنسخ التلاوة والحكم باق؟ وما قيل: إنه كان في صحيفته فجاءت الداجن وأكلتها، لا يقبله منطق(٣٨).

ثانيا: الأستاذ الدكتور مصطفى الزلمي:

إذا كان الشيخ (محمد أبو زهرة) قد عبر عن رأيه مشافهة في أحد المؤتمرات، فإن الدكتور (مصطفى الزلمي) عبّر عن موقفه الرافض للرجم في كتيّب ألّفه بعنوان: (لا رجم في القرآن)، وبيّن فيها الأسباب التي دعته للكتابة في هذا الموضوع، ومنها أن العلماء منذ القرن الثاني الهجري اختلفوا في موضوع الرّجم، فأكثرهم أقرّوه، وقليل منهم عارضوه، دون وصول أحد الطرفين إلى تقديم دراسة علمية حقيقية تعالج الموضوع، وترفع الغموض المحيط به. كما أنه يوجد تعارض ظاهري واضح بين القرآن، وما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحاديث، فيما يتعلق بالرّجم(٣٩).

ويتناول الدكتور القضية في مجموعة من المباحث، ومنها: أولاً: الرّجم والقرآن، وفيه يعرض الآيات المتعلقة بعقوبة الزنى، ثم ينكر وجود آية باسم آية الرّجم، ويقول بأنها أكذوبة، وذلك في نقطة خاصة بعنوان: (أكذوبة الشيخ والشيخة)، ويرد على تلك الأكذوبة من عدة وجوه: (٤٠)

١. أن هذه الأكذوبة رويت بعدة تعابير، وليس هناك اتفاق على صيغة واحدة لها.

٢. من له أدنى ذوق بلاغي يعلم أن العبارة بعيدة عن كلام الله.

٣. القول بأنه كانت آية ثم نسخت، خطأ فادح لأمرين: أولاهما: أنه لا نسخ في القرآن، كما أثبتنا ذلك في مؤلفنا: (التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن). والثاني نسخ المعنى والاحتفاظ باللفظ، أو العكس، خطأ يرفضه العقل والمنطق، لأنهما متلازمان.

٤. الرّجم منوط بالإحصان، لا بالشيخوخة.

٥. كل آية وكلمة وجملة في القرآن متواترة، ولوكانت هذه الأكذوبة من القرآن لما حصل فيها الخلاف، ولما رويت بروايات مختلفة.

وفي مبحث آخر يتناول الشيخ الزلمي الرّجم في القضاء النبوي، وبعد أن ذكر الأحاديث والروايات المتعلقة بالرّجم علّق على تلك الروايات بمجموعة من الملاحظات ومنها: (٤١)

١. أحاديث الرّجم وردت بروايات مختلفة، منها: الاختلاف في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير ونحو ذلك، فهي مضطربة ومطعونة ومعلولة.

٢. إن أحاديث الرّجم إذا كانت قبل سورة النور، فآية ﴿الزانية والزاني..﴾ نسختها، لأنها كانت من اجتهادات الرسول صلى الله عليه وسلم متأثراً بالعرف الجاهلي، وبالتوراة.

٣. تردد الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من تطبيقات الرّجم، حسبما جاء في حديث ماعز والغامدية وغيرهما، دليل واضح أن هذا التردد كان ناتجاً من اجتهاده، لأن الحدود الثابتة بالقرآن، كحد السرقة والقذف لم يتردد الرسول صلى الله عليه وسلم في تطبيقها.

٤. لم ترد قصة ماعز والغامدية، ولو حتى بإشارة عابرة، في كتب التاريخ المشهورة، رغم جسامة هذه الأمور. فلم يرد ذكرها في (الطبري)، و(البداية والنهاية)، ولم يشر إليها (ابن هشام) في سيرته التي جاءت في عدة مجلدات.

واستمر الشيخ في مناقشة أدلة الجمهور، وبيان ضعفها، من خلال بعض القواعد الأصولية والفقهية والمنطقية والفلسفية والعقلية. ثم بيّن الشيخ (الزلمي) أسباب اتفاق جمهور الفقهاء على الرّجم، باستثناء الخوارج والمعتزلة، وأورد أحد عشر سبباً، وذكر من بينها: (٤٢)

١. حسن ظنهم بكل من لم يعرف بالكذب أو الجهل من رواة الحديث.

٢. عدم إلمامهم بقواعد التحديث وشروط العمل بالأحاديث.

٣. إنعزالهم للاجتهاد وعدم اختلاطهم بالناس.

٤. الثقة التامة بالبخاري ومسلم.

٥. تقليد الخلف للسلف، وعدم اعتقادهم بأن من يقلّده قد يخطأ.

كان هذا ملخص رأي كل من الشيخ (د.محمد أبو زهرة)، والشيخ (د.مصطفى الزلمي)، وموقفهما الرافض لعقوبة الرّجم.

ويبدو أن موقف الشيخ (محمد أبو زهرة)، وأدلته الجديدة، ورأيه المخالف لرأي جماهير العلماء منذ قرون طويلة، والذي طرحه – كما سلف– في أوائل سبعينيات القرن العشرين، هو الذي ألهم الكثير من العلماء والمفكرين والباحثين، وشجّعهم على إعادة النظر في عقوبة الرّجم، ودراسة الموضوع دراسة متعمقة أكثر، والبحث في أدلة الجمهور ومناقشتها. وعلى سبيل المثال، فإن الشيخ (محمد أبو زهرة) عندما عبّر عن رأيه، استدل بثلاثة أدلة، ذكرناها سابقا، ثم في عقد الثمانينيات نشر المفكر المصري (د.مصطفى محمود) مقالاً بعنوان: (لا رجم للزانية)، وعرض فيها تسعة أدلة، وبذلك أضاف إلى أدلة الشيخ (أبي زهرة) ستة أدلة أخرى(٤٣).

وبعده أعاد العالم الموريتاني الشيخ (د.محمد المختار الشنقيطي) دراسة الموضوع، وأضاف أدلة جديدة إلى رأي القائلين برفض عقوبة الرّجم، وسجّل عشرين ملاحظة على رأي الجمهور، وذلك في مقالة له بعنوان: (لا رجم في شريعة الرحمة الإسلامية.. عشرون ملاحظة)(٤٤).

أما المفكر الإسلامي (د.عدنان إبراهيم)، فقد تعمق أكثر في المسألة، وناقش أدلة الجمهور مناقشة علمية دقيقة، لكل من الأسانيد والمتون، ووفق ضوابط علوم الحديث، وعلوم الجرح والتعديل، إلى أن انتهى إلى أن الرّجم ليس حدّاً، ولا حتى تعزيراً، بل هو عقوبة أصلها في (التوراة) تسربت إلى الإسلام، وإن كانت هناك أدلة على رجم الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، فهي حالات سبقت نزول آية الجلد في (سورة النور)(٤٥).

المناقشة والترجيح

بعد عرض موقف الاتجاهات الثلاثة، يبدو أن الخلاف الرئيسي هو بين التيار الأول، المتمثل في رأي الجمهور القائل بأن الرجم حدّ للزاني المحصن، وبين التيار الثالث الرافض لعقوبة الرّجم.

هذا، وبالرغم من أن الرأي الأول هو رأي جماهير العلماء، قديماً وحديثاً، إلا أن

الباحث يميل إلى ترجيح رأي الرافضين لعقوبة الرجم، ذلك لأن أدلة الجمهور تبدو ضعيفة، ولا تقوى أمام أدلة الفريق الرافض من جهة، ولوجود أدلة وقرائن كثيرة تعارض أدلة الجمهور، وتوحي بعدم وجود عقوبة الرجم في الإسلام. وسنعرضها فيما يلي:

أولا: مناقشة أدلة الجمهور:

من الأدلة التي استند عليها الجمهور:

الدليل الأول: حديث عمر رضي الله عنه بخصوص آية الرّجم، التي يُزعم أنها كانت موجودة في القرآن الكريم، ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها:

مناقشة الدليل: هذا الدليل مطعون فيه من عدة وجوه:

- تعدد الروايات واختلافها في نص الآية: اختلفت الروايات في نص الآية المزعومة، ومنها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) (٤٦). و(الشيخ والشيخة فارجموهما البتة) (٤٧). و(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة) (٤٨). و(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) (٤٩). و(الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) (٥٠). و(إذا زنيا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) (٥١). و(إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)(٥٢).

٢. إن آيات القرآن الكريم لم تثبت عن طريق الرواية، بل بالتواتر، وحفظها الله بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٥٣)، والقول بأن هناك آيات نزلت ثم نسخت تلاوتها، هو اتهام للحفظ الإلهي للقرآن.

٣. الإمام الطبري في تفسيره لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ...﴾ (٥٤)، نسب آية: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة..) إلى التوراة، وليس إلى القرآن(٥٥).

٤. على فرض صحة الرواية فإنها ليست قاطعة في الإحصان، لأن الشيخ والشيخة لا يعني بالضرورة أن يكونا محصنين، فقد يكون الإنسان شيخاً في العمر، ولكنه غير محصن بالزواج.

الدليل الثاني: حديث عبادة بن الصامت الذي رواه (مسلم): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرّجم)(٥٦).

مناقشة الدليل: هذا الدليل يرد عليه من وجوه:

١. القاعدة التي نجدها في القرآن الكريم في الحدود هي أنه لا توجد عقوبتان في حدّ واحد، لجريمة واحدة: فحدّ السرقة، والقذف، وجلد الزاني، كلّها عقوبة واحدة. وحتى الحرابة، خيّر الله تعالى وليّ الأمر بين إحدى العقوبات: ﴿...أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ...﴾ (٥٧). ووفقا لهذه القاعدة لا يمكن القول بأن الجلد والتغريب كلاهما حدّ للبكر، وكذلك الجلد والرّجم كلاهما حدّ للزاني المحصن.

٢. مذهب الحنفية، كما أسلفنا، هو اعتبار التغريب تعزيراً لا حدّاً. ويمكن إسقاط ذلك على الشق الثاني من الحديث أيضاً، فيكون الرّجم تعزيراً لا حدّاً.

٣. لم يثبت في أي من الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم طبّق الجلد مع الرجم في حديث ماعز والغامدية.

الدليل الثالث: السنة العملية للرسول صلى الله عليه وسلم، كما أسلفنا فيما يخص حديث ماعز والغامدية واليهوديين والعسيف.

مناقشة الدليل: هذا الدليل يناقش من عدة وجوه:

١. تعدد الروايات واضطرابها وتناقضها أحيانا: ففي حديث ماعز هناك اختلاف في الروايات في: هل أن ماعز هو الذي جاء واعترف؟ أم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الذي لقي ماعزاً، وسأله: (أحقّ ما بلغني عنك؟)(٥٨)، أم أن ماعزاً جيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو أتي به، كما في رواية عند مسلم(٥٨). وكذلك هناك اختلاف في الروايات في عدد مرات ردّ النبي لماعز قبل رجمه: هل ردّه مرتين، أم ثلاث مرات(٥٩)، أم أربع مرات(٦٠)، أم ردّه مراراً(٦١)؟ كما اختلفت الروايات في مكان وكيفية الرجم، وفي المرأة المزني بها، وغير ذلك. كما تعددت الروايات واختلفت في حديث الغامدية(٦٢). فأيّ الروايات هي الأصح؟ وما هو الموقف من المرأة المزنيّ بها في حديث ماعز، والرجل الزاني في حديث الغامدية؟ هل أقيم عليهما الحد أم لا؟ وهل ظل الراوي في حديث الغامدية سنتين لرواية هذا الحديث(٦٣)؟

٢. فيما يخص حديث رجم اليهوديين، فإن الروايات تثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى بمقتضى ما ورد في (التوراة)، كما يفيد نص الحديث.

٣. أما حديث العسيف، فلا يرويه من التابعين عن الصحابيين (أبو هريرة، وزيد بن خالد الجهني) إلا عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود.. وهذا النوع من الحديث يسمى (الغريب)، أو يسمى (الفرد) (٦٤). وهذا النوع من الأحاديث الغريبة، أو التي يتفرد بروايتها راو واحد، مردود، كما قال أبو

داوود صاحب السنن، في رسالته إلى أهل مكة، حيث قال: ".. فإنه لا يحتج بحديث غريب، ولو كان من رواية مالك، ويحيى ابن معين، والثقات من أئمة العلم"(٦٥).

٤. هذه الروايات – حتى وإن صحت– يمكن أن تفسر على أنها كانت قبل نزول (سورة النور)، والآية التي حددت العقوبة بالجلد. حيث ورد في (صحيح البخاري) عن الشيباني قال: (سألت عبدالله بن أبي أوفى: هل رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم. قلت: قبل سورة النور أم بعد؟ قال: لا أدري) (٦٦). فبمجرد تفسير تلك الوقائع على أنها كانت قبل (سورة النور) تحلّ جميع الإشكاليات، ولا نضطر للجوء إلى دعوى النسخ، لا في القرآن، ولا نسخ السنة للقرآن، ولا حتى تخصيص السنة للقرآن.

ثانيا: الأدلة على نفي الرجم

١. تعرض القرآن الكريم لجريمة الزنى، وما يتعلق بها، وبيّن عقوباتها في أكثر من آية، ولم يذكر الرّجم من بين تلك العقوبات. ففي (سورة النساء) قال تعالى: ﴿وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنّ فِي الْبُيُوتِ حَتّى يَتَوَفَّاهُنّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنّ سَبِيلا﴾ (٦٧). وقال تعالى: ﴿وَاللّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ (٦٨). وقال في سورة النور: ﴿الزّانِيَةُ وَالزّانِي فَاجْلِدُوا كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (٦٩). كما ذكر القرآن تنصيف العقوبة، ومضاعفتها، في حالات، كما سيأتي ذكرها. فلا يمكن إلغاء كل هذه الأحكام بأحاديث آحاد، أو تخصيصها، ما دامت هناك طريقة للتوفيق بينها، ويكون التوفيق بتفسير العقوبة المذكورة في سورة النساء ﴿وَاللاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ...﴾ بالشذوذ الجنسي بين النساء (السحاق)، بدليل قوله تعالى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللّذَان يَأْتِيَانِهَا مِنْكُم..﴾ بالشذوذ بين الرجال (اللواط)، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاللّذَان يَأْتِيَانِهَا مِنْكُم﴾، كما فسّرها الفخر الرازي(٧٠). والجلد المذكور في (سورة النور) هو لجريمة الزنى بين الذكر والأنثى، دون تفريق بين المحصن وغيره، وبتفسير الوقائع النبوية بأنها كانت قبل (سورة النور). هكذا نوفق بين كل تلك النصوص دون إلغاء، أو نسخ، لأيّ منها.

٢. الرجم لا ينصّف: قال تعالى: ﴿وَمَن لّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنّ وَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنّ

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧١). وجه الدليل: أن الأمة إذا تزوجت وأحصنت بالزواج، وأتت بفاحشة الزنى، فعليها نصف ما على المحصنة الحرّة من العقوبة. والجلد هو الذي يقبل التنصيف، مائة جلدة ونصفها خمسون، أمّا الرّجم فهو حتى الموت، والموت لا ينصّف(٧٢).

٣. الرجم لا يتضاعف: قال تعالى في حق نساء النبي (صلى الله عليه وسلم): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (٧٣). أي إن عقوبة نساء النبي مضاعفة، والجلد هو الذي يتضاعف، أما الرّجم، الذي هو الموت، فلا يُضاعف.

٤. آيات اللعان تنفي عقوبة الرجم: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٤)، فقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ دليل على أنه ليس هناك رجم، لأنه لا يقال للرجم والموت عذاب، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٥). وقوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ (٧٦)، وقوله تعالى: ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ (٧٧). فالموت ليس هو العذاب، ولو كان الرّجم ليس حتى الموت، لكان هناك مجال لتفسير الرّجم بالعذاب، لأنه دون الموت(٧٨).

٥. إن حدّ القذف ذكر بعد حدّ الزنى في القرآن، ولم يفرّق فيه بين قاذف المحصن، وقاذف البكر، مع أن ما يترتب على قذف المحصن، وتشويه سمعته، أكثر تأثيراً وأقسى مما يترتب على قذف البكر.

٦. القتل العمد، بإجماع العلماء، أشنع وأعظم من الزنى، ولكن عقوبته أرحم من الرّجم(٧٩). ثم إن الرّجم يتناقض مع حديث: (إذا قتلتم، فأحسنوا القتلة)(٨٠).

٧. السورة التي تحدثت عن حكم الزناة اسمها (سورة النور)، وهذا يعني أن أحكامها واضحة وبيّنة. ويستهلها الله تعالى بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٨١)، فكيف لا يذكر الحدّ بوضوح في السورة التي اسمها نور، وفيها الفرائض والآيات البينات؟(٨٢).

هذا، وبعد هذه الجولة في مناقشة الأدلة التي استند عليها الجمهور، يميل الباحث إلى

ترجيح رأي المعارضين لعقوبة الرجم، وذلك لأن أدلتهم تبدو أكثر منطقية وتوافقاً مع القرآن الكريم، على عكس أدلة الجمهور، التي توقعنا في متاهات النسخ والتخصيص والتكلّف في إلغاء أحكام ثابتة في القرآن الكريم.

وبالرغم من أن رأي الجمهور هو الغالب والأكثر انتشاراً وشيوعاً، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الرأي الشائع والأكثر شهرة هو الأصوب والأصح دائماً، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن العلماء الأجلاء عبر العصور تناقلوا هذا الرأي وأدلته دون دراسة متأنية ومتعمقة، ودون تحقيق وتمحيص لتلك الأدلة.

الخاتمة والنتائج

تعرضنا في هذا البحث لموضوع عقوبة الرجم، وبحثنا عن ماهيتها، وتاريخها، ووضعها في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، ثم بحثنا في موقف الفكر الإسلامي المعاصر من قضية الرجم، والذي يتوزع على فريق مؤيد للعقوبة، ويثبت أنها حدّ من الحدود، وفريق يقول بأن الرجم تعزير لا حدّ، وفريق ثالث ينفي عقوبة الرجم بشكل مطلق.

وبعد عرض آراء الاتجاهات الثلاثة، وأدلتهم، والبحث في تلك الأدلة، توصل الباحث إلى النتائج والتوصيات التالية:

١. عقوبة الرجم لم تأخذ حقها من البحث في التاريخ الإسلامي من قبل الفقهاء، وإنما تناقلوا الآراء جيلاً بعد جيل، ولم تبحث أدلة الجمهور بحثاً علمياً دقيقاً.

٢. تبيّن بعد البحث الدقيق أن الأدلة التي استند عليها الجمهور في إثبات الرجم، وجعله من الحدود، ليست بتلك القوة التي يمكن أن ينبني عليها حكم بهذا الحجم والقوة والقسوة.

٣. تعرض القرآن لجريمة الزنى، وما يتعلق بها من الفواحش، في أكثر من آية، وبيّن عقوباتها، ولم يرد ذكر الرّجم في أي من تلك العقوبات.

٤. ما ورد في السنة النبوية الشريفة حول الرجم، هي إما أحاديث ضعيفة وواهية، أو متعددة الروايات ومختلفة فيما بينها في المتن، أو مطعونة في السند، وكلها أحاديث آحاد، وليست بأحاديث متواترة. وفي قضية تتعلق بالدماء، وعقوبة مثل الرجم، ينبغي الاستناد على القرآن الكريم، أو على الأقل السنة المتواترة.

٥. يرفع الباحث توصية إلى السلطات الرسمية في الدول الإسلامية، ووزارات الأوقاف، والمجامع الفقهية، بتنظيم مؤتمرات دورية تعنى بالقضايا المعاصرة التي تشغل الساحة الفكرية، والتي تثار حولها الإشكاليات والشبهات، بغرض دراستها

دراسة علمية دقيقة، وفق معطيات هذا الزمان، وبمناقشة الأدلة وتمحيصها، وليس فقط نقل الآراء والأدلة، وهكذا يتجدد الخطاب الديني، ويكون مؤثراً ويلبّي حاجات العصر.❐

الهوامش:

1) انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا تاريخ، ج١٢، ص (٢٢٦-٢٢٧). وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤، ص٣٣٣. وانظر كذلك: بن زكريا، أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩، ج٢، ص (٣٩٣-٣٩٤).

(٢) الكهف/ ٢٢.

(٣) الملك/ ٥.

(٤) سفر التثنية، الإصحاح ١٣ (٦-١٠) من موقع الأنبا تكلاهيمانوت لتحميل لكتاب المقدس على الإنترنت، على الرابطالتالي: http://st-takla.org/Bibles/Download-Arabic-Bible-Doc.html

(٥) سفر التثنية، الإصحاح ١٧ (٢-٥).

(٦) سفر العدد، الإصحاح ١٥ (٣٢-٣٦).

(٧) سفر التثنية، الإصحاح ٢١ (١٨-٢١).

(٨) سفر التثنية، الإصحاح ٢٢ (٢٠-٢٤).

(٩) سفر الخروج، الإصحاح ١٩ (٢٩-٣٣).

(١٠) إنجيل يوحنا، الإصحاح ٨ (١-١١). من موقع الأنبا تكلاهيمانوت لتحميل الكتاب المقدس على الإنترنت، على الرابط التالي: http://st-takla.org/Bibles/Download-Arabic-Bible-Doc.html.

(١١) آل عمران/ ٣٦.

(١٢) النحل/ ٩٨.

(١٣) الشعراء/ ١١٦.

(١٤) هود/ ٩١.

(١٥) الدخان/ ٢٠.

(١٦) الملك/ ٥.

(١٧) لمزيد من التفاصيل انظر: النبهان، غسان، رجم الزاني عقوبة يهودية وافتراء على الإسلام، لا مكان، ط١، ٢٠١١، ص٤٥.

(١٨) رواه البخاري في كتاب الحدود باب (رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت) برقم (٦٨٣٠). انظر: البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٢، ص١٦٨٩ .

(١٩) رواه مسلم في كتاب الحدود باب (حد الزنى) برقم (١٦٩٠). انظر: النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص١٣١٦ .

(٢٠) رواه البخاري في كتاب الحدود باب (رجم المحصن) برقم (٦٨١٤). ونص الحديث: (عن جابر بن عبدالله الأنصاري أن رجلا من أسلم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدّثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله فرُجم، وكان قد أحصن). انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق، ص١٦٨٥.

(٢١) رواه مسلم في كتاب الحدود باب (من اعترف على نفسه بالزنى) برقم (١٦٩٥). ونص الحديث: (...ثم جاءتْهُ امرأةٌ من غامدٍ من الأزدِ. فقالت: يا رسولَ اللهِ! طهِّرْني. فقال (ويحك! ارجعي فاستغفري اللهَ، وتوبي إليهِ). فقالت: أراكَ تريدُ أن تَرُدَّني كما رددتَ ماعزَ بنَ مالكٍ. قال: (وما ذاكِ؟) قالت: إنها حُبْلى من الزنى. فقال (آنتِ؟) قالت: نعم. فقال لها (حتى تضعي ما في بطنِكِ). قال: فكفَلَها رجلٌ من الأنصارِ حتى وضعتْ. قال: فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: قد وضعتِ الغامديةُ. فقال (إذًا لا نَرْجُمُها، وندعُ لها ولدها صغيرًا ليس لهُ من يُرضِعُه). فقام رجلٌ من الأنصارِ فقال: إليَّ رضاعه. يا نبيَّ اللهِ! قال: فرجَمَها). انظر: صحيح مسلم، مصدر سابق، ص١٣٢٢ .

(٢٢) رواه البخاري في كتاب الشروط باب (الشروط التي لا تحل في الحدود) برقم (٢٧٢٤). ونص الحديث: (أن رجلًا مِن الأعرابِ أتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ اللهِ، أنشدُكَ اللهَ إلا قضيتَ لي بكتابِ اللهِ، فقال الخَصْمُ الآخرُ، وهو أفقهُ منه: نعم، فاقضِ بيننا بكتابِ اللهِ، وائذنْ لي. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: قلْ. قال: إن ابني كان عَسِيفًا على هذا، فزنى بامرأتِه، وإني أُخبِرْتُ أن على ابني الرّجم، فافتديتُ منه بمائةِ شاةٍ ووليدةٍ، فسألتُ أهلَ العلمِ، فأخبروني: أنما على ابني جَلْدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ، وأن على امرأةِ هذا الرّجم، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيدِه لأَقْضِيَنّ بينكما بكتابِ اللهِ، الوليدةُ والغَنَمُ ردٌّ، وعلى ابنِك جَلْدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ، اغدُ يا أُنَيْسُ إلى امرأةِ هذا، فإن اعترفَتْ فارْجُمْها. قال: فغدا عليها فاعترَفَتْ، فأمر بها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فرُجِمَتْ). انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق، ص ٦٦٧.

(٢٣) رواه البخاري في كتاب الحدود باب (الرجم في البلاط) برقم (٦٨١٩). ونص الحديث: (أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ أَحْدَثَا جَمِيعًا، فقال لهُم: (ما تَجِدونَ في كِتابِكُم). قالوا: إنّ أحْبارَنا أحْدَثوا تَحْميمَ الوَجهِ والتّجْبِيهَ، قال عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ: ادْعُهُم يا رسولَ اللهِ بالتّوْراةِ، فأُتيَ بها، فوَضَعَ أحَدُهُم يدَه على آيَةِ الرّجمِ، وجعلَ يقرَأُ ما قبلَها وما بَعدَها، فقال له ابنُ سَلامٍ: ارفَعْ يَدَك، فإذا آيَةُ الرّجمِ تَحتَ يدِهِ، فأمَرَ بهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ فرُجِما. قال ابنُ عُمَرَ: فرُجِما عندَ البَلاطِ، فرأيْتُ اليَهوديّ أجْنَأ عليها). انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق، ص١٦٨٦ .

(٢٤) النور/ ٢ .

(٢٥) انظر: بن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ج١٨، ص (١٤٩-١٥٠).

(٢٦) انظر: سابق، السيد، فقه السنّة، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٠، ج٢، ص٢٧٣.

(٢٧) انظر: الزحيلي، أ.د.وهبة، قضايا الفقه والفكر المعاصر، دار الفكر، دمشق، ط١ (إعادة)، ٢٠٠٧، ج١، ص٣٦٣.

(٢٨) النساء/ ١٥ .

(٢٩) رواه مسلم، وقد سبق تخريجه.

(٣٠) انظر: الزرقا، د.مصطفى، فتاوى الزرقا، جمع وترتيب: مجد أحمد مكي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٩، ص٣٩٤.

(٣١) رواه مسلم، وقد سبق تخريجه.

(٣٢) القرضاوي، د.يوسف، يوسف القرضاوي ابن القرية والكتّاب ملامح سيرة ومسيرة، مذكرات منشورة على موقع الدكتور يوسف القرضاوي، على الرابط التالي: http://www.qaradawi.net/new/seera/225-2014-01-26-18-27-52/6775-92-.

(٣٣) انظر: الزرقا، مرجع سابق، ص ٣٩٤. وانظر أيضا: إمامة، د،عدنان محمد، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ، ص٥٠٢.

(٣٤) لتفصيل ذلك انظر: أبو زهرة، محمد، العقوبة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص (٩٠-٩٤). وانظر كذلك: أبو زهرة، محمد، فتاوى الشيخ محمد أبو زهرة، جمع وتحقيق: د.محمد عثمان شبير، دار القلم، دمشق، لا تاريخ، ص٦٧١.

(٣٥) النساء/ ٢٥ .

(٣٦) النور/ ٢ .

(٣٧) رواه البخاري في كتاب الحدود باب (رجم المحصن) برقم (٦٨١٣). انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق، ص١٦٨٥ .

(٣٨) انظر: القرضاوي، مرجع سابق.

(٣٩) انظر: الزلمي، د.مصطفى إبراهيم، لا رجم في القرآن، مطبعة روزهةلات، أربيل، ط١، ٢٠١١، ص٥.

(٤٠) ذكر الزلمي ثماني عشرة ملاحظة على رواية الشيخ والشيخة، ولكن الباحث لخّصها، وذكر أبرزها، ببعض التصرف خشية الإطالة. وللتفصيل انظر: الزلمي، مرجع سابق، ص (١٢-١٦).

(٤١) انظر: الزلمي، مرجع سابق، ص (٢٣-٢٦) بتصرف.

(٤٢) انظر: الزلمي، مرجع سابق، ص (٤٠-٤٤) بتصرف.

(٤٣) للاطلاع على تفاصيل أدلته انظر: محمود، د.مصطفى، لا رجم للزانية، مقالة منشورة في الإنترنت على الرابط: http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=70214

(٤٤) للتفصيل انظر: الشنقيطي، محمد المختار، لا رجم في شريعة الرحمة الإسلامية.. عشرون ملاحظة، مقالة منشورة في الإنترنت على الرابط: http://www.twitlonger.com/show/l9tua7

(٤٥) للاطلاع على تفاصيل رأي د.عدنان إبراهيم، تابع خطبتي الجمعة التي ألقاهما الشيخ بتاريخ ٢٠١٣/٥/١٧ والموجودة على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=hxUXmuct28k والخطبة الثانية بتاريخ ٢٠١٣/٥/٢٤ والموجودة على الرابط التالي: https://www.youtube.com/watch?v=tsVelj1azMo

(٤٦) رواه ابن ماجة في كتاب (الحدود) باب (الرجم) برقم (٢٥٥٣). انظر: ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ص٤٣٥ .

(٤٧) رواه النسائي في كتاب (الرجم) باب (نسخ الجلد عن الثيّب) برقم (٧٣١٠). انظر:

النسائي، أبو عبدالله أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، دار التأصيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٢، ج٧، ص (٤٦٧-٤٦٨).

(٤٨) رواه النسائي في كتاب (الرجم) باب (نسخ الجلد عن الثيّب) برقم (٧٣٠٨). انظر: النسائي، مصدر سابق، ج٧، ص٤٦٧.

(٤٩) ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري. انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار البيان للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٧، ج١٢، ص١٤٨ .

(٥٠) رواه النسائي في كتاب (الرجم) باب (نسخ الجلد عن الثيّب) برقم (٧٣١١). انظر: النسائي، مصدر سابق، ج٧، ص٤٦٨.

(٥١) ذكره عبدالرزاق في مصنفه في كتاب (الطلاق) باب (الرجم والإحصان) برقم (٧٣١١). انظر: الصنعاني، أبوبكر عبدالرزاق بن همام، المصنّف، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣، ج٧، ص٣٣٠.

(٥٢) ذكره ابن حزم في المحلى. انظر: ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد، المحلّى، الطباعة المنيرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٧هـ، ج١١، ص٢٣٥ .

(٥٣) الحجر/ ٩ .

(٥٤) المائدة/ ٤٢.

(٥٥) انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، لا تاريخ ، ج١٠، ص٣٢٨.

(٥٦) رواه مسلم في كتاب الحدود باب (حد الزنى) برقم (١٦٩٠). انظر: صحيح مسلم، مصدر سابق، ص١٣١٦ .

(٥٧) المائدة/ ٣٣ .

(٥٨) رواه مسلم في كتاب الحدود باب (من اعترف على نفسه بالزنى) برقم (١٦٩٣). انظر: صحيح مسلم، مصدر سابق، ص١٣٢٠ .

(٥٩) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود باب (من اعترف على نفسه بالزنى) الحديث رقم (١٦٩٢)، ص١٣١٩ .

(٦٠) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود باب (من اعترف على نفسه بالزنى) الحديث رقم ١٨ (١٦٩٢)، ص١٣١٩ .

(٦١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الحدود باب (رجم المحصن) الحديث رقم (٦٨١٤). ص١٦٨٥ .

(٦٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود باب (من اعترف على نفسه بالزنى) الحديث رقم (١٦٩٤)، ص١٣١٩ .

(٦٣) انظر اختلاف الروايات في: صحيح مسلم، كتاب الحدود باب (من اعترف على نفسه بالزنى) الحديث رقم (٢٢- ١٦٩٥) و (٢٣- ١٦٩٥)، و (٢٤- ١٦٩٦).

(٦٤) الحديث الغريب أو الفرد هو ما ينفرد بروايته راو واحد في طبقة واحدة أو أكثر. انظر: القطان، مناع، مباحث في علوم الحديث، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢، ص١٠١.

(٦٥) انظر: السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث، رسالة أبي داود إلى أهل مكة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ، ص٢٩.

(٦٦) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب (رجم المحصن) برقم (٦٨١٣). انظر: صحيح البخاري، مصدر سابق، ص١٦٨٥.

(٦٧) النساء/ ١٥ .

(٦٨) النساء/ ١٦ .

(٦٩) النور/ ٢ .

(٧٠) انظر: الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨١، ج٩، ص٢٣٩ وما بعدها. وأيد هذا التفسير من المعاصرين: السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار، نقلا عن الإمام محمد عبده. انظر: رضا، السيد محمد رشيد، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ط٣، ١٣٦٧هـ، ج٤، ص (٤٣٨-٤٤٠).

(٧١) النساء/ ٢٥.

(٧٢) انظر: محمود، د.مصطفى، مرجع سابق.

(٧٣) الأحزاب/ ٣٠ .

(٧٤) النور/ (٦-٩).

(٧٥) يس/ ١٨ .

(٧٦) النمل/ ٢١ .

(٧٧) فاطر/ ٣٦ .

(٧٨) انظر: إبراهيم، د.عدنان، مرجع سابق.

(٧٩) انظر: المرجع نفسه.

(٨٠) رواه النسائي في كتاب (الضحايا) باب (الأمر بإحداد الشفرة) برقم (٤٤٠٥). انظر: النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي، بيت الأفكار الدولية، عمان، لا تاريخ، ص٤٦١.

(٨١) النور/١.

(٨٢) انظر: المرجع نفسه.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

٢. الكتاب المقدس العهد القديم: (سفر التثنية - سفر العدد - سفر الخروج)، من موقع الأنبا تكلاهيمانوت لتحميل لكتاب المقدس: http://st-takla.org/Bibles/Download-Arabic-Bible-Doc.html

٣. إنجيل يوحنا، من موقع الأنبا تكلاهيمانوت لتحميل الكتاب المقدس: http://st-takla.org/Bibles/Download-Arabic-Bible-Doc.html.

٤. ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد، المحلّى، الطباعة المنيرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٧هـ.

٥. ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

٦. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لا تاريخ.

٧. أبو زهرة، محمد، العقوبة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨.

٨. أبو زهرة، محمد، فتاوى الشيخ محمد أبو زهرة، جمع وتحقيق: د.محمد عثمان شبير، دار القلم، دمشق، لا تاريخ.

٩. إمامة، د.عدنان محمد، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ.

١٠. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٢.

١١. بن زكريا، أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.

١٢. بـن عاشـور، محمـد الطـاهر، تفسـير التحرير والتنوير، الدار التونسـية للنشـر، تـونس، ١٩٨٤.

١٣. الرازي، فخر الـدين بـن ضـياء الـدين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨١.

١٤. رضا، السيد محمد رشيد، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ط٣، ١٣٦٧هـ.

١٥. الزحيلي، أ.د.وهبة، قضايا الفقه والفكر المعاصـر، دار الفكـر، دمشـق، ط١ (إعـادة)، ٢٠٠٧.

١٦. الزرقا، د.مصطفى، فتاوى الزرقـا، جمع وترتيب: مجد أحمد مكي، دار القلم، دمشـق، ط١، ١٩٩٩.

١٧. الزلمي، د.مصطفى إبـراهيم، لا رجـم في القرآن، مطبعة روذهةلات، أربيل، ط١، ٢٠١١.

١٨. سـابق، السـيد، فقـه السـنّة، المكتبـة العصرية، بيروت، ٢٠١٠.

١٩. السجسـتاني، أبـو داوود سـليمان بـن الأشعث، رسالة أبي داوود إلى أهل مكـة، المكتـب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢٠. الصنعاني، أبوبكر عبدالرزاق بن همـام، المصنّف، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣.

٢١. الطـبري، أبـو جعفـر محمـد بـن جريـر، تفسـير الطـبري، مكتبـة ابـن تيميـة، القـاهرة، لا تاريخ.

٢٢. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح البـاري بشـرح صـحيح البخـاري، دار البيـان للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.

٢٣. القطـان، منـاع، مباحـث في علـوم الحديث، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢.

٢٤. المعجـم الوسـيط، مجمـع اللغـة العربيـة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤.

٢٥. النبهـان، غسـان، رجـم الزانـي عقوبـة يهوديـة وافـتراء علـى الإسـلام، لا مكـان، ط١، ٢٠١١.

٢٦. النسـائي، أبـو عبـدالرحمن أحمـد بـن شـعيب، سـنن النسـائي، بيـت الأفكـار الدوليـة، عمان، لا تاريخ.

٢٧. النسائي، أبو عبدالله أحمـد بـن شـعيب، السـنن الكـبرى، دار التأصـيل، القـاهرة، ط١، ٢٠١٢.

٢٨. النيسـابوري، أبـو الحسـين مسـلم بـن الحجاج، صـحيح مسـلم، دار الحـديث، القـاهرة، ط١، ١٩٩١.

مقالات ومواضيع من الإنترنت:

٢٩. إبراهيم، د.عدنان، لا رجـم في الإسـلام، خطبة جمعة ألقاها في ٢٠١٣/٥/١٧ وموجودة علـى الـرابط التـالي: https://www.youtube.com/watch?v=hxUXmuct28k

٣٠. الشـنقيطي، محمـد المختـار، لا رجـم في شريعة الرحمة الإسلامية.. عشـرون ملاحظـة، مقالـة منشـورة في الإنترنـت علـى الـرابط: http://www.twitlonger.com/show/l9tua7

٣١. القرضاوي، د.يوسف، يوسف القرضاوي ابن القرية والكتّاب ملامح سيرة ومسيرة، مـذكرات منشورة على موقع الدكتور يوسف القرضاوي علـى الـرابط التـالي: http://www.qaradawi.net/new/seera/225-–2014-01-26-18-27-52/6775-92

٣٢. محمود، د.مصطفى، لا رجم للزانية، مقالة منشـورة في الإنترنـت علـى الـرابط: http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=70214

الدكتور (عماد الدين خليل) والاستشراق في التاريخ الإسلامي

د .محمد علي صالح الويس
جامعة الموصل /جمهورية العراق

المقدمة

يقدم هذا البحث رؤية لموقف الدكتور (عماد الدين خليل) عن الاستشراق. والدكتور (عماد) ليس بحاجة إلى تعريف، بل هو علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وله العديد من المؤلفات التي تناولت المعطيات الاستشراقية نقداً وتفنيداً، لمظان السلب في هذا الموروث، في خمسة كتب، وثمانية أخرى، ترصد وتحلل الشهادات والاستنتاجات والمعطيات الإيجابية في الموروث الاستشراقي.. لذلك كان اختيار هذا الموضوع لكونه أخذ جهداً كبيراً ونصيباً واسعاً من جهد مفكرنا الكبير.

وجاء الجزء الأخير من البحث لبيان موقف الدكتور (عماد الدين خليل)، المنطلق من موقف المسلم الذي يضع العدل والإنصاف في تعامله مع معطيات الآخر، وهو الجهد الذي نال اهتمام الدكتور (عماد) في ثمانية كتب، كما تقدم.

يبدأ الدكتور (عماد الدين خليل) القول حول الاستشراق بالتأكيد على خبرته الطويلة في التعامل مع الاستشراق، التي قاربت

خمسين عاماً، وعبر مراحل زمنية متقاربة حيناً، ومتباعدة أحياناً، تعامل مع الاستشراق قراءة وتدريساً وتأليفاً[١].

ألّف الدكتور (عماد الدين خليل) العديد من الكتب التي تناولت الاستشراق والفكر الغربي، جاء البعض منها كاملاً لنقد الاستشراق والفكر الغربي، وخصص بعضها الآخر مقاطع وفصولاً عن هذا الفكر، بلغ عددها ثلاثة عشر كتاباً. واتّخذت هذهِ المؤلفات اتجاهين في الكتابة: مضى أحدهما لكي ينقد ويفند المعطيات الاستشراقية: (دراسة في السيرة، ابن خلدون إسلامياً، حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دراسة مقارنة في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري وات، مدخل إلى التاريخ الإسلامي)، ومضى الآخر يتبنى ويحلل الجوانب الموضوعية المضيئة من تلك المعطيات: (قالوا عن الإسلام، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، حول تشكيل العقل المسلم، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام ومستقبله، المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، القرآن الكريم من منظور غربي، الفن والعقيدة) [٢].

أولاً : موقف النقد والتفنيد لمعطيات الاستشراق

واختلف موقف الدكتور (عماد الدين خليل) من الاستشراق: ففي البداية كان يميل إلى اعتبار الموروث الاستشراقي بشكل عام سيئاً، بما كان ينطوي عليه من تحامل على الإسلام مكشوف حيناً، ومغطى بخبث حيناً آخر. ويرى الدكتور (عماد) أن عدداً غير قليل من الأوربيين أنفسهم أدانوا رفاقهم، بسبب من إلحاحهم في التحامل على الإسلام: قرآناً ونبياً، وعقيدة وشريعة، وحضارة وتاريخاً[٣].

ويُرجع الأسباب التي أدّت به إلى هذا الموقف من الاستشراق، إلى عوامل عديدة، ترجع إلى التكوين الثقافي للفكر الغربي، الذي يصفه بأقلام المنصفين من المفكرين الغربيين، الذين بيّنوا عوامل الانحراف المتجذر في الثقافة الغربية، حول الإسلام: ديناً ورسولاً، وحضارةً وتاريخاً.

ويستشهد الدكتور (عماد) حول ذلك عن المفكر النمساوي (ليوبولد فايس) (= محمد أسد) حين يقول: "لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون، منذ عهد اليونان والرومان، إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الثقافية الغربية وحدها. أما المدنيات غير الغربية، فلا يعرض لها إلا من حيث إن لوجودها، أو

الحركات الخاصة فيها، تأثيراً مباشراً في مصائر الإنسان الغربي، وهكذا فإن تاريخ العالم، وثقافاته العديدة، لا يعدو أن يكون في أعين الغربيين تاريخاً موسعاً للغرب. وطبيعي إن النظر من هذهِ الزاوية الضيقة لا بد أن يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم"[٤].

وينقل الدكتور (عماد) عن (محمد أسد)،مرة أخرى، واصفاً قوله بالدقيق، حول الاحتقار التقليدي الذي أخذ يتسلل في شكل غير معقول إلى بحوثهم العلمية، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوربا والعالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية غير معقود فوقه بجسر، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً من التفكير الأوربي.. والواقع أن المستشرقين الأول، في الأعصر الحديثة، كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام، وتاريخه، مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربيين من الوثنيين، غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذهِ عذر في توجيهها من جهة دينية، أو بواعث أيديولوجية. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فهو غريزة موروثة، وخاصّة طبيعية، تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول في عقول الأوربيين[٥].

وعن مناهج الاستشراق، يقول الدكتور إن المنهج الاستشراقي يختلف حسب اختلاف المنظور، فيقول: "فإذا نظرنا إلى المادة الاستشراقية بوصفها تعاملاً رؤيوياً غربياً من الشرق، قلنا بأن هناك منهجاً استشراقياً واحداً، فها نحن هنا بإزاء ثنائيات أساسية تتضمن البعد الحضاري الديني، الجغرافي القاري، حيث يصير النشاط الاستشراقي محاولة للاكتشاف في بيئة أخرى، تنطوي على تغاير عميق مع بيئة المكتشف أو الباحث. ولكننا إذا نظرنا إلى المادة الاستشراقية من زاوية رؤيتها المتميزة – داخل العقل الغربي نفسه – أمكننا القول إن هناك مناهج شتى" وعلى سبيل المثال، إن المنهج الذي يعتمده رجل لاهوت مثل (لامانس)، يختلف عن المنهج الذي يعتمده (بلاييف)، المفسّر المادي للتاريخ، أو الذي يعتمده مستشرق ذو توجه إسرائيلي، أو الذي يعتمده (مونتغمري وات)، الذي يحرص على الأكاديمية. "وهاهنا نجد تنوعاً في سياق المنهجية، أو بعبارة أدق نجد قاسماً مشتركاً أعظم يتحرك بموجبه مستشرقو المذاهب المذكورة كافة، ونجد تغايراً يجعل كل مذهب يصوغ منهجه الخاص المتميز الذي ينسجم وقناعاته الفكرية، ولكنه يلتقي في نهاية التحليل بالخطوط العريضة

للمنظور الاستشراقي الشامل، بوصفه تعاملاً غربياً مع الشرق"[٦].

ومن أهم القواعد المنهجية التي يركز عليها الدكتور (عماد الدين) حول التعامل مع المعطيات الاستشراقية التي تناولت السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.. فعن السيرة النبوية يقول: "وثمة فارق مثلاً بين التعامل الاستشراقي مع السيرة النبوية المتجذرة في الغيب، والممثلة بجوهر الخبرة الإسلامية كمنظور عقدي للعالم. وبين تعامله مع هذا النظام الإداري أو ذلك، مثل الوزارة أو الديوان أو الجيش، في عصر أموي أو عباسي متأخر.. وفارق كبير أيضاً بينهم، وهم يتحدثون عن الفتوحات الإسلامية زمن الراشدين ﷺ، والتي تجيء امتداداً لسياسات الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبينهم وهم يتحدثون عن صراع المغول مع المماليك في الجزيرة والشام، على سبيل المثال"[٧].

ويمضي الدكتور (عماد الدين) مبيّناً أهم نقاط الضعف في المناهج الاستشراقية، في تعاملها مع التاريخ والحضارة الإسلامية، قائلاً: "وكذا الحال إزاء التعامل مع كل خبرة تاريخية إسلامية ترتبط بعمقها العقدي، أو تنفصل عنه. ففي الحالة الأولى، ينعكس انحياز المنهج الاستشراقي بوضوح... وفي الحالة الثانية... يجد المستشرق نفسه يسعى إلى المنهج، وتوظيف تقنياته المتفق عليها عالمياً، والتي يعمل بها المستشرقون أنفسهم... ومهما يكن من أمر، فإن مناهج البحث الاستشراقي، لا يمكنها في الغالب أن تقدم تفسيراً موضوعياً للمراحل والخبرات ذات الجذور العقيدة من تاريخنا الإسلامي، ذلك أنها لا تقوم على أساس متوازن ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشتركة في صنع الواقعة التاريخية، بل إنها تسعى إلى ترجيح الدافع المادي، وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ، وربما طمسها وإنكارها أساساً"[٨].

ويضيف الدكتور (عماد الدين) أسباباً أخرى حول قصور المناهج الاستشراقية في تعاملها مع التاريخ والحضارة الإسلامية، كون هذهِ المناهج تتحكم فيها عصبيات شتى، ورواسب نفسية، وضغوط ثقافية تاريخية، وأطماع سياسية واقتصادية، وتحزّبات دينية ومذهبية وأيديولوجية وعرقية، لكونها تبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار لعالم الإسلام ذروتها[٩].

أ- السيرة النبوية:

لقيت معطيات الاستشراق حول السيرة النبوية اهتماماً كبيراً من الدكتور (عماد الدين خليل). تناولها بالنقد والتفنيد في كتاب (دراسة في السيرة)، وفي كتاب (المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج

المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات).

يضع الدكتور (عماد) قاعدة ثابتة في التعامل مع المعطى الغربي حول السيرة النبوية، فيقول: "إن الدين والروح، لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها.. وليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمته فيها إلا بمقدار.. وتبقى المساحات الأكثر عمقاً وامتداداً، بعيدة عن حدود عمل الحواس وتخيلات العقل والمنطق.. إننا ونحن نناقش هذا المستشرق أو ذلك في حقل السيرة النبوية، يجب أن ننتبه إلى هاتين النقطتين مهما كان المستشرق ملتزماً بقواعد البحث التاريخي وأصوله. إنه من خلال رؤيته الخارجية وتغربه، يمارس نوعاً من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها، فيصدم الحس الديني، ويرتطم بالبداهات الثابتة، وهو من خلال منظوره العقلي والوضعي يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة، ويعاملها كما لو كانت حقلاً مادياً للتجارب والاستنتاجات وإثبات القدرة على الجدل، وهو في كلا الحالتين لا يمكن أن يخدم الموقف الإسلامي الجاد من سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أو يحتل موقفاً جاداً منها، بوجه من الوجوه"[١٠].

ويحدد الدكتور (عماد الدين خليل) العديد من الأخطاء والثغرات المنهجية في البحوث الاستشراقية. ويركز على ثلاث ثغرات أساسية:

أولاً: المبالغة في الشك، والافتراض، والنقل الكيفي، واعتماد الضعيف الشاذ.

ثانياً: إسقاط الرؤية الوضعية، العلمانية، والتأثيرات البيئية المعاصرة، على الواقع التاريخي.

ثالثاً: ردّ معطيات السيرة إلى أصول نصرانية أو يهودية[١١].

ويصف الدكتور (عماد) خلاصة تجربته مع المستشرق (وات)، الذي يعد من أكثر المستشرقين اعتدالاً، وقد انزلق في العديد من استنتاجاته عن جادة الصواب، ووصل في استنتاجات أخرى إلى طرق مسدودة، وهو يتعامل مع سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). ورغم أن (وات) يقول في مقدمة كتابه (محمد في مكة): "فيما يتعلق بالمسائل الفقهية التي أثيرت بين المسيحية والإسلام، فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها، وهكذا بصدد معرفة ما إذا كان القرآن كلام الله، أو ليس كلامه، امتنعت عن استعمال تعبير مثل: (قال تعالى)، أو (قال محمد)، في كل مرة استشهد فيها بالقرآن، بل أقول بكل بساطة: (يقول القرآن)... وأقول لقرائي المسلمين شيئاً مماثلاً: فقد ألزمت نفسي... أن لا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية"[١٢].

ورغم ذلك، فإن الدكتور (عماد) يقول: "فقد خلصت، بعد دراسة الكتاب، إلى أن المحصلة النهائية التي يمكن أن نصل إليها من خلال التعامل مع دراسات المستشرقين، أياً كان موقعهم، إنه لا يمكن لهذهِ الدراسات على الإطلاق، وبالتأكيد العقلي غير الانفعالي على هذهِ العبارة الأخيرة، أن ترقى إلى مستوى السيرة، فتكون قديرة على التعامل معها، والتوغل في نسيجها، وإدراك بنيتها بعمق، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها. ذلك أن هناك أكثر من خلل في منهج العمل، ولن يتمخض هذا الخلل إلا عن حشود من نقاط سوء الفهم والأخطاء على مستوى الموضوع. والأخطاء التي تنتشر كالبثور على جسد السيرة، المترع صحة وتماسكاً وعافية، فتشوّهه"[١٣].

ويعترف الدكتور (عماد) أن هناك فرقاً بين مستشرق وآخر، ويقول: "ونحن إذا قارنا (وات) بـ (لامانس) مثلاً، أو حتى بـ(فلهاوزن)، وجدنا هوة واسعة تفصل بين الرجلين: يقترب أولهما ويقترب حتى ليبدوأشد إخلاصاً لمقولات السيرة من أبناء المسلمين أنفسهم، ويبعد ثانيهما ويبعد حتى ليبدو شتّامّاً لعّانّاً، وليس باحثاً جاداً يستحق الاحترام"[١٤].

ويصف الدكتور (عماد الدين) جهد (وات) بأنه أفضل كثيراً، من حيث الدرجة وليس النوع، عن غيره من المستشرقين، إلا إنه يضع يده على العديد من جوانب الخلل في منهج العمل في حقل السيرة: نزعة نقدية مبالغ فيها، تصل حد النفي الكيفي وإثارة الشك حتى في بعض المسلمات، تقابلها نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم والتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساساً، وإسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة، وإعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص[١٥].

ويضيف الدكتور (عماد الدين خليل) العديد من مغالطات ومعطيات الاستشراق المنهجية في كتاب (دراسة في السيرة)، ومنها أسلوب الاستشراق الانتقائي في إعداد الأفكار المسبقة حول الإسلام، والذي يقوم على تناول الوقائع التاريخية انتقائياً، للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محدد سلفاً[١٦].

ويقول الدكتور حول هذا المنهج الانتقائي: "ونحن نستطيع أن نحصل على عشرات، بل مئات، من هذا الانتقاء الكيفي أو التفسير الاختياري للنصوص التاريخية، في كثير من كتب المستشرقين، ونجاح أجيالهم الأولى، مثل (بروكلمان)، الذي لا يشير إلى دور اليهود في تأليب الأحزاب على المدينة، ولا إلى نقض (بني قريظة) عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أشد ساعات محنته"[١٧].

ولم يتوقف المنهج الانتقائي للمستشرقين على أحداث التاريخ، بل وصل إلى القرآن الكريم، حيث عمد العديد من المستشرقين، كـ(وات)، و(شبرنجر)، و(ولفنسون)، وغيرهم، إلى التعامل مع القرآن الكريم وكأنّه كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا مكّنهم من عملية انتقاء مغرضة، ذات طابع سلبي معاكس، وهي التشكيك ورفض كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن الكريم، إذا كان في الرواية تمجيد للنبي (صلى الله عليه وسلم)، أو إذا كان في نفيها تأكيد لإحدى وجهات النظر الاستشراقية، مثل أن اسم النبي(صلى الله عليه وسلم) ورد في أربع سور من القرآن الكريم، وهي: آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح، وكلها سور مدنية، ومن ثم فإن لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل الهجرة، وإنما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل واتصاله بالنصارى. وفي هذا المجال يرى (ولفنسون) أن مهاجمة يهود بني النضير، حسب قول مؤرخي العرب، الذين يذكرون سبباً آخر لإعلان الحرب... هو محاولاتهم اغتيال الرسول (صلى الله عليه وسلم). يقول (ولفنسون): والمستشرقين ينكرون صحة الرواية، ويستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها في (سورة الحشر)، التي نزلت بعد إجلاء بني النضير[١٨].

وهذهِ المسألة، هي قاعدة في المنهج الاستشراقي الغربي في دراسة السيرة، من خلال تبني فكرة مسبقة، ثم ينتقلون إلى وقائع التاريخ، لكي يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم. وهو في الأصل نقد الدكتور (جواد علي) للمستشرق الإيطالي (كيتاني): "إذ رأى فكرة وضع رأيه وكونه في السيرة قبل الشروع في تدوينها، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها، ولا سيما ما يلائم رأيه، ولم يبال بالخبر الضعيف، بل قواه وسندهُ، وعدّه حجة، وبنى حكمه عليه"[١٩].

ويرجع الدكتور (عماد الدين خليل) أسباب الاعوجاج والأخطاء التي وقع بها المستشرقون، وهي تعاملهم العلماني الوضعي الذي ساد وطغى على مناهجهم وهم يتعاملون مع تاريخنا، ومنها السيرة النبوية، وأن خطوات النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأعماله، كانت توحي بها الظروف الراهنة ومتطلباتها ولوازمها، ومن ذلك على سبيل المثال ما ذكره (فلهاوزن)، وعدد من رفاقه، حول قومية الحركة الإسلامية في عصرها المكي، وأنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية –في العصر المدني – إلا بعد أن أتاحت لها الظروف ذلك[٢٠].

ومما يميز الدكتور (عماد) في منهجه في نقد المعطى الاستشراقي، اعتماده على البعض من الباحثين الذين سبقوه وعينوا نقاط الضعف والتهافت في كتابات الغربيين حول السيرة النبوية، ويأتي في طليعتهم المؤرخ والباحث العراقي (جواد علي)، الذي "أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في إصدار الأحكام في تاريخ الإسلام، وتأثرهم بعواطفهم لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان، وحكمهم بموجبه، ولإصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه، مع قولهم بوجوب النقد... وآية ذلك أن معظم المستشرقين من النصارى هم طبقة رجال الدين، أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وأنهم تطرقوا إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام، وحاولوا جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني. وطائفة من المستشرقين من اليهود، يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي.. وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء"[٢١]. وينقل عن الدكتور (صالح أحمد العلي) حول الحركة الاستشراقية، ومواقفها الظنية والعاطفية من حياة الرسول، وكيف قد جانبت العلم كثيراً، ثم بدأت تعتدل شيئاً فشيئاً: "ولاشك أن التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى، نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني، الذي كان مسيطراً ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية"[٢٢].

كما يعتمد الدكتور (عماد الدين) على المنصفين من المستشرقين في نقد المعطى الاستشراقي حول السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، من أمثال (آتين دينيه) و(درمنغم)، الذين اتصفوا بالجدية والموضوعية في البحث العلمي.. فينقل عن (آتين دينيه) أهم الأخطاء التي مارسها مفكرو الغرب في دراستهم للسيرة النبوية، وخاصة الدوافع التي تكمن وراء مواقفهم المحتشدة المتراكمة في اللاشعور: "إن من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزاعاتهم المختلفة، وإنهم لذلك بلغ تحريفهم لسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) والصحابة ﷺ مبلغاً يغشى على صورتها الحقيقية، من شدة التحريف فيها"[٢٣].

وينقل عن (درمنغم): "ومن المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص... ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة... ومن دواعي الأسف أن كان الأب (لامنس)، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدهم تعصباً، وأنه شوه كتبه الرائعة الدقيقة، وأفسدها، بكرهه للإسلام ونبي الإسلام"[٢٤].

ويشدد الدكتور (عماد الدين خليل) على المسار الصحيح الذي يجب أن تنهجه الدراسات التي تتناول السيرة النبوية، قائلاً: "إن فهم السيرة لا يمكن أن يتم إلا وفق نظرة شمولية تدرس حركة الإسلام كخطوات في برنامج شامل مرسوم في علم الله ﷻ، ومحدد في قرآنه، وإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن سوى منفذ لهذا البرنامج، بأسلوب يعتمد على قدراته وأخلاقيته وذكائه وإمكانياته الفذة في التخطيط والتنفيذ... ومن ثم، فإن الظروف الراهنة ليست الحتمية المؤقتة التي تحدد مسار الإسلام، وخطى رسوله، إنما هناك الهدف الذي يفرض أحياناً (وقفة) ضد الأعراف، وتمرداً عليها، وانقلاباً شاملاً على مواضعاتها. وهذا يبدو واضحاً منذ أول لحظة في شعار لا إله إلا الله"[٢٥]. ويضيف قائلاً: "ولا نطالب من الغربيين هنا أن يؤمنوا أن القرآن منزل من السماء، وأن محمداً(صلى الله عليه وسلم) رسول الله، وإنما نطلب أن يكونوا أكثر تجرداً وموضوعيةً، فينظروا إلى سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كوحدة عضوية متكاملة، وإلى القرآن الكريم كبرنامج مترابط، تعلو معطياته على الظروف، زماناً ومكاناً، رغم ملائمتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية، ولكن الملائمة التي تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولي، ما كان للمستشرقين أن يغفلوا عن أبعادها"[٢٦].

ويصل الدكتور (عماد الدين خليل) إلى أن الأخطاء المنهجية للمستشرقين طرحت الكثير من المعطيات الخاطئة، وهذا أمر طبيعي.. ويورد العديد من الشواهد لما كتبوه عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو حصاد يحمل في ثناياه عناصر تناقضه، وأخطر ما به خروجه عن البحث المنهجي الدقيق[٢٧].. كأقوال (بروكلمان) في علاقة النبي (صلى الله عليه وسلم) مع اليهود: "وكان على محمد أن يعوض خسارة (أحد)، التي أصابت مجده العسكري، من طريق آخر، ففكر في القضاء على اليهود، فهاجم بني النضير لسببٍ واهٍ"[٢٨]. وفي سنة ٧هـ حاول النبي أن يعوض فشله الظاهري في (الحديبية)، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر"[٢٩].

ب- التاريخ الإسلامي:

ويعتبر كتاب (حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) من أولى الدعوات التي قدمها الدكتور (عماد الدين خليل) لمواجهة وإعادة النظر في المنهج والمعطى الاستشراقي. ويعزو إلى الغرب، ومناهجهم، سبباً يدعو إلى إعادة كتابة التاريخ، فيقول: "السبق الزمني الذي مارسه الغربيون في أعقاب الانقطاع، فأخذوا بذلك زمام المبادرة في التعامل مع تاريخنا

الإسلامي، كشفاً وإضاءةً وتحقيقاً ونقداً وتركيباً.. ولكن بمناهجهم وأساليبهم وطرائقهم التي ألحقت بمعطياتنا التاريخية كسوراً وشروخاً وتناقضات ليس من السهولة إزالة آثارها المدمرة"[٣٠].

ويعيد الدكتور عماد في كتابه (إعادة كتابة التاريخ) التركيز على الأخطاء المنهجية للغربيين، ويشدد على ضرورة عدم الوقوع فيها، ومنها: "ضرورة الاعتماد في بناء البحث التاريخي على الواقعة نفسها، دون الوقوع في مظنة اعتماد هياكل مرسومة مسبقاً، ووجهات نظر مصنوعة سلفاً... مما نجده واضحاً – على سبيل المثال- في الدراسات التي تنطلق من المفهوم المادي في تفسير التاريخ، الأمر الذي أوقعها في حشد من الأخطاء والتناقضات"[٣١].

ويدعو الدكتور (عماد الدين خليل) إلى اتخاذ موقف علمي تجاه معطيات المستشرقين على مستوى المنهج والموضوع، وعدم التسليم المطلق بها، أو تجاوزها كلية، لأن هذهِ المعطيات تتضمن الجيد والرديء، الأبيض والأسود.. والموقف الجاد هو الذي يعرف كيف يفيد مما تقدمه الحركة الاستشراقية، دون الوقوع في أسرها، على حساب الحقيقية التاريخية[٣٢].

ويركز الدكتور (عماد) على أهم أسباب فشل المناهج والمعطى الاستشراقي، ويعزوها إلى ثلاث نقاط أساسية:

أولاً: إن مناهج البحث الغربية (نصرانية ومادية) لا يمكنها بحال أن تقدم تفسيراً معقولاً شاملاً لتاريخنا. ذلك أنها مناهج لا تقوم على أساس (متوازن)، ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ.

ثانياً:إن المناهج الغربية تقدم أوربا على أنها مركز للعالم، تدور حول قطبه كل المساحات الأخرى في الأرض.

ثالثاً: تحكم المناهج الغربية عصبيات شتى،وتحزبات دينية ومذهبية وأيديولوجية، ومخلفات ثقافية، وأطماع سياسية واقتصادية[٣٣].

أما في كتابه (مدخل إلى التاريخ الإسلامي)، فنجد أن العديد مما يطرحه الدكتور (عماد) قد أورده في كتابيه (المستشرقون والإسلام)، و(حول إعادة كتابة التاريخ)، إلا إن التركيز الشديد من قبل الدكتور (عماد) ينصب على حتمية نقد معطيات الحركة الاستشراقية بأجنحتها كافة، وتحديد المساحات التي يمكن الإفادة منها، وتلك التي يجب تجنبها، مع تبيان أبعادها اللاموضوعية[٣٤].

ويدعو إلى عدم التسرع في إصدار الأحكام، ويقول: "لقد قيل وكتب الكثير عن الاستشراق منهجاً وفكراً، وثمة في هذا الكثير سياقان: السياق الأول يتمثل في الرفض المقفل لمعطيات الحركة الاستشراقية كافة، والسياق الثاني يتمثل في التقبل المستسلم لهذهِ المعطيات. والمنهج العدل يمضي لكي يتعامل مع المادة الاستشراقية دون أن يتقبلها بالكلية، أو يلغيها من الحساب.. فعن طريق التبصر الواعي بهذهِ المادة، وفي ضوء التمحيص العلمي المتأني الدقيق، يمكن الأخذ والرفض، ذلك أن معطيات المستشرقين ليست شراً كلها، كما أنها ليست خيراً كلها. وقد علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الحكمة ضالة المؤمن، وأنه أحق بها أنى وجدها... فمن يجرؤ على القول بأن هذهِ المعطياتلا تتضمن قدراً من الحكمة والصواب؟"[٣٥].

ويرى الدكتور (عماد الدين) أن من أكثر الأخطاء التي مارسها الكثير من الباحثين في التاريخ الإسلامي، عبر القرنين الأخيرين، وبخاصة في دوائر الفكر الاستشراقي، والغربي عموماً، المنهج المعكوس في التعامل مع هذا التاريخ، منهجاً ينطوي على محاولة متعمدة، أو غير متعمدة، لفك الارتباط بين الإسلام والتاريخ. بل إن بعض المحاولات، التي تبلغ أقصى حدتها في الاستشراق اللاهوتي،ثم الماركسي، أرادت لمفردات التاريخ الإسلامي أن تبحر باتجاه مضاد للمطالب الإسلامية، وأن تتخذ موقفاً نقيضاً لمعطيات هذا الدين وثوابته[٣٦].

وتعد تجربة الدكتور (عماد الدين خليل) في كتابه (ابن خلدون إسلامياً)، نقداً لمعطيات الفكر الغربي الاستشراقي الذي يريد سلب ابن خلدون من بيئته الإسلامية، حين يزعم البعض منهم "أن ابن خلدون لم يكن للدين الإسلامي أي دور في تكوينه وعطائه، وإن الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية، بقدر ما أثرت الأرسطوطاليسية الأفلاطونية. ويشير باحث آخر أن ابن خلدون إذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن. ويقول آخر:إن ابن خلدون قد تحرّر من أصفاد التقاليد الإسلامية في درس شؤون الدولة والإدارة وغيرهما، وأنه حرّر ذهنه ـ كذلك ـ من القيود الفكرية، التي ارتبطت في عصره بالعقائد العربية الصحيحة "[٣٧].

أثارت هذهِ المقولات الدكتور (عماد الدين خليل)، فقدم عملاً نقدياً تحليلياً لمقدمة ابن خلدون، أثبت فيه أن الرجل لم يكن كما يزعم المعطى الغربي الذي يريد أن يبرز ابن خلدون كما لو لم تكن لمعطياته أية علاقة

بالأرضية الدينية: منهجاً وموضوعاً.. بل وبسبب تشنجها المذهبي، وجزئية رؤيتها ونسبيتها، تسعى لإخراج ابن خلدون من الدائرة الطبيعية التي عاش فيها، وتحرك خلالها، وتلقى علمه من مواردها، وبنى قدراته ونزعاته في بيئتها، وتقذف به بعيداً إلى أجواء غريبة ما كان يعرف عنها شيئاً، وما خطرت له على بال.. وإن بعضاً من هذهِ الأبحاث في أقصى مدتها، جعلته مفسراً مادياً للتاريخ، لا يحسب للمؤثرات اللامادية، غيبية وروحية، أيما حساب[٣٨].

ويرد الدكتور (عماد) على المقولات الغربية رداً يوضح مكانة (ابن خلدون) في كونه ابن الإسلام، وليد البيئة الإسلامية الشرعي، وتبقى مقدمته، على مستوى الفكر ومستوى الحياة، ثمرة ناضجة من ثمارها المترعة.. ومن وراء هذا وذاك يبقى كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، المؤشران الأبديان اللذان يصوغان البيئات، ويبعثان الرجال.. كما تبقى مسألة الانفصام الموهوم تلك، كإسقاط الأجنة من أرحامها التي تؤويها وتغذيها وتكون شخصيتها، عملية أخلاقية وغير علمية في الوقت نفسه[٣٩].

ويمدح الدكتور (عماد الدين خليل) ابن خلدون، ومنهجه،ويذهب إلى أن كثيراً من طروحاته عن الدين إن هي إلا جزء أساسي من رؤيته الشاملة للحركة التاريخية، وأنه يعود إليه من كافة الزوايا، وعبر مختلف الاتجاهات من أجل أن يستكمل بنية تفسيره التاريخي[٤٠].

ويشير الدكتور (عماد الدين خليل) إلى أن معطيات(ابن خلدون)، التي تمتاز بطبيعتها التركيبية، لم تكن إلا أن الرجل يرفض التفسير (الواحدي) للتاريخ، وأن الرؤية الشمولية للتاريخ، ميزة من أهم ميزات مقدمته، فهو يسلط فيها الأضواء على الأسباب والدوافع كافة، تلك التي تلعب دورها، بشكل أو آخر في بنية وصيرورة الواقعة التاريخية[٤١].

وقد خصص الدكتور (عماد) ثلاث فصول للرد على الطروحات المعوجة التي انصبت من قبل مفكري الغرب على (ابن خلدون)، فأفرد الفصل الأول في أطروحاته عن دور الدين في الواقعة التاريخية: خلقاً أو إضافةً أو تعديلاً أو توجيهاً.. والثاني عن: الاتجاهاتالدينية في تفسيراته لعديد من وقائع تاريخنا الإسلامي بالذات، وهي المساحة التي انصبت عليها جل اختباراته، ومارس فيها معظم جوانب استقرائه، الذي قاده إلى صياغة قوانينه العديدة.. أما الثالث: فيوضح تحليلات ابن خلدون للدين في آفاقه الشاملة.. الدين الموصى به من الله إلى أنبيائه عليهم السلام، مؤكداً المكانة الفوقية للوحي،

متحدثاً عن الأخطاء المنهجية والموضوعية التي يمارسها العقل بفلسفة الإلهيات[٤٢].

ثانياً: الموقف الإيجابي من الاستشراق

أما الجانب الآخر لصورة الاستشراق لدى الدكتور (عماد الدين خليل)، فهو نتيجة لمشواره الطويل في دراسة الموروث الاستشراقي،الذي نبع عنه إنجاز مشروع عمل موسع يتضمن الشهادات الإيجابية لغير المسلمين، بمن فيهم المستشرقون، بحق الإسلام: قرآناً ونبياً وعقيدة وشريعة وعبادةً وسلوكاً وحضارةً وتعاملاً مع الآخر وواقعاً ومستقبلاً، فضلاً عن الأسرة والمرأة[٤٣].

ويقول الدكتور (عماد) عن تجربته مع الموروث الاستشراقي الإيجابي: "تفرغت للعمل السنين الطوال عبر منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وشمرت عن ساعد الجد، ورحت أتابع (الشهادات) في عشرات الكتب التي صنفها المستشرقون، وبمرور الوقت أخذ يتبين لي أن هؤلاء لم يبخلوا في الإدلاء بشهاداتهم الإيجابية بحقّ الإسلام، بل إنهم في بعضها تفوقوا حتى على بعض الباحثين المسلمين أنفسهم، في الكشف عن منظومة القيم المتألقة في هذا الدين، ربما لأنهم يجيئون من خارج دائرة الإسلام، فيمارسون الاكتشاف الذي يثير دهشتهم وإعجابهم، بعد إذ لم يكن الإلف والمعايشة والاعتياد قد أطفأت الوهج"[٤٤].

ويؤكد الدكتور (عماد الدين خليل) على ملاحظة مهمة جداً حول الشهادات الإيجابية عن الإسلام، من قبل هذا المؤلف أو ذاك، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات أخرى سلبية، تقف موقفاً مضاداً عن الإسلام[٤٥]..ولن يحتاج المرء إلى كبير عناء من أجل أن يشير إليها، بل يصل الأمر به إلى حد القرف والاشمئزاز في بعض الأحيان[٤٦].

ويرى الدكتور أنه لا يوجد مانع من اعتبار الشهادات الأولى (الإيجابية) بمثابة اعتراف (حر) بهذهِ القيمة أو تلك من قيم الإسلام، والتي تدفع الغربيين إلى إعلان رأيهم ذاك دونما أي نوع من أنواع القسر أو الاضطرار[٤٧].

وبكونها شهادات، وليست موقفاً نهائياً، يمكن أن تعتمد للدلالة على الوجه المشرق للإسلام، وهي تحتاج إلى مزيد من التأكيد والتنسيق وإعادة العرض في إطار ملائم.. وتلك الشهادات التي إذا ما عرضت على المفكر الغربي أكد صدقها ثانية وثالثة ورابعة، لأنه لم يقلها إلا بدافع قدرة الإسلام، في جانب ما من جوانبه، وتأكيد على تميزه وتفوقه وفاعليته[٤٨].

أما أهداف الدكتور عماد من هذا العمل الذي يقدم سيلاً وحشداً من الشهادات الإيجابية، فهي تتمثل في جوانب ثلاثة:

الأول: محاولة لرصد جانب من الشهادات الإيجابية التي صدرت بحق هذا الدين، من بيئات طالما أساءت إليه[٤٩].

الثاني: رسالة موجه إلى أعداء الإسلام من الداخل: فلن يضيرهم شيء إن ظل الكتاب والمفكرون يكتبون عن الوجه الأسود للاستشراق، أما الوجه الآخر الذي تطمس عليه ظلمة التعصب وتغطيه الكراهية، فإن كشفه وتسليط الضوء عليه قد يردهم إلى شيء من الصواب، وهم يرونه يصدر بالحق والباطل، عن واحد من أصحابهم[٥٠].

الثالث: هي محاولة من الدكتور (عماد) لتحقيق التعامل العادل مع الموروث الاستشراقي، وتناوله بوجهيه: الأسود الكالح، والأبيض المشع، فالمؤرخ ليس شاعراً يهجو أو يمدح، ولكنه باحث عدل يتوخى الوصول إلى الحقيقة بأكبر قدر من الموضوعية، على منهج العدل في الفكر والحياة[٥١]: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[٥٢].

فكان نتاج ومعطيات الدكتور (عماد الدين خليل) العديد من المؤلفات التي رصدت الشهادات الإيجابية، أبرزها: (قالوا عن الإسلام، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، القرآن الكريم من منظور غربي، المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، الفن والعقيدة، مدخل إلى الحضارة الإسلامية).

وفي كتاب (الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي)، يحشد الدكتور (عماد الدين) شهادات العديد من مفكري الغرب والشرق، كـ(روجيه كارودي)، و(سانتيلانا)، و(لاندو)، و(هاملتون كب)، و(مونتغمري وات)، و(لوبون)، و(ول ديورانت)، و(نظمي لوقا)، وغيرهم الكثير..ومما يميز هذا الكتاب أن كل شهادة نقلت عن أستاذ متخصص في ميدانه، وما برع به من علوم، فعن (كارودي) الذي عرف في البحث عن الحقيقة، وعن (سانتيلانا) الخبير القانوني الفرنسي، وعن (ترتون) الذي عرف بدراسة المجتمع والديانات، و(لوبون) الذي اختص بدراسة حضارة العرب.

ولا يختلف كتاب (المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي) عن الذي سبقه، إذ شمل عدة فصول عن شهادات حول المرأة، كونها لقيت مكانة كبيرة لا تختلف عن الرجل في الخطاب القرآني، كما قال (مارسيل بوازار)[٥٣].. وشهادات عديدة أخرى عن (سيدو) و(لوبون) و(هنري دي كاسترى) تبين أهمية الحجاب، وتعدد الزوجات، ومقارنة وضع المرأة في الإسلام،ومكانتها في القوانين والتشريعات في الحضارات الأخرى[٥٤].

وفي كتاب (القرآن الكريم من منظور غربي)، ينقل الدكتور (عماد) شهادات غربية

حول القرآن الكريم من أقلام العديد من مفكري الغرب، تضمنت شهادات حول القرآن الكريم في فصول عديدة، ناقشت: التوثيق للقرآن الكريم، والأسلوب والمضمون، والإعجاز العلمي، والمقارنة بين القرآن الكريم والكتب الدينية المحرفة، والتأثير الكبير للقرآن الكريم على النفس البشرية، والتأثير الاجتماعي والأخلاقي والثقافي والحضاري لكتاب الله[٥٥].

ويأتي كتاب (الفن والعقيدة) شاهداً آخر من أعمال الدكتور (عماد الدين خليل) التي حشدت العديد من الشهادات لعلماء ومفكري الغرب حول الإسلام والفن الإسلامي، الذي انساق وفق تعاليم الإسلام فجاء فناً متجذراً بالعقيدة والإيمان.. احتوى الكتاب على ثلاثة مقالات في شهادات لمفكرين أبصروا الفن الإسلامي، ووضعوا أيديهم على أهم النقاط التي ميزته عن غيره من الفنون. ويعد (وروم لاندو) أهم الذين قدموا شهادات رائعة حول الفن الإسلامي. فينقل عنه الدكتور (عماد) ملاحظة مهمة جداً حول خصائص الفن الإسلامي، وهي: التجريد الجمالي الخالص، ورفض التشخيص،احتراماً للمنظور العقيدي، وتجاوز الطبقية، والانتشار الجغرافي الواسع. ومن أبرز ملاحظات (لاندو)، التي أشار إليها الدكتور (عماد الدين خليل)هي: إبداعية الخط العربي، والمساحة الواسعة التي غطاها في الحياة الفنية الإسلامية[٥٦].

وفي كتاب (مدخل إلى الحضارة الإسلامية)، يورد الدكتور (عماد الدين خليل) العديد من الشهادات عن كبار المستشرقين حول المنهج العلمي الذي أرست تقاليده الحضارة الإسلامية، والتي نتجت عن النقلة المنهجية الحسية التي دلّهم القرآن الكريم عليها، ودعاهم إليها، من خلال تأكيدات القرآن الكريم الملحة على ضرورة الكشف عن السنن، والمناخ الحر الذي نشط فيه الباحثون بعيداً عن أية رقابة أو مصادرة أو قسر..ويقدم شهادات (لويس يونغ) و(سارتون)،والألماني (فرانز روزثنال)، و(لوبون)، و(زيغرد هونكة)[٥٧].

وعن نمو الحضارة الإسلامية، يورد الدكتور (عماد) شهادات كثيرة حول دور الحضارة الإسلامية في احترام التراث المعرفي البشري الذي سبقها وعاصرها، وميزة العقل الإسلامي الذي لم يكن يرفض معطيات الغير، ولكنه في الوقت نفسه لم يتقبلها بالكلية، وإن دور الحضارة الإسلامية لم يكن مجرد اقتباس عمن سبقهم، ولكنه هضم وتمثل، فحقق مردوده الإيجابي الفعال، ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن على نطاق الحضارات جميعاً.. ومن أهم هذهِ

الشهادات أقوال (لويس يونغ) و(غرونبام) و(دي لاسي اولري) و(سارتون)[٥٨].

ويقتبس الدكتور شهادة مهمة عن المفكر الفرنسي (مارسيل بوازار) توضح موقف المفكر الغربي المنصف من الحضارة الإسلامية، والذي يرى الدكتور (عماد الدين) أن (بوازار) يضع يده على واحدة من أهم خصائص المنظور الإسلامي للنشاط الحضاري، إنها: معادلة التوازن الملح والمطلوب بين الديني والدنيوي، بين السماء والأرض، وبين الروح والجسد، فليس ثمة إيمان متحقق في واقع الحياة، إن لم يعبر عن نفسه في إطار نشاط تتداخل فيه وتتوحد وتتناغم كافة الثنائيات[٥٩].

وينقل الدكتور (عماد) العديد من الشهادات حول دور الحضارة الإسلامية في صياغة الحضارة الإنسانية والأوربية، من خلال اعترافات مفكري الغرب، قائلاً: "كلنا يعرف الجسور التي انتقلت عليها معطياتنا الحضارية إلى عالم الغرب، الغارق – يومها– في سباته العميق: أسبانيا.. جزر البحر المتوسط.. شواطئ آسيا وأفريقيا والأناضول.. فضلاً عن تجارب الاحتكاك التاريخي البشري في السلم والحرب، بين الأمة الإسلامية وشعوب الغرب. لقد عبرت الحضارة العربية إلى أوربا – يقول لويس يونغ– وتركت آثارها من خلال أسبانيا وصقلية وسورية، وتبقى أسبانيا أهم طريق مرت عبره الحضارة العربية إلى أوربا"[٦٠].

الهوامش:

(١) خبرتي مع الاستشراق، ص١ مقابلة شخصية مع الدكتور عماد الدين خليل.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص٢.
(٤) خبرتي مع الاستشراق، ص٢-٣.
(٥) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، ١٩٦٥م، ص٦٠-٦١.
(٦) خبرتي مع الاستشراق، ص٥-٦.
(٧) خبرتي مع الاستشراق، ص٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٦-٧.
(٩) المصدر نفسه، ص٧" ينظر: عماد الدين خليل، مدخل إلى التاريخ الإسلامي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٥، ص٣٤.
(١٠) عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر ومنتغمري وات، ط١، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٩، ص٨.
(١١) المستشرقون والسيرة النبوية، ص٢٠.
(١٢) محمد في مكة، ترجمة: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، ص٥-٦.
(١٣) المستشرقون والسيرة، ص٨٩.
(١٤) المصدر نفسه، ص٨٩.
(١٥) المستشرقون والسيرة، ص٩٠.
(١٦) دراسة في السيرة، ص١٤.
(١٧) المصدر نفسه، ص١٥.
(١٨) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٧" ينظر: إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ط١، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٢٧، ص١٣٦.

(١٩) دراسة في السيرة، ص١٢" ينظر: جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ط١، الزعيم ، بغداد ،١٩٦١، ص١٠.
(٢٠) دراسة في السيرة، ص١٩.
(٢١) دراسة في السيرة، ص١٠.
(٢٢) المصدر نفسه، ص١١.
(٢٣) دراسة في السيرة، ص١٢.
(٢٤) المصدر نفسه، ص١٥-١٦.
(٢٥) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص٢١.
(٢٦) المصدر نفسه، ص٢٢.
(٢٧) المصدر نفسه، ص٢٣-٢٤.
(٢٨) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية.
(٢٩) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية،
(٣٠) عماد الدين خليل، حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٦، ص١٤.
(٣١) المصدر نفسه، ص١٢١.
(٣٢) حول إعادة كتابة التاريخ، ص١٢٣.
(٣٣) حول إعادة كتابة التاريخ، ص١٢٣-١٢٧.
(٣٤) عماد الدين خليل، مدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥، ص٣٠.
(٣٥) المصدر نفسه، ص٣١.
(٣٦) عماد الدين خليل، مدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي، ص١٢.
(٣٧) عماد الدين خليل، ابن خلدون إسلامياً، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص٦.
(٣٨) المصدر نفسه، ص٧.
(٣٩) المصدر نفسه، ٨.
(٤٠) ابن خلدون إسلامياً، ص١٠.
(٤١) المصدر نفسه، ص١٠-١١.
(٤٢) المصدر نفسه، ص١٤-١٥.
(٤٣) د. عماد الدين خليل، خبرتي مع الاستشراق، ص٧.
(٤٤) خبرتي مع الاستشراق، ص٧.
(٤٥) المصدر نفسه، ص٨.
(٤٦) عماد الدين خليل، الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧، ص٥.
(٤٧) المصدر نفسه، ص٦.
(٤٨) المصدر نفسه، ص٧-٨.
(٤٩) خبرتي مع الاستشراقي، ص٩.
(٥٠) الإسلام والوجه الآخر، ص١٠.
(٥١) خبرتي مع الاستشراق، ص١٠.
(٥٢) سورة المائدة، الآية ٨.
(٥٣) عماد الدين خليل، المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، ط١، مكتب التفسير: أربيل/ العراق، ٢٠٠٨، ص٢٥.
(٥٤) المصدر السابق، ينظر الصفحات، ٢٦، ٣٧-٣٩، ٤٢، ٥٥.
(٥٥) عماد الدين خليل، القرآن الكريم من منظور غربي، ط١، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٦٦.
(٥٦) عماد الدين خليل، الفن والعقيدة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠، ص١٨.
(٥٧) عماد الدين خليل، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٥، ص١١٦-١٢١.
(٥٨) المصدر نفسه، ص١٢٤-١٣٠.
(٥٩) مدخل إلى الحضارة الإسلامية، ص٤٤.
(٦٠) المصدر نفسه، ص١٣١.

حلقات مفقودة من تاريخ منطقة بهدينان

من خلال المصادر المسيحية واليهودية

أ.د. فرست مرعي

ترجع أهمية المصادر السريانية (= المسيحية) واليهودية، إلى أنها تؤرخ لفترة مهمة في تاريخ الشعب الكوردي.

والحقيقة إن المصادر السريانية هي مصادر آرامية، على اعتبار أن اللغة السريانية، المدونة فيها المصادر آنفة الذكر، هي إحدى اللهجات الآرامية.

والآراميون أمة قديمة من الأمم السامية التي هاجرت من الجزيرة العربية، وقد ورد ذكرهم في عهد الملك الأكدي (نرام سين) (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م)، وإن كان هناك باحثون آخرون يرون بأن هجراتهم التاريخية من الجزيرة العربية لا تتعدى الفترة المحصورة بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد. وقد تفرعت اللغة الآرامية في القرنين الأول والثاني الميلاديين إلى فرعين رئيسيين، احتوى كل منهما على عدة لهجات:

١- الآرامية الشرقية: وتضم اللهجات الحضرية (مدينة الحضر المشهورة)، والآرامية البابلية، والآرامية الرهوية (سريانية مدينة الرها)، واللهجات الصابئية (المندائية-لهجة صابئة جنوب العراق)، واللهجات الآثورية (الآشورية- لهجة سكان شمال العراق، وشمال

غرب إيران- كوردستان ايران، ومنطقة هكاري في كوردستان تركيا).

٢- الآرامية الغربية: وتضم اللهجات الآرامية النبطية التدمرية (مدينة تدمر الشهيرة)، والآرامية الفلسطينية، والسورية، وغيرها.

وقد تمكن الآراميون، في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، من إقامة عدة دويلات وإمارات في مناطق الفرات الأعلى والأوسط، منها: دولة آرام نهر ايم، التي ورد اسمها بهيئة: آرام ما بين النهرين، ودويلة فدان (آرام)، التي كان مركزها مدينة (حران). كما اشتهرت في (التوراة) بكونها موطن (إبراهيم الخليل) - عليه السلام- وأفراد أسرته، خلال هجرتهم من (أور) الكلدانيين، في جنوب العراق، في طريقهم إلى بلاد الكنعانيين (فلسطين)، حسب رواية الكتاب المقدس.

وللآراميين تأثير واسع وكبير في تاريخ الشرق الأدنى القديم، على الأصعدة السكانية والحضارية واللغوية، حتى أن الآرامية أصبحت لغة المراسلات الدولية، فضلاً عن أن أغلبية سكان الهلال الخصيب غدو يتكلمون بها، ناهيك أنها لغة المسيح عليه السلام، وأتباعه.

وفي نهاية القرن الثاني الميلادي دخلت المسيحية بلاد الآراميين في الرها(= أورفة الحالية)، مما حدا بمعتنقيها إلى أن ينفروا من التسمية القدية الآرامية، التي هي مرادفة للوثنية عند اليهود المسيحيين، والاستعاضة عنها بكلمة السريان، بدلاً من آرامي، والسريانية بدلاً من الآرامية، تلك التسمية التي أطلقها عليهم اليونانيون، الذين كانوا قد احتلوا بلادهم سنة ٣١٢ ق.م، في عهد الملك سلوقس الأول (٣١١-٢٨١ ق.م)، الذين جعلوا اسم الآراميين مرادفاً لسكان المدن الوثنية، مثل (حران).

وتجدر الإشارة الى أن الكثرة من مدونات التاريخ الكوردي الحديث جاءت في المدونات المسيحية واليهودية، من خلال سجلات العماد في الكنيسة (= سجلات الولادات) والوفيات، ونسخ المخطوطات الكنسية، من خلال كتابة الهوامش والحواشي المتنوعة عليها، بالإضافة الى أن الرحالة اليهود والأوروبيين دونوا الكثير من الملاحظات عن تاريخ كوردستان عامة، وتاريخ منطقة بهدينان خاصة.

وفيما بعد ظهر مؤرخون يهود، من أصول كوردية، دونوا تاريخ اليهود الكورد من خلال سجلات الرحالة اليهود، ومن اللقاءات الميدانية مع بعض الحاخامات اليهود، وبعض يهود كبار السن، الذين عاشوا في كوردستان أكثرية أعمارهم، ثم هاجروا إلى (فلسطين - إسرائيل)، في سنوات

١٩٤٩-١٩٥١م، وقضوا بقية أعمارهم هناك" لذا فإن معلوماتهم على قدر كبير من الأهمية، ويمكن مقارنتها بغيرها من المصادر، للوصول إلى الحقيقة التاريخية نوعاً ما. مع ملاحظة أن العديد من الروايات لا يمكن التكهن بصحتها، حيث يبدو التعصب الديني والعرقي (= الإثني)، والمبالغة، واضحاً في ثنايا مقابلاتهم، ولم يكلف الباحثون اليهود الكثير من العناية في تدقيقها، أو على أقل تقدير مقارنتها بغيرها من المصادر.

١- في كانون الثاني سنة **١٥٥٥م**، قام باشا العمادية بإلقاء القبض على البطريرك الكلداني (هرمز سولاقا) وسجنه، وكان الأخير قد غيّر مذهبه النسطوري إلى الكلداني الكاثوليكي، لذا سلمه البابا (جوليانس الثالث) درع البطريركية في ٢٨ نيسان **١٥٥٣م** في مدينة (روما)، وعاد أول البطاركة الكلدان إلى الشرق. وبوشاية خصمه (شمعون الثامن دنخا- ١٥٥١- ١٥٥٨م)، بطريرك (القوش) النسطوري، الذي اتهمه بالعمالة، قام باشا العمادية بعد ذلك بالتخلص من (سولاقا)، عبر إغراقه في إحدى البحيرات الواقعة جنوب شرق مدينة العمادية، بالقرب من دير (مار ساوه) (= قرية ديرش- منطقة برى كاره) في سنة **١٥٥٥م**.

٢- ورد ذكر كنيسة في (دهوك) تحمل اسم (ماركوركيس)، وذلك في ذيل مخطوطة تعود إلى الإنجيل المقدس مكتوب:(كزيرتا (جزيرة) ابن عمر -جزيرة بوتان)، بيد القس (أوراها)، برفقة (كوريه بن شليمون)، بإعطائها لكنيسة (مار كيوركيس) الموجودة في قرية (ديوَك). أما الاسم باللغة الكلدانية فهو (إتوُك)(آشور المسيحية، ج٢، ص٧١٠-٧١١)" والكنيسة المذكورة كانت تقع مقابل الجامع الكبير من الجهة الشرقية، وليست محل الجامع، كما تذكر المصادر السريانية .

٣- في سنة **١٦٠٧م** ورد ذكر كنيسة (مار إيثالاها)- الواقعة في مدينة دهوك، مقابل جامعة دهوك - في التقرير المقدم إلى البابا (بولص الخامس **١٦٠٥-١٦٢١م**)، أورده الأنبا (شموئيل جميل التلكيفي) في أطروحته المقدمة إلى (الجامعة الأوربانية) في (روما).

٤- في سنة **١٦٠٧م** ورد ذكر دير باسم (دير حنانيا)، الواقعة في قرية (بروشكى) الدوسكية، التي تقع الآن ضمن مركز مدينة دهوك. وقد عمل هذا الدير بشاط إلى القرن السابع عشر الميلادي. جاء ذلك ضمن مقالة نشرها (ديجورج) في مجلة البعثات التبشيرية الدومنيكية، عام**١٩٢٩م**. في سنة **١٦٣٥م** ورد ذكر كنيسة في (دهوك) تحمل اسم

(مريم العذراء)، كانت تقع في موضع (كنيسة الانتقال) الحالية، يعتقد أنها كانت خاصة بالسريان، وأن مطران دير (مار متى): (ملقي)، زار الكنيسة، وقام بتعيين الأكليروس الخاص بخدمتها.

٥- في سنة ١٦٤١م جاء في سجل حوليات (كلية بروبغندا)، في المجلد الأول، لمجموعة الوثائق، لسنة ١٦٣٣- ١٧٥٣: "أن بطرس جيسي الفارسي، من مدينة العمادية، قبل في الكلية (بروبغندا) في ١٧ آب عام ١٦٤٧م، وكان له من العمر آنذاك ما يقارب ٢٤ سنة، وذلك بترشيح من قبل الكاردينال (بربرينو)، وبقرار المجمع في ٣ حزيران من نفس السنة، وهو من والدين مسلمين، وادعى أنه مدعو من الله أن يأتي إلى (روما)، ليصبح مسيحيًا، سنة ١٦٤١م. وفي ٧ أيلول ١٦٤٢م، عمّده المونسيور(سكنا رولا)، في كنيسة (سيدة الجبال) في مدينة (روما)، وكان أشبينه: السيد التقي (الكونت جيسي الفرنسي)، ابن سفير الملك الفرنسي في القسطنطينية (استنبول)".

رجع الأب (بطرس جيسي)، بعد رسامته الكهنوتية، إلى بلاده (كوردستان)، وعمل كثيرًا في الرسالات والمواعظ، وخصوصًا في مدينة (آمد) (= دياربكر)، حيث يبدو أن مجيئه إلى مسقط رأسه في (العمادية) ربما سيثير مشاكل، كانت الكنيسة آنذاك في غنى عنها. مهما يكن من أمر، فإنه كان غيورًا على نشر الإيمان الكاثوليكي، والدفاع عنه ضد النساطرة (الآشوريين الحاليين)، الذين كانوا لا يزالون هم الأكثر بين أتباع كنيسة المشرق. مكث الأب (بطرس جيسي) عدة سنوات في (آمد)، ثم ذهب إلى قصبة (القوش)، شمال شرق مدينة (الموصل)، للقاء البطريرك (مار ايليا الثامن ١٦١٧- ١٦٦٠م)، الذي سرّ بقدومه، ورآه غيورًا عالي الإيمان، ويكنّ محبة عميقة للكنسية ووحدتها مع جميع الكنائيس، وخصوصًا (كنيسة روما) التي عاش بها فترة، وتعلم اللغة الإيطالية، وتعرف على المسؤولين في الدوائر الرومانية. لذا، اختاره للذهاب إلى (روما) برفقة اثنين، وهما: الأب (مرقس)، والشماس (طيمثاوس)، لاطلاع المسوؤلين في (روما) على حالة المسيحيين في بلاد الشرق، وتحديدًا كوردستان. وقد كتب البطريرك رسالة بهذا الخصوص إلى مجمع التبشير بالإيمان (البروبغندا)، جاء فيها: "أرسل إلى روما عندكم تلميذكم الأب بطرس جيسي، فإنا أجبناه، لأنه تلميذكم، ونرجو أن يكون وسيطًا بيننا وبينكم، وهو مطلع على كتبنا، وعارف جيدًا نظام طقوسنا التي نقوم بها يوميًا. أرجو منكم أن لا تعتمدوا على كل من يقول لكم إنه مرسل من قبلنا، ولكنه بالواقع ليس كذلك". وفي تعقيب على هذه

الرسالة، يقول الأب (بطا الكبوشي)، مسؤول رسالة الكبوشيين في (الموصل)، في رسالته إلى (مجمع البروبغندا): "إن البطريرك أرسل الأب بطرس جيسي مع شخصين آخرين، وهو يعرف اللغة، لكي يرى ماذا يمكن القيام به لمجد الله وخلاص نفوس كثيرة".

بخصوص ما تبقى من حياة (بطرس جيسي) الفارسي العمادي، فإن حوليات البروبغندا تشير فقط إلى أنه استشهد في الحبشة (= أثيوبيا) من أجل الإيمان الكاثوليكي، بدون تحديد السنة.

٦- في ١٢/٢٧/ ١٦٧٦م، ورد في رسالة المطران (عمانوئيل بالييهBallyet) أنه يوجد في دهوك ثلاثون عائلة كاثوليكية مع كنيستهم وكاهن(= قس) خاص بهم، دون الإشارة إلى وجود كنيسة ثانية خاصة بالنساطرة.

٧- في سنة ١٧١٢م، وأثناء الصراع الحاصل بين الأخوين المتخاصمين: (عثمان باشا)، والي العمادية، و(زابد)، حاكم زاخو، حل الدمار بالعديد من البلدات والقرى المسيحية في المنطقة، منها: منكيش(= مانكيش) وآرادن، وديركينيه(= ديركن، التابعة لناحية ديره لوك)، وسميل، ودهوك، وشيوز(= شيزى)، بالإضافة إلى الخراب الشامل بقرى وادي (صبنا)، وبناء على ذلك غادر المسيحيون قصبة (سميل) نهائياً في تلك الحقبة.

٨- في سنة١١٩١هـ/١٧٧٧م تمردت قبيلة التيارية(= الآثوريون – الآشوريون) على أمير العمادية (=بهدينان)، فقاتلهم (إسماعيل باشا)، وقتل منهم سبعين رجلاً، ونهب ثلاثمائة وخمسين بغلاً.

٩- في صيف سنة ١٨٧٩م استدعي الأب (جاك ريتوري)، مسؤول الإرسالية الدومنيكانية في قرية مار ياقو(= قَشَفر)، الواقعة شمال غرب مدينة (دهوك)، إلى (الموصل)، وانتدب ليحل محل رئيس الرسالة: الأب (بيير غونزاليز دوفال)، ثم عين (ريتوري) قاصداً رسولياً في (بيروت)، منذ ذلك التاريخ حتى وافته المنية في الأول من شهر آب سنة ١٩٠٤م، عن عمر يناهز الحادية والسبعين. وكان (ريتوري) قد أبلى بلاءً حسناً في إسعاف المحتاجين الجياع والمرضى في منطقة (دهوك)، حيث ترك ذكرى طيبة في قلوب الجميع، ورفع من شأن الإرسالية. وتجدر الإشارة إلى أن ثلاثة من المرسلين الدومنيكان قد ماتوا في دير قرية (مار ياقو)، نتيجة تفشي مرض التيفوئيد، اعتباراً من شهر نيسان عام ١٧٨٩م، وكان الأب (ريتوري) هو الناجي الوحيد من بين المرسلين الدومنيكان.

١٠- في ١٦/١١/١٨٨٣م كتب البطريرك إيليا الثاني عشر(= عبو اليونان) رسالة إلى الشماس (يوسف دلال) حول نية (طاهر آغا) الاستيلاء على كنيسة قديمة مقابل جامع دهوك الكبير. ومما جاء في الرسالة: أن غبطته طلب من الشماس (يوسف دلال) أن يجاهد للحصول على حقوق الكنيسة، وعدم التفريط بشبر منها.

١١- في سنة ١٨٨٥م وجد الأب (جاك ريتوري)، مسؤول الإرسالية الدومنيكانية في قرية (مار ياقو)، أن قرية معلثايا(= مالطا) كانت "مدمرة، لم يبق فيها قائماً سوى مبنى كنيستها، التي تستخدم كملجأ لحماية قطعان الأغنام العائد للعرب". (آشور المسيحية، ج٢، ص٧٠٨).

١٢- في سنة ١٨٨٥م زار الرحالة الفرنسي (بنديه) دهوك، في طريقه إلى (الموصل)، قادماً من (العمادية). وذكر في مذكراته بأن عدد بيوت (دهوك) حوالي (٦٠) بيتاً فقط، بالإضافة إلى مقهى تركي (= محل سينما نوروز)، يقع قبالة قلعة السراي (= دائرة البريد القديمة).

١٣- في سنة ١٨٨٥م قام النساطرة الآثوريون، من عشيرة التياري، بحملة عسكرية على عشيرة الأرتوشي، وفي طريقهم حاصروا (قرية مارونس)، وتمكنوا من السيطرة عليها.

١٤- في شهر تشرين الثاني عام١٨٨٥م خرج الأنبا (شموئيل جميل التلكيفي) من (الموصل)، قاصداً منطقة (عقرة)، وفي طريقه مر بقرى الشبك، وعشيرة الكوران، فذكر أنه كان في قرية (بَردَرَش) حوالي(١٠٠) بيت من الكورد، وفي قرية (روبيا = روفيا) حوالي (٤٠) بيتاً من الكورد. وعندما وصل إلى مدينة (عقرة)، وجد فيها ١٢٠٠ بيت، منهم حوالي (٣٠) بيتاً من المسيحيين الكلدان الكاثوليك، يسكنون متجاورين في أعلى المدينة، أسفل حصن متهدم مبني على قمة الجبل، وهؤلاء الكلدان لهم كنيسة مبنية على اسم مريم العذراء، لكنها غير مستخدمة حالياً (=آنذاك)، بسبب سقوط نصف سقفها تقريباً. كما يوجد في عقرة (٢٠) بيتاً من المسيحيين اليعاقبة (= المنوفستيين – أصحاب الطبيعة الواحدة)، ولهم كاهن واحد، وكنيسة واحدة، محفورة كلها في الصخور. وفي (عقرة) حوالي (١٠٠) بيت من اليهود، ولهم كُنَيس، ورئيس كهنة (= حاخام). أما بقية السكان فمن الكورد. كما أنه زار قرى منطقة نهله والزيبار، واشتكى من ظلم الآغوات و(الأكراد الأشرار) للمسيحيين، في تلك الأنحاء، وكيف أنهم استولوا على العديد من القرى المسيحية الكلدانية، وتشهد بذلك خرائب الكنائس فيها. فعلى سبيل المثال، زار قرية (آرينا)، فوجد فيها حوالي

(١٠٠) بيت من حوالي(٩٠) من الكورد، الذين كانوا جماعتين: الأولى تابعة إلى (عبدالله آغا)، والأخرى إلى (سليم خان) آغا القرية والمنطقة كلها، وبقية البيوت هي من الكلدان الكاثوليك، الذين لهم كنيسة باسم (مار قرياقوس)، ولهم كاهن (= قس) اسمه (كوريال). بعدها زرنا قرية أرتون (= أركن)، تسكنها (٤) عوائل من الكلدان. ثم زرنا قرية صانايي (= صيان)، وفيها فقط (٧) بيوت من الكلدان، الذين لهم كنيسة على اسم (ماركيوركيس الشهيد). بعدها زرنا قرية (بامشمش)، فوجدنا فيها(٤) بيوت من الكلدان، ولديهم كنيسة باسم (مريم العذراء).

١٥- في شهر تشرين الثاني، عام١٨٨٥م، زار الأنبا (شموئيل التلكيفي) قرى أخرى تابعة لـ(عقرة)، فزار قرية (كردس)، التي يسكنها فقط (١٠) من عوائل المسيحيين الكلدان، ولهم كنيسة باسم (مريم العذراء). وفي اليوم التالي زار الأنبا قرية شلمَث (=شرمن)، أهلها جميعاً من النساطرة" ولم يذكر مسيحيتهم، لأنهم أصحاب بدعة وهرطقة في نظره. ثم زار قرية (كوندك)، التي يسميها أهل المنطقة (نيريم)، وفيها حوالي (٣٠) بيتاً من الأكراد، عدا خمسة بيوت من الكلدان. وكان زعيم القرية (خالد آغا) قد دعا الأنبا ومرافقيه إلى دعوة غذاء، لأنهم كانوا على معرفة سابقة ببعضهم. بعدها زار قرية (شوش)، التي فيها حوالي (٦٠) بيتاً من الكورد واليهود، بعدها زار قرية (شرمن) من جديد، واستطاع إقناع جميع أهاليها (١٥ عائلة) بترك النسطورية، واعتناق الكثلكة، وتم تعميد أطفالهم من جديد.

١٦- في ٦/١٢/١٨٨٥م، زار الأنبا (جميل)، بصحبة (خواجا شربتي)، رئيس قرية (نوآوا) الكلدانية، الواقعة ضمن عشيرة السورجي (قرية بجيل). وكان (الشربتي)، ومسيحيي القرية المذكورة، هم بالأصل من منطقة (الزيبار)، ولكنهم هربوا منها، حيث آواهم السورجية. وقد رحب الشيخ (محمد السورجي)، شيخ تلك المنطقة، بالأنبا وضيفه. ودعاه الكاهن إلى الاهتمام بالمسيحيين، ورعايتهم. بعدها زار قرية (ملا بروان)، و(كاني فلله = عين المسيحيين)، فوجد فيها عدة أسر مسيحية هربت من (ظلم الأكراد الزيباريين) أيضاً.

١٧- في سنة ١٨٩٢م، أقدم النساطرة الآثوريون، من عشيرة التياري السفلى، على نهب ألف رأس من الغنم العائدة للشيخ (نور محمد الدهوكي البريفكاني)، وهي في طريقها إلى منطقة زوزان في منطقة هكاري، ولما أعياه استرجاعها، استعان بعشائر بهدينان القوية (البرواري بالا، المزوري، والدوسكي)،

فزحفت على مناطق تياري السفلى، ونهبت منهم أضعاف ما نهبوه من أغنام الشيخ (نور محمد). وتجدر الإشارة إلى أن السفير البريطاني في استنبول (= السير ستراتفورد) احتج لدى الباب العالي للدولة العثمانية على هذه الحادثة.

١٨- في ٢٤ تموز سنة ١٨٩٢م، تم رسم (طيمثاوس إرميا مقدسي) أسقفاً – مطراناً على (أبرشية زاخو).

١٩- في سنة ١٨٩٢م، بنى (طيمثاوس مقدسي)، مطران (أبرشية زاخو)، مدرسة كنسية للبنات المسيحيات في دهوك، مع دار للكاهن (= القس)، إضافة إلى أربعين بيتاً للمسيحيين، في عرصة (كنيسة الانتقال).

٢٠- في سنة ١٨٩٣م، وضع المطران (طيمثاوس مقدسي) أسس مطرانية (= قلاية) زاخو، وفي السنة التالية (١٨٩٤م) تم إقامة الغرف، وتم تحديد فناء المطرانية.

٢١- في سنة ١٨٩٣م رسم الشمّاس (يوسف دهوكي) كاهناً باسم (يوسف دهوكي)، على يد مطران أبرشية زاخو (طيمثاوس مقدسي).

٢٢- في سنة ١٨٩٥م تم الانتهاء من بناء القسم الشرقي من (مطرانية زاخو)، المتكون من رواق(= طارمة) وثلاث غرف، وتمت المباشرة بإقامة القداس(= الذبيحة الإلهية) في الغرفة الكبيرة.

٢٣- في سنتي ١٨٩٧- ١٨٩٨م وقعت مجاعة في (القوش) و(باطنايا) و(تلكيف)، إذ لم يحصدوا من حقولهم شيئاً في سنتين متتاليتين. في حين كانت الدولة العثمانية تجبي منهم الضرائب العينية على الأغذية باستمرار.

٢٤- في سنة ١٨٩٨م، تم إقامة سور حول بناية (مطرانية زاخو). ولقد ظل القس (أبلحد معمار باشي) مشرفاً على العاملين في بناء دار المطرانية منذ عام ١٨٩٤م.

٢٥- في سنة ١٨٩٨م، هاجر الكثير من أهالي (ألقوش) إلى (تلكيف)، خوفاً من عساكر (حاجي آغا الأرتوشي). علماً بأن الآغا المذكور كان أحد أمراء الأفواج الحميدية العثمانية، التي تأسست سنة ١٨٩١-١٨٩٢م، بناءً على أوامر السلطان (عبد الحميد الثاني).

٢٦- في خريف سنة ١٨٩٨م، وبإيعاز من (حاجي آغا الأرتوشي)، و(مصطفى باشا) زعيم عشيرة الميران، سطا لصوص على قرية (بيدار)، التي كانت واقعة في الضواحي الغربية من قضاء (زاخو) آنذاك، وسلبوا تسعة وثلاثين بغلاً وعشر أفراس. ورفع مطران زاخو: (طيمثاوس إرميا مقدسي)، الشكوى ضدهم في زاخو والموصل والقسطنطينية (= استنبول) أكثر من مرة، ولكن بدون جدوى. وكل ما حصل عليه

رجال الدين المسيحيون بضع كلمات مسطورة على القرطاس، تأمر الحاكم والوالي بالعمل على استرجاع الدواب المسروقة إلى أصحابها. إلا أن أحداً لم يتجرأ على تطبيق هذا الأمر ضد السُراق، وذهبت كل مساعي المطران (مقدسي)، وغيره من رجال الدين المسيحيين، أدراج الرياح.

٢٧- في سنة ١٩٠٣م، حدث خلاف بين الشيخ (نور محمد الدهوكي البريفكاني)، وأهالي (القوش)، بسبب اعتناق رئيس القوش(= مختارها) (يوسف صارا) (١٩٠٠-١٩٠٤م) للدين الإسلامي. ولما كانت (القوش) ناحية تابعة لقضاء (دهوك)، لذا قام بطريرك طائفة الكلدان (= مارعمانوئيل الثاني تومكا، ١٨٥٢-١٩٤٧م) بالتوسط لدى السفير الفرنسي في العاصمة العثمانية (استنبول)، بغية فصل (القوش) عن قضاء دهوك وربطها بالموصل، حتى لا يتمكن شيوخ بريفكان القادريون من التدخل في شؤونها. وبعد ضغوط عديدة مارسها السفير الفرنسي، قررت الدولة العثمانية سنة ١٩٠٥م فصل (القوش) إدارياً عن (دهوك)، وإلحاقها بالموصل.

٢٨- في نهاية سنة ١٩٠٤م، وبسبب دخول رئيس القوش ومختارها: (يوسف صارا)، وبعض أقربائه وجيرانه، إلى الدين الإسلامي، وذهابه إلى مدينة (الموصل)، لإتمام مراسيم الدخول أمام المحكمة الشرعية، اتصل بطريرك الطائفة الكلدانية (مار عمانوئيل) بالشخصيات الموصلية، وبزعماء العشائر، للحيلولة دون اعتناق رئيس القوش وأتباعه للإسلام. وكان مسيحية (القوش) يتندرون على وضوء المختار على ضفاف نهر الخوصر.. وقد استطاع البطريرك وقف إجراءات دخول الألقوشيين إلى الإسلام" ولكن إصرار (يوسف صارا) على الذهاب إلى (الموصل) مرة ثانية لإشهار إسلامه، وإعلانه بأنه سيبني مسجداً في وسط (القوش). وأمام هذا الإصرار طلب بطريرك الكلدان من الالقوشيين عمل اللازم" فكان هذا معناه إعطاء شباب القوش الضوء الأخضر لتصفية (يوسف صارا)، وبالفعل تم عمل مكيدة شارك فيها ثلاثة من الالقوشيين، وهم كل من: (يوسف خوبير)، (اسطيفو بلو)، (يونس تيزي/ هومو)، وثلاثة رجال من قبيلة المزوري، وهم كل من: مصطو، جد (سعيد حسن مصطو) المعروف ، (أحمو رحيمو)، و(أحمو خالد).. وكانت الخطة تتضمن بأنه عندما يخرج (يوسف صارا) من منزل رئيس القوش السابق(خواجه ميخا دمن)" وبالفعل عند خروجه، ووصوله أمام خان الرهبان، قُذف ببعض الحجارة، وعند وصوله أمام بيته، أطلق عليه الرماة ثلاث إطلاقات نارية اخترقته وأردته قتيلاً.. (نقلاً

عن: ينبيل يونس دمان، في كتابه: الرئاسة في القوش، ص٧٨–٨١).

٢٩– في سنة ١٩٠٥م، قررت الحكومة العثمانية إجراء مصالحة بين عشيرة (البرواري بالا) الكوردية، وعشيرة (التياري) الآثورية، وتم تكليف والي (وان) للقيام بتلك المهمة، وكان (رشيد بك) زعيم عشيرة (البرواري بالا) قد قتل زعيم (تياري العليا): (مالك إسماعيل)، انتقاما لمقتل خادمه (محمد دشتاني)، كما كان التياريون قد قتلوا (سعيد بك)، شقيق (رشيد بك)، أثناء هجوم التياريين على منطقة البرواري.. ولم تسفر هذه المصالحة عن شيء، نظراً لعدم تنازل رجال عشيرة (التياري السفلى) عن حقوقهم.

٣٠– في ١٩٠٦/٧/٣م، دخل مجموعة من عشيرة (أورماري) قصبة (القوش)، وبينما هم في طريقم إلى القرية، التقوا بالحاج (ملوه)، رئيس عشيرة (المزوري)، في قرية (بيدَه)، وقالوا إنهم ذاهبون لجلب الحنطة من (القوش) بقوة السلاح، فأبدى آغا المزوري لهم النصح قائلاً: إن الجهة التي تقصدونها لا تخضع للابتزاز، فعبثاً تحاولون. فتصدى لهم أهالي (القوش)، بزعامة القس (متي ريس)، وردوهم على أعقابهم، حسب رواية مصادر القوشية. (الرئاسة في القوش، ٨٣–٨٤).

٣١– في سنة ١٩١٣م، نشر الخوري (يوسف تفنكجي) إحصائية عن عدد نفوس المسيحيين الكلدان في مدينة (دهوك)، التي قدرها بحدود ٣٥٠ نسمة، لهم كنيسة واحدة، وكاهنين، ومدرسة واحدة. وتجدر الإشارة إلى أن الزعيم اليزيدي (حمو شرو)، قائمقام سنجار المعيّن من قبل الاستعمار البريطاني، كان قد أنقذ (التفنكجي)، مع عدد كبير من المسيحيين والأرمن، من الموت، أثناء هروبهم إلى (جبل سنجار)، خوفاً من ملاحقة الجيش العثماني.

٣٢– في ١٥ تموز سنة ١٩١٥م، ورد في يوميات بطريرك الكلدان(يوسف عمانوئيل توما)، حول قيام (نايف مصطفى باشا ميران)، زعيم قبيلة (الميران)، بقتل رئيس قرية فيشخابور: (ياقو آغا)، مع القس (توما شيرين)، وحوالي ثمانين من أفراد القرية، بعد أن أمنهم على حياتهم. لذا، عبروا نهر دجلة إلى مضارب قبيلة ميران. وتطلق المصادر المسيحية على تلك السنة (السيفو)، أي السيف" في إشارة إلى حوادث القتل التي ألّمت بالمسيحيين أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى.

٣٣– في شهر حزيران ١٩١٦م، اتهم زعماء الأكراد في (العمادية) مطران (أبرشية العمادية): (فرنسيس داود)، بأنه يزود الروس بالمعلومات عن الدولة العثمانية، وجيشها، فتم توقيفه لمدة خمسة عشر يوماً، بعد أن نزعوا عنه شارة الأسقفية. وعلى

السياق نفسه، اتهم وجهاء الكورد في (دهوك)، القس (يوسف بهرو الدهوكي)، وآخرين، بنفس التهم. فتم توقيفه من قبل المجلس العرفي، المشكل في مدينة الموصل. وعلى الشاكلة نفسها، تم توقيف كل من (الخواجا بتو ريس)، مختار قرية أرادن، والمدعو (توما)، من قرية بيباد، بتهمة التخابر مع المالك إسماعيل، زعيم قبيلة تياري عليا، ومن خلاله الاتصال بالروس، الذين كانوا في حالة حرب مع الدولة العثمانية.. وقد طالت محاكمتهما مدة شهر تقريباً، ولكن بعد التماسات عديدة من قبل (مار عمانوئيل الثاني)، بطريرك الكلدان في العراق، لدى (حيدر بك) والي (الموصل)، تمّ إطلاق سراح المطران (فرنسيس داود)، وبعدها تم إطلاق سراح الجميع، ما عدا الخواجا (بتو ريس)، الذي لم تفد تدخلات البطريرك، وقد كتب بهذا الشأن رسالة إلى مطران أرادن: (فرنسيس)، المطلق سراحه، جاء فيها:"كدت أوفّق (= لإطلاق سراح بتو الريس)، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن". وحكم على المدعو (بتو ريس) بالإعدام شنقاً حتى الموت. وعلى ما يبدو، فقد مات (بتو ريس) من حمى التيفوس، قبل تنفيذ حكم الإعدام به.

٣٤- في شهر آب/ اغسطس/١٩١٦م استولى (محمد حاجي آغا مصطو)، زعيم قبيلة الأرتوشي الكوجرية، على قرية (دير مار ياقو) و(دير الآباء الدومنيكان)، حيث هرب أهالي القرية، وتركوا بيوتهم، وكل ما يملكون، فاستجار أهل القرية بقائممقام قضاء دهوك، الذي أسرع بجنوده إلى منطقة (قشفر) لنجدتهم. لذا سرعان ما أخلى الأرتوشيون الدير، مولين الأدبار، بعد أن سلبوا ونهبوا القرية والحبوب التي كانت في البيادر، وأفرغوا دير الآباء الدومنيكان من كل محتوياته، وبعد مدة قصيرة ألقى والي الموصل العثماني (حيدر بك) القبض على (محمد حاجي آغا) لمعاقبته.

٣٥- في سنة ١٩١٩م، زار (آغا بطرس)، يرافقه المالك (خوشابا) قصبة (القوش)، وقد جرى لهم استقبال شعبي حافل، ألقيت فيها الكلمات المتبادلة، وقام بزيارة (دير الربان هرمزد)، وجاء إلى استقباله في الوادي: الأنبا (موشي ارميا)، رئيس الدير، ثم صلى في الكنيسة، ونال بركة الرهبان، ثم غادر إلى قرية (باعذرى)، مركز الزعامة الروحية للطائفة الأيزيدية، وقد خرج لاستقباله بحفاوة الأمير (سعيد بك بن علي بك)، وزاروا معاً ضريح (الشيخ عدي) في (كلي لالش)، ثم عاد إلى (الموصل).

٣٦- في نهاية سنة١٩١٩م، بعد عودة الأسير (يوسف جبو يوسف حنا هومي) من الأسر في (الهند)، وكان قد أسر على يد

الإنكليز في (معركة الكوت)، عام١٩١٥م. وبعد عودته استقبله السيد (كوريال كوركيس)، مدير ناحية دهوك، ورافقه مع أشخاص آخرين إلى قريته (مار ياقو – قشفر)، وعند وصولهم القرية طلب من زوجته قدر ماء مغلي، ووضع فيه شيئاً أسود اللون، وقال: هذا يسمونه الشاي، وصب للرجال الحاضرين، وعندما شربوه تعجبوا من مذاقه الحلو الطيب، وكانت المرة الأولى التي شرب الناس الشاي في المنطقة.

٣٧- في تشرين الأول سنة ١٩٢٠م، قام حوالي (٥٠٠٠) مقاتل آثوري، بقيادة كل من: آغا بطرس، وملك خوشابا، وزعماء آخرين، بتسلق جبال كوردستان، انطلاقاً من معسكرهم في (مندان)، الواقعة على (نهر الخازر)، الواقعة على طريق الموصل – عقرة، بغية إقامة دولة آثورية (=آشورية) في مناطق أورمية وهكاري (أجزاء من كوردستان الشمالية والشرقية). وقد تقدمت هذه القوات، تحت رايتها الحمراء ذات الصليب الأبيض، مدعومة بالمدفعية البريطانية، نحو مدينة (عقرة)، وبعد معارك عنيفة مع أبناء عشيرتي السورجي والزيباري، تمكنوا من احتلال عقرة، بعدها واصلوا تقدمهم لاحتلال قرية (بارزان). وبعد معارك عنيفة مع الزيباريين والبارزانيين، تمكنت القوات الآثورية من احتلال (بارزان)، وحرقها، بعد استشهاد القائد البارزاني المشهور (سعيد ولي بك)، ثم واصلت تقدمها نحو مناطق عشائر المزوري زوري، والريكاني، والنيروي، والبرواري زوري.. حيث أحرقت ودمرت في طريقها العشرات من القرى الكوردية، لعشائر الزيباري والبارزاني والريكاني والنيروي، انتقاماً وثأراً لخسائرها في معارك عام ١٩١٥م مع المجاهدين الأكرد من أبناء العشائر المذكورة. ولولا حلول فصل الشتاء، وحدوث انقسام بين أبناء مناطق أورمية وهكاري، لكانت الأمور تسير وجهة أخرى.

٣٨- في ٩/٩/ ١٩٢٤م، حدثت مشاجرة بين أهالي القوش، وأسرة آل توحلة الموصلية، حول جني محصول الحنطة، أدى إلى جرح (يوسف اسطيفو أودو) من قبل اثنين من جباة المحصول من المواصلة، وهما: أحمد السالم، وأحمد الحياوي.. وقد فارق الحياة بعد عدة أيام.. بعدها انطلقت نداءات الاستغاثة من أهالي القوش، حيث تمكنوا من اللحاق بهما، بعد فرارهما باتجاه الموصل، وبعد تبادل إطلاق النار، جرح أحدهما، بينما استسلم الثاني. اقتيد الجانيان من قبل مجموعة من الرجال باتجاه وادي الدير العلوي (= الربان هرمزد)، وفي مكان داخل وادي (نيرد ايوه)، تمت تصفيتهما، بإضرام النار فيهما، ليكونا عبرة لمن يعتدي على الناس الآمنين.. ولقد أعقب موكب الثأر قطيع من الأغنام، لكي لا

تترك الدماء النازفة من أحدهما سبيلاً، ثم أقسمت المجموعة أن تكتم ما حدث، تحسباً لما تحمله الأيام المقبلة. (الرئاسة في القوش، ص١١٤-١١٦).

٣٩- في سنة ١٩٢٤م، قدم إلى (القوش) حاكم الموصل البريطاني الجنسية: (نولدن)، وطلب من (يوسف بولا)، رئيس(=مختار) القوش، أن يكلف شخصاً لإيصال رسالة إلى حاكم دهوك البريطاني: (جادين)، فوقع الاختيار على (الياس قودا). وبينما هو في طريقه إلى (دهوك)، فوق (جبل زاوا)، المطل على دهوك، من الجهة الجنوبية، إذ بطائرة بريطانية تمر بتلك الأجواء، فصوب (الياس) بندقيته نحوها، وأخذ يطلق الرصاص عليها دون أن يصيبها. غير أن (الياس) اختبأ في بعض الشقوق الجبلية، ورجع إلى (القوش)، دون أن يكمل مهمته، حيث اعتبر خارجاً عن القانون، بنظر السلطات البريطانية.

٤٠- في سنة ١٩٢٤م، أسس المبشر الأمريكي المشيخي (روجر كريغ كامبرلند)، محطة للإرسالية المتحدة فيما بين النهرين United Mission Mesopotamia في مدينة (دهوك)، للتبشير(= التنصير) بين سكان العراق، في المنطقة الشمالية (= كوردستان)، والوسطى، من العراق. وكان (كامبرلند) قد وصل مدينة (الموصل) عام ١٩٢٣م، قادماً من (أمريكا).

٤١- في عام١٩٢٥م، قام الأكراد البارزانيون بالهجوم على قرية نيرم(= كوندك)، وقتلوا كاهن (قس) القرية، مع (١٢) من أهالي القرية. وحالياً القرية أصبحت كوردية تماماً. (آشور المسيحية، ج١، ص١٩٨).

٤٢- في سنة ١٩٢٦م، زار المستشرق الفرنسي: الأب (يعقوب فوستي)، مدينة (دهوك)، والقرى المسيحية المجاورة، بقصد الاطلاع على المخطوطات السريانية في الأديرة والكنائس الكلدانية، والاطلاع على محتوياتها، ومن ثم فهرستها.

٤٣- في سنة ١٩٢٦، اشترى المبشر الأمريكي (روجركريغ كامبرلند) قرية (بابلو)، الواقعة على بعد عشرة كم من مدينة (دهوك)، من السيد (محمد عبدالرحمن إيتوتي)، بمبلغ (٤٠٠) ليرة تركية" وأسكن فيه بعض العوائل الآثورية – الآشورية، القادمة من منطقة هكاري في كوردستان تركيا.

٤٤- في سنة ١٩٢٧م، وصل المرسل الدومنيكي (توماس بوا) إلى (الموصل)، في طريقه إلى (دير مار يعقوب) (= قرية قشفر)، الواقعة شمال غرب دهوك، للعمل كرئيس للدير هناك، وهو أحد مركزين للآباء الدومنيكان في منطقة الموصل. وتجدر الإشار إلى أن (توماس بوا) هو أحد المستشرقين

الفرنسيين المختصين بالتراث الكوردي. ولد عام ١٩٠٠ في (فرنسا)، والتحق بالرهبانية الدومنيكية عام ١٩١٩م، ورسم كاهناً عام ١٩٢٥م، وخدم في كوردستان سوريا(=الجزيرة الفراتية) من عام١٩٣٣م لغاية ١٩٣٦م، برئاسة الأب الدومنيكي (فرنسوا درابيي). ألّف (توماس بوا) كتابه المهم: (الكورد والحق) باسم مستعار: (=لوسيان رامبو)، الذي نشر عام ١٩٤٧م، وترجم عام ١٩٧٤م إلى اللغة العربية. توفي (توماس بوا) في فرنسا عام ١٩٧٥م.

٤٥- في عام ١٩٢٨م، قتل ثلاثة من التجار اليهود في القرى المحيطة بمدينة (زاخو)، وهم كل من: آشر، ويوسف، وجمعة، وكانت لهذه العملية تداعيات كبيرة على هجرة اليهود الكورد إلى (فلسطين)، فيما بعد.

٤٦- في سنة ١٩٢٩م، تم بناء (دير براني) (= مارا ايثالاها)، على يد الخوري (يوسف بهرو دهوكي)، بأمر من مطران أبرشية زاخو: (بطرس عزيز).

٤٧- في سنة ١٩٢٩م، فتحت الأخوات الكاترينيات ديراً ومدرسة أولية في قرية (مار ياقو)(= قشفر)، وقد انصرفن إلى التعليم وتثقيف النسوة القرويات.

٤٨- في الخامس من شهر أيلول عام ١٩٣٠م، نشرت صحيفة (يونيفرس) اللندنية تقريراً، نقلاً عن السلطات الكنسية الكلدانية في العراق: أن قرى الكلدان في منطقة زاخو تعرضت وحدها خلال مدة ثلاثة أعوام فقط، لاثنتين وعشرين غارة، ذهب ضحيتها ثمانية عشر قتيلاً، وتم التمثيل بجثث ثمانية ضحايا، فضلاً عن خسارة ألف وثمانمائة رأس من الماشية.

٤٩- في ١٩٣١/١١/٢٢م، وافقت وزارة المعارف العراقية على منح الخوري (يوسف بهرو) إجازة فتح (مدرسة الطاهرة الأهلية) للكلدان المسيحيين، بصفين، في مدينة (دهوك). وتم تعيين (داود صليوة البهرو) معلماً للمدرسة المذكورة، في نفس السنة. وكان المذكور حاصلاً على شهادة الخامس الابتدائي من المدرسة الأميرية الحكومية في (دهوك).

٥٠- في ١٩٣٢/١/٣م، نقل مركز قضاء العمادية إلى قرية (أرادن/ نصارى)، على أن يبقى القضاء معروفاً باسم (العمادية).

٥١- في عام ١٩٣٢م، وصل الأب الدومنيكي: (يوسف كادار) إلى دير (مار ياقو) (=قرية قشفر) للخدمة هناك، وقد سبق له أن ابتاع قطعة أرض كبيرة قرب قرية (شيوز) (=شيزى) من السلطات العثمانية، لحساب الإرسالية الدومنيكية.

٥٢- في ١٩٣٢/٦/٦م، زار دهوك الميجر (العميد) البريطاني (تومسون)، بشأن الاطلاع على ملابسات قضايا إسكان الآثوريين في الأراضي المخصصة لهم، في منطقة (دهوك).

٥٣- في ١٢حزيران ١٩٣٣م، زار مدينة دهوك الصحفي البريطاني (المستر مارتن)، حيث قابل رؤوساء العشائر الآثورية، ومدير مركز ناحية دهوك: (لازار أفندي)، ومعاون شرطة دهوك: (عزرا وردة).

٥٤- في ١٩٣٢/٦/١٥م، عقد البطريرك (مار شمعون) اجتماعاً مع ملوك العشائر الآثورية، في جبل عمادية، وتقرر في هذا الاجتماع اعتبار مناطق (دهوك، وزاخو، والعمادية، وعقرة)، سياسياً وإدارياً، منطقة آثورية خالصة، تكون بموجبه مدينة (دهوك) عاصمة لها.

٥٥- في ٢١مايس ١٩٣٣م، قطع مقاتلو الآثوريين، بقيادة (الملك ياقو) أسلاك التلفون بين دهوك والموصل، واقتحموا مقر قائمقامية دهوك، وأمروا قائمقام دهوك: (مكي الشربتي) بالإفراج عن الآثوريين المعتقلين.

٥٦- في ١٩حزيران١٩٣٣م، سيطر حوالي ٢٠٠ مقاتل من الآثوريين، بقيادة (الملك ياقو)، زعيم عشيرة (تياري العليا)، على طريق دهوك – عمادية.

٥٧- في ١٩حزيران ١٩٣٣م، زار مهندس الري البريطاني: (المستر كولفن) (دهوك)، في طريقه إلى (دشتا زي) (=منطقة شيلادزي)، لعمل اللازم لإسكان الآثوريين في هذه المنطقة..

٥٨- في شهر تموز ١٩٣٣م، حشد الجيش العراقي قطعاته في منطقة قرية (بادي)، الواقعة على الطريق العام بين دهوك وزاويته، وشرع في إجراء تمارين عسكرية، كورقة ضغط على الآثوريين المتمردين على الحكومة الملكية العراقية.

٥٩- في بداية شهر آب ١٩٣٣م، جرت معارك بين الجيش العراقي، وبين المقاتلين الآثوريين، في منطقة فيشخابور وديره بون، سقط على إثرها عدد من الضحايا من الجيش العراقي، وامتدت هذه المناوشات إلى منطقة (سميل)، حيث حدثت مجزرة فيها بحق المدنيين الآثوريين، سقط فيها عدد كبير من الضحايا من أبناء العشائر الآثورية، كانت محل استنكار الجميع: حيث قامت العديد من العشائر الكوردية والعربية، بعمليات سلب ونهب للقرى الآثورية القريبة من منطقة الأحداث. ولولا تدخل العديد من شيوخ وآغوات الكورد، لكانت تحدث أعمال لا تحمد عقباها.

٦٠- في شـــهر آب ١٩٣٣م، هـــاجم بعض أفراد القبائل الكوردية دير (مار ياقو)، بقصد الاستيلاء على الممتلكات، فهرب من الدير الأب الدومنيكاني الفرنسي (توماس بوا)، رئيس الدير، قاصداً (الموصل)، بعد أن بقي فيها حوالي ست سنوات. بعدها غادر إلى (ســوريا)، للعمــل هنــاك في منطقــة الجزيرة(=كوردستان سوريا).

٦١- في ١٩٣٥/٦/١٥م، اجتمــع مــا يقارب (٣٠٠٠) يهـودي، عنـد قـبر النبـي (ناحوم)، في غرب قصبة (القـوش)، الواقعـة شمال مدينة (دهوك)، لأداء واجب الزيـارة، التي استمرت ثلاثة أيام.

٦٢- في ١٩٣٥/٦/١٨م، قـدم ثمانيـة يهود من أهالي قرية (جوجر)، التابعة لناحيـة العشائر السبعة(= قضاء برده رش)، وهم من أسرة واحدة، أمـام قاضـي عقـرة، وأشـهروا إسلامهم.

٦٣- في ١٩٣٨/٦/١٢م، قتـــــــل المنصّر(= المبشّر) الأمريكي (روجر كمبرلند) (=كمبلان) علـى يـد (سـليم مصـطفى آغـا بيسـفكي الدوسـكي)، الملقـب بــ (سـليمى مصـتىَ)، في قصـره، الواقـع جنـوب غـرب دهوك (=قصرا كمبلاني)، التي تشـغلها الآن دائـرة صـيانة الاتصـالات، بسـبب فتـوى أصدرها علماء المسلمين في دهوك، تؤكد بأن (كمبرلند)، الأمريكي الجنسـية، ومـن أتبـاع المـذهب المشـيخي البروتسـتانتي، يحـاول ردّة المسلمين إلى المسيحية.

٦٤- في ١٩٤١/٢/١٢م، قـام (تيلـي كَـردى ئيكمـالي)، أحـد وجهـاء عشـيرة الدوسكي، ومعـه ابـن عمـه (رشـيد صـديق كِندل)، بقتل سبعة من يهود (قرية صندور)، وهـم كـل مـن : الحاخـام مُردَخـاي، وابنـه موشي المختار، موشي المعلم من قرية مـيري، شيكو، يوسف، شاباتاي، وجمعة" بسبب اتهام يهود (صندور) بقتل شـقيق (تيلـي مصـطفى كَردي)، أثناء وقوع مناوشة ليليـة في منطقـة ميدان، الواقعة غرب قرية صندور، وجنـوب شرق قرية إكمالـه، في سـنة ١٩٣٧م. وقـد أصبح (تيلـي)، وابـن عمـه، مطلـوبين لـدى السلطات الملكية العراقية بتهمة قتل اليهـود، ولكن يهود (قرية صندور) عفوا عنهم، ومـع ذلك فقد اتهم (تيلي كَردي) بأن له ضلعاً في قتل كاهن (قرية بارزانكى) (= القس وردة)، الواقعة غرب قصبة (بـامرني)، بالتعـاون مـع (سليم مصطفى بيسفكي). وفي الأخير، تمكن (سعيد آغا الدوسكي) من أخذ العفو له، فتم اعتقالـه لـمدة ثلاثـة أشـهر، في (العماديـة)، وبعدها أطلـق سـراحه. وفي سـنة ١٩٤٩م، بدات أعداد كبيرة من يهود منطقـة بهـدينان بـالهجرة إلى (فلسـطين)، واسـتمرت هـذه الهجرة إلى سنة ١٩٥١م، ولم يبق مـن يهـود دهوك غير المدعو (بصلو)، وعندما مات دفنه

مسيحيو دهوك في المقبرة العائدة لليهود، الواقعة مقابل جامع (محلة شيلي).

٦٥- في ٣/ ١٩٦٨/١١م، قامت مجموعة مجهولة باقتحام دار (منصور حنا ساوا)، الملقب بـ(منصور شله)، في (محلة النصارى) في (دهوك)، والطلب منه تزويدهم بمبلغ ٣٠٠ دينار. فلما رفض ذلك قتلوه بدم بارد، ولاذوا بالفرار إلى جهة مجهولة. وقد أثارت حادثة قتله استنكار أهالي دهوك، وبدوره اتصل البابا (بولص السادس) بالرئيس العراقي الأسبق (أحمد حسن البكر) طالباً حماية المسيحيين، وتم الإيعاز إلى قيادة الفرقة الرابعة في الموصل، للإيعاز إلى اللواء الثامن عشر، لحماية المسيحيين في دهوك. وقد تعهد (ديوالي آغا الدوسكي) بحماية المسيحيين الساكنين في محلة النصارى، عن طريق إرسال مفرزة من رجاله المسلحين (=الفرسان)، بقصد الحماية، ومراقبة مداخل المحلة، لمنع التسلل إليها ليلاً. ومن الجدير ذكره، أن (منصور ساوا) هو جد الفنان المشهور (جنان ساوا)❒

وللآراميين تأثير واسع وكبير في تاريخ الشرق الأدنى القديم، على الأصعدة السكانية والحضارية واللغوية، حتى أن الآرامية أصبحت لغة المراسلات الدولية، فضلاً عن أن أغلبية سكان الهلال الخصيب غدو يتكلمون بها، ناهيك أنها لغة المسيح عليه السلام، وأتباعه..

المثاقفة الذاتية وأثرُها في تعزيز العمليّة التعليميّة

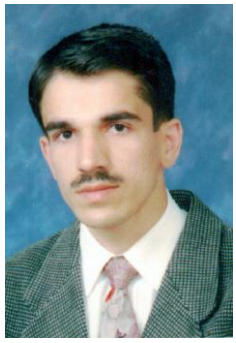

سعد الزيباري
Saadsuhaib@yahoo.com

لا جرم أنّ تفعيلِ الثقافة الذاتيّة بين شرائح المجتمع كافّة من أبجديّاتِ تطوُّر المجتمع المعاصِر ورُقيِّه، والتثقيفُ الذاتيُّ يقعُ على عاتقِ المؤسّساتِ الثقافيّة الّتي تضطلعُ بإنتاجِ الفكرِ النيِّر والثقافة الواعية في تلافيف الوعي الجمعيّ، وتعملُ على نشرِ الوعي الحضاريّ في قلبِ حركةِ المجتمع النّاهِض، وبثِّ أولوياتِ الثقافة العمليّة في النسيجِ الاجتماعيّ، لينهضَ كُلّ فردٍ بدورِه في عمليّة البناءِ الحضاريّ المنشود عن طريقِ التثقيف الذاتي، وتوجيه الدّوافِع توجيهاً سليماً، وتحفيز الرّغباتِ تحفيزاً صحيحاً، فالإنسانُ ظاهِراً هو مِرآةُ دوافعِه باطِناً، و"يكونُ الإنسانُ كما تكونُ دوافِع رغباتِه العميقة، وكما تكونُ رغباتُه تكون إرادتُه، وكما تكونُ إرادتُه تكونُ أفعالُه، وكما تكونُ أفعالُه يكونُ مصيرُه"(١). فالدوافع العميقة هِيَ الّتي تحرِّك نوازع الفرد، والرغبات هي الّتي توجِّه إرادتَه، والإرادةُ هي الّتي تكوِّن أفعالَه، والأفعالُ هِيَ الّتي تشكِّل مصيرَه النهائيّ، فإذا كانتِ القراءةُ هي الرّغبةُ الّتي تملأ أقطارَ قلوبِنا، وجّهَتْنا إرادتُنا إلى القيامِ بفعلِ القراءةِ المستمرّة، والقراءة الصّحيحة المثمرة هي الّتي ستحدِّد مصيرَنا، و"إذا كانتِ القراءةُ أهمَّ وسيلةٍ لاكتسابِ المعرفةِ، وإذا كان اكتسابُ المعرفةِ أحدَ أهمِّ شرُوطِ التقدُّم الحضاريّ، فإنّ علينا ألاّ نبخلَ بأيِّ جهدٍ يتطلّبُه توطينُ القراءةِ في حياتِنا الشخصيّة، وفي حياةِ الأُمّةِ عامّةً، فالمسألةُ ليستْ كماليّةً ولا ترفيهيّة، وإنّما هي مسألةُ مصير"(٢). ومِنْ هُنا فإنَّ "القراءةَ تستحِقُّ مِنَ

الحكومـاتِ الاهتمـام بهـا بدرجـةٍ تعـادِلُ الاهتمام بقضايا الزراعة أو الصِـحّة أو البيئـة أو الرياضة أو غير ذلِك"([٣]).

ومن أجلِ إشاعة ثقافة القـراءةِ علينـا أن نوجِّه الدوافعَ نحو القراءة المثمرة، وتكوين عادة القراءة الواعية، و"إنّ عادةَ القراءةِ لـن تتكوّن لدى الإنسان إلاّ عندما يشـعرُ بشـيءٍ مِنَ المتعةِ واللّذة عندَما يقرأ، وهذا لن يكـون إلاّ حينَ تكون القراءة عبـارةً عـن نـوعٍ مِـنَ الاكتشاف، ونوع من تنميةِ العقـل، وتوسـيع قاعـدة الفهـم"([٤]). والفكـرُ الإنسـاني ينمـو ويتطوّر بالقراءة والتثقيف، ولهذا قال العقّاد: "الكُتُب طعامُ الفِكْـر، وتوجـدُ أطعمـةٌ لِكُـلِّ فكر، كما توجدُ أطعمةٌ لِكُـلِّ بنيـة"([٥])، بهـا يتـأثّرُ الفكـرُ صِـحّةً وفسـاداً، واسـتقامةً واعتلالاً([٦]).

تكوين عادة القراءة وتأصيلِها:

ولا غَرْوَ أنّ "تكـوين عـادة القـراءة لا يكـون إلاّ عـن طريـقِ الممارسـة والتمـرُّن، والتمـرُّن مـع الوقـتِ يُنـتج الكمـالات، والبدايات دائماً شاقّة لكن لا بُدّ منها، وأشقُّ الخطواتِ هِيَ الخطوةُ الأُولى الّـتي بهـا يخـرُج العمـلُ إلى حيِّـز الوجُـود بعـد بـذلِ الجهـدِ والمثـابرة([٧])، "والاعتبـارُ بكمـال النهايـة لا بنقصِ البداية"([٨]). و"مبدأ كُـلّ عِلْـمٍ نظـريّ وعَمَلٍ اختياريّ هو الخواطِر والأفكـار، فإنّهـا تُوجِـب التصـوّرات، والتصـوّرات تـدعُو إلى الإرادات، والإرادات تقتضِي وقُـوع الفعـل، وكثرة تَكراره تُعطِـي العـادة. فصـلاحُ هـذهِ المراتِب بصلاحِ الخواطِر والأفكار، وفسـادُها بفسـادِها"([٩]). ومِـنَ المقترحـاتِ في اغتنـامِ الوقت أنْ نخصِّصَ ساعةً مُعيّنة كُلّ يوم نمارِسُ فيهـا فعـلَ القـراءة، ويجـب أن تكـون هـذهِ السّـاعة إلزاميّـة، بحيـث لا نسـمحُ لأحـد بالدّخُول فيهـا، أو تضـييعِها، ولـتَكُنْ في أوّل الأمرِ دقائق معدودات مُرتّبة كُلّ يوم، ثمّ مـا نلبـثُ أن نزيـدَها، فنجعلَهـا زهـاء سّـاعاتٍ مُحدّدة، لكن لا بُدّ مِنَ الالتزامِ التّام بالوقـتِ المخصّص للقراءة([١٠])، وهذا الوقت يمكن أن يكون وقتاً قصيراً بمعدّل ساعةٍ أو رُبـع سـاعة من الوقت يوميّاً، قبل الخلود إلى النّـوم، وأن يلتزم بهذا الوقتِ التزاماً تامّاً لا يتخلّف عنـهُ أبـداً، حتّـى في أصـعبِ الظـرُوف وأحلـك المواقِف.

ومن السابقِ لأوانه أنّ نؤكّـد هنـا أنّ تكوين هذهِ العادة وتأصيلَها يحتاجُ إلى اقتنـاء الكُتب الجدية، وتخصـيص الوقـت المناسـب، وبالتالي تهيئـة جـوٍّ القـراءة، والمعـروف "أنّ هنـاك ارتباطـاً وثيقـاً بـين إمكانيّـة الفهـمِ والاستيعابِ وبـينَ الأجـواء والأوضـاعِ الّـتي تجـري فيهـا عمليّـة القـراءة"([١١]). فمكـانُ القراءةِ يجب أن يكـون هادِئـاً ومُرتّبـاً بحيـث يُتيح لنـا القـدرة علـى قـراءةٍ ملؤهـا التأمّـل والتعمّق والتفكّر والتركيـز. وأفضـلُ أنـواع القراءة هي "القـراءةُ الّـتي تكـونُ مـن أجـلِ توسيعِ قاعدةِ الفهم... إنّ القـراءةَ مِـنْ أجـلِ

الفهمِ، هي تلك القراءة الّتي تستهدِفُ امتلاكَ منهجٍ قويم في التّعامُل مع المعرفة، وتكسِبُنا عاداتٍ معرفيّةً جديدة، وتلك الّتي تزيدُ في مرونتنا الذهنيّة، كما تنمي الخيالَ لدينا، وتجعلُنا نرسمُ صُوراً للأحداثِ والأشياء"([١٢]).

الأُسرة ودورها في تكوين عادة القراءة:

مِمّا لا شكّ فيه أنّ المحيطَ الأسريَّ يمثِّلُ عاملاً جوهريّاً في تكوين عادة القراءة وتنميتها عند الطِّفل الّذي يُمثِّلُ صفحةً بيضاءَ وأرضاً خصبة معطاء، وقد بيَّن ذلكَ الإمام عليّ (كرَّم الله وجهه) في وصيته الشّهيرة لابنهِ الحسن (رضي الله عنه): "وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيءٍ قَبِلَتْهُ"([١٣]). فالكثيرُ مِنَ القُرّاء قدِ ارتبطُوا بعالَم القراءة، وانجذبُوا لسحرِ الكلمةِ، وذلكَ لوجُودهم في أُسَر تحتضِنُ الكُتُب، ولا تستطيعُ على فراقِها صبراً! ومن هُنا يمكن القول بأنّ دورَ الأُسرة في هذا المجال هو دورٌ حيويّ وخطير إيجاباً أو سلباً, ونحنُ غالباً ما نجدُ شخصيّاتٍ علميّةً ودينيّةً قَدْ خرجتْ مِنَ الأُسر المشهودِ لها بالعِلْمِ والمعرفة. وهذا معلومٌ ومشهُود بالاستقراء والملاحظة في سير رجالاتِ العِلْم والفِكْر والدِّين([١٤]). فما أحرى بنا أنْ نُلِّون نفسَ الطفلِ تلكَ الصفحةَ البيضاء، بترويضِه على عادةِ القراءة منذ الصغر([١٥])، "فَمَنْ شبَّ على شيءٍ شابَ عليهِ"، و"التربيةُ في الصِّغَر كالنّقْشِ على الحجر، والتربيةُ في الكِبَر كالنّقْشِ على السّدَر".

والطفولةُ هي أفضلُ مراحِل تكوينِ عادةِ القراءة. والقراءةُ كعادةٍ لا تُولَد مع الإنسان، بَلْ لا بُدّ من إنمائِها وغرسِ بذورها فيه منذ نعومةِ أظفارِه، ولا يخفى ما للأُسرةِ مِنْ أثرٍ فاعِلٍ في شخصيّة الطفل، سلباً أو إيجاباً، ومِنَ المعلُومِ أنّ المراحِل الأُولى الّتي يمرُّ بها الطِّفْلُ هي مرحلةُ المحاكاة وتقليد الآخرين، وهو لأفرادِ أُسرتِه، وخاصّة والدَيْهِ أكثرُ تقليداً ومحاكاة([١٦]). ومن هُنا تأتي أهميّةُ وجُودِ القدوة القارئ أو القارئة للطِّفْلِ داخِلِ الأُسرة، فإذا فتحَ الطِّفْلُ عينيهِ على الحياة، ورأى أُمّه أو أباهُ أو أحدَ إخوانِه أو أخواتِه مُحتضِناً كتاباً يقرأُ فيهِ بينَ الفينةِ والأُخرى، فإنّ تلكَ الصُورة لَنْ تغيبَ عنه أبداً، وسيعملُ عاجِلاً أو آجِلاً على محاكاتِها([١٧]). ويرى الطِّفْلُ أنّ ما يقومُ بهِ الأب، إنّما هو العِلْمُ الأنموذجيّ الّذي يجب أنْ يحتذي به، لذلكَ فهو يرى أنّ تصرّفاتِ أبيه كُلّها صحيحةٌ، ولا بأسَ في تقليدِها، ويشعرُ أنّهُ سوفَ يلقي استحساناً بذلكَ من لدن أبويهِ ومُجتمعِه([١٨]). فالأبناءُ - كما هو معلُومٌ - يُحاكون ويُقلِّدُون آباءَهُم وأُمّهاتِهم، فيما يُمارسُون مِنْ أمُور، لذا ينبغي على الآباءِ أنْ يحتضِنُوا الكِتابَ جيِّدًا، ويُقَلِّبُوا أوراقَهُ بنعُومةٍ وعناية، ويُقْبِلُوا على قراءتِه بنهم وشغفٍ واهتمام، وبهذهِ الكيفيّة يمكنهم اجتذاب

أبنائِهم نحو الكُتب، وتعويدهم على القراءة[١٩]. وصدق الشّاعِر أبو العلاء المعرِّي (ت٤٤٩هـ) حين قال:

وينْشأُ ناشِىءُ الفِتْيانِ، مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

العطشُ المعرفيُّ وظاهرة القراءة السّريعة:

ولكي نواكِبَ الطفراتِ العلميّة والحضاريّةَ علينا أن نسرِّع من وتيرةِ القراءة، فالمعلُوم "أنّ المعرفةَ تتضاعَفُ كُلَّ خمسِ عشرةَ سنة – على أبعدِ تقدير – وهذا يعني أنّ الكُتُبَ المنشورة تتحدّى القُرّاء، وتتطلّبُ منهم المزيدَ مِنَ الاستعداد، والمزيد مِنَ الوقتِ مِنْ أجلِ تحقيقِ الاستفادة القُصوى. فلو قُدِّرَ للمرءِ أنْ يقرأَ في حياتِه ستينَ سنة، وقرأَ في كُلِّ أسبُوع كتاباً، فإنّهُ يكونُ قد قرأَ نحواً مِنْ ثلاثةِ آلافِ كتاب، وهو رقمٌ مُتواضِع جدّاً بالنسبةِ إلى ما هُو منشور"[٢٠]. وما أحرى بنا أنّ نشير هُنا إلى مدى العطش المعرفيّ الّذي كان يتمتّعُ به ابنُ الجوزيّ، ذلك العطش الّذي وصفه بقولِه: "وإنّي أُخْبِرُ عَنْ حالي: ما أَشْبَعُ مِنْ مُطالعةِ الكُتُب، وإذا رأيْتُ كِتاباً لَمْ أرَهُ، فكأنّي وقعْتُ على كَنْز... ولَوْ قُلْتُ: إنّي طالعتُ عِشْرينَ ألفَ مُجلّدٍ، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطّلَب"[٢١]. ونظرة إلى تراثِنا الفكريّ والمعرفيّ تطلِعُنا إلى هذا التعطّش المعرفيّ للقراءة، وكان قوّتُه الدّافِعة: حبُّ الاستطلاع والمعرفة والاستكشاف، وقد سُئل عبدالله البخاري عن دواءٍ للحِفْظ، فقال: "إدمانُ النَّظرِ في الكُتُب". وقال "فنست ستاريت": "عندما نجمعُ الكُتُب فإنّنا نجمعُ السعادة". على أنّهُ ينبغي التنبُّه إلى أنَّ العِبْرةَ بالفهمِ والاستيعاب لا بكثرةِ الصّفحاتِ وإنهاء المجلّدات، وكثيرُون أولئكَ الّذين يعانون من سوءِ الفَهْمِ نتيجةً للسُرعةِ المفرطة في قراءتِهم[٢٢].

العلاج بالقراءة أو الببليوثيرابيا:

كان المصريُّون قديماً يقولون إنّ: "المكتبةُ طِبُّ النّفُوس"[٢٣]. فالقراءة منذ فجر التّاريخ كانت وسيلةً مِنْ وسائِل العِلاج، وقد عُرفَ حديثاً – وذلك في سنة ١٩٣٨م تحديداً – بـ"Bibliotheraby/ الببليوثيرابيا" أو العِلاج بالقراءة، ويتمثّل في "عِلاج المريض مِنْ خلال قراءاتٍ مُختارة"[٢٤]. ولا شكّ أنّ "العِلاجَ بالقراءة مِنْ شأنِه أنْ يعملَ على تهذيبِ سلُوكِ الإنسانِ والارتقاءِ به لأن يكون عُنْصراً فاعِلاً في خدمةِ مُجتمعِه، وذلِكَ بعدَ تزويدِه بالمعلُوماتِ الكفيلةِ بتغييرِ تفكيره وسلُوكِه الخاطئ"[٢٥]. وقد ثبتَ علميّاً "أنّ القراءةَ الهادِفة المنتظمَة لها مردودٌ إيجابي، ويسهمُ في تحسينِ الوضع الصحيِّ والسلُوك الشخصيّ بشَكْلٍ فعّال. وقد أظهرتِ الدِّراساتُ في هذا المجالِ أنَّ هُناكَ إمكانيةً لتبديدِ حالات الإحباط بتأثير ما يُزوّد به الأشخاص من شحناتٍ روحيّة عالية جرّاء انتياب حالةِ الشعُورِ بالانتشاء والاستمتاعِ القِرائي

المكتسَب مِنْ معارفِ الموادِّ المقروءة، وبالتالي تهيئة النفُوس لمواجهةِ مُشكلاتِ الحياةِ ومُنغصّاتِها، ووضعِ الحلُول المقبُولة لها، وهذا ما يُطلق عليه العلاج بالقراءة"([٢٦]). وقد أكّد الخبيرُ في هذا المجال الدكتور شعبان خليفة، بقولِه: "إن المؤمنين يُدْركون تمامَ الإدراك أنَّ الله سبحانه وتعالى يعرفُ النّفْسَ البشريّةَ، ويُحيط بها، لأنّهُ الخالِق لمخلُوقاتِه، والعليمُ بما يحتاجون إليه، قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾([٢٧])، لذا فإنّ الباري – عزّ وجلّ – عندما يصف هذهِ النّفْسَ ويبيِّنُ علاجها، فإن هذا العلاج هو العلاجُ الشافي والكافي لها. وشرط التداوي بالقرآن الكريم هو الإيمان بما ورد فيه، والاعتقاد في قدرةِ آياتِه على الشِفاء حين تُتلى في موضعها الصّحيح([٢٨]). قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾([٢٩]).

القراءة التحليليّة فيما وراء النصوص:

وما نريدُه هو القراءة التحليليّة فيما وراء النصُوص، والّتي ترفعُ درجةَ الفهمِ وتعمِّق الإدراك وتوسِّع المدارك، "فالنصُّ قد صارَ يُنْظَر إليهِ اليوم على أنّهُ أشبهُ بحدثٍ مؤجّل التحقّق، وخارج دائرة الإنجاز، ما لم تتمّ قراءتُه"([٣٠]). فالنصُّ الجيِّد هو النصُّ الّذي يشتمِلُ على فراغاتٍ معرفيّة، وملء هذهِ الفراغات مِنَ الآن فصاعِداً صارَ مِنْ مُهمّةِ القارئ الجيِّد، وحينَ يشرَعُ القارئ في سدِّها تبدأُ رحلةُ التّواصُل بينَهُ وبينَ الكاتِب([٣١]). فالقراءةُ القائمة على الفهمِ والاستيعابِ مِنْ أشقِّ أنواعِ القراءة وأكثرِها فائدة، لأنّ فيها تحسيناً لفهمِ القارئ والارتقاء بمستواه نحو أُفق الكتاب والمؤلِّف([٣٢]).

وعليهِ فالمثابرةُ على القراءةِ، والحماسةُ في مُتابعتِها سمةٌ مهمّة مِنْ سماتِ القارئ الجيِّد... والقارئ الذي يعتقدُ أنّهُ بقراءتِه شيئاً نافِعاً، إنّما يكونُ في عبادة مِنْ أعظمِ العِباداتِ، لا بُدّ أن يندفعَ بقوّة إلى امتلاكِ روحِ الدّأبِ، وينبجسَ في نفسِه وَلَعٌ بالقراءةِ والاطّلاع. وغيابُ هذا الشعُور كان ذا أثرٍ كبيرٍ في عزُوفِ كثيرٍ مِنَ النّاسِ عنِ اصطحابِ الكتابِ ومُعاناةِ قراءتِه([٣٣]). إنّ كثيراً مِنَ النّاسِ لا يحتاجُ إلاّ إلى الشرارةِ الأُولى حتّى يبدأَ مسيرةَ القراءة، وبعدَ ذلِكَ سيُؤدِّي التّراكُم المستمرّ لمعلُوماتِه إلى إحساسِه بمباهِج المعرفة، وسينمي ذلِكَ فيهِ الشعُور بالثقةِ والاعتزاز، وسيمثِّلُ كُلّ ذلِكَ الوَقُود المطلُوب لمتابعةِ رحلةِ القراءة([٣٤]). وما يثيرُ حبَّ القراءة لدى الإنسان هو أنْ "يجمعَ القارئ ما يشدُّ انتباهَهُ، ويقعُ في نفسِه موقِعاً جميلاً مِنْ قاعدةٍ جامِعة وقصّة مؤثِّرة وحُكْمٍ مهم كان يبحثُ عنه ولمحةٍ تربويّة، فتجتمِعُ لديهِ بعد حين حصيلةٌ ثمينةٌ وكنزٌ نفيس من هذهِ الفوائِد، فإذا جمعها وفهرسها تكوّن عنده سِفْرٌ ضخم كُلّما نظرَ فيه استأنس به واستطعمَ مذاقه، وهُناك عددٌ مِنْ مُصنّفات العُلماء هي عبارةٌ عن فوائِد حصلتْ لهم أثناءَ

الطّلَب والبحث والقراءة جمعُوها وكتبُوها أو خواطِر قيّدُوها ودوّنوها. ومِنْ ذلِكَ كتابُ "بدائع الفوائد" لابن القيم، و"صيد الخاطِر" لابن الجوزي"([٣٥]).

نريدُ أنْ نفتحَ العالَم ونحنُ لا نفتحُ الكتاب:

فلا نغالي إذا قُلنا إنّ "المجتمعَ الّذي يتنافَسُ أفرادُه على شراءِ الكُتُب، لا بُدَّ أنْ يتفوّقَ على المجتمعِ الذي يتنافَسُ أفرادُه على شراءِ الهواتِف النقّالة"([٣٦])! هذا هو الحكمُ الصحيح على المجتمعات، ولهذا، قيلَ لأرسطو: كيفَ تحكمُ على إنسان؟ فأجابَ: أسألهُ كَمْ كتاباً يقرأ، وماذا يقرأ! ويُروى أنّ رَجُلاً كان يَتَبَخْترُ أمام سُقراط، مُتباهياً بجمال هيئتهِ وأناقةِ مظهرِه، فقالَ لهُ سُقراط: تكلّم حتّى أراك! وقال بن جونسون: "اللّغةُ هِيَ أكثرُ ما يُظْهِر المرء، فلتتكلّم حتّى أراك". فقيمةُ الإنسان في مخبره وليسَ في مظهره، ورُقي الأمم في رُقي الكتبِ التي تقرأها، وهذا ما أكّدهُ "نزار قبّاني"، بقولِه: إذا أردتّ أنْ تعرفَ رقيَ أُمّةٍ فانظرْ إلى الكتُبِ التي تقرأها! ففي الدولِ العربيّة أكثرُ الكتُبِ مَبيعاً هِيَ كتُبُ الطّبخِ وتفسيرِ الأحلام، وهذا دليلٌ على أنّنا أمّةٌ تأكلُ وتنام! وفي هذا المعنى قال الدكتور علي الوردي: "أُمّةٌ تأخذُ دينَها من مُفسِّري الأحلام هي قطعاً أمّةٌ نائمة"!

فهناك فرقٌ شاسع بينَ أُمّةٍ مشغُولةٍ بتفسيرِ الأحلام وبينَ أُمّةٍ مشغُولةٍ بتحقيقِها!

وهناكَ بَوْنٌ واسِع بين مجتمعٍ يَزْدري القراءةَ، ويسخرُ مِنَ القُرّاء، وقد لا يرى أفرادُه المكتبةَ طيلةَ حياتِهم، وبينَ مُجتمعِ القراءَةُ ديدنُه، والكتابُ أنيسُه، والمكتبةُ صومعتُه! فالحضارةُ كامنةٌ في القراءة؛ لهذا كانتْ أوّلُ كلمةٍ أُلقي على رَوْعِ الرسُولِ الكريم (عليهِ الصّلاةُ والسّلام) هِيَ كلمةُ "اقرأ"، فبالقراءةِ تتوسَّعُ آفاقُنا، وتتعمَّقُ أفكارُنا، وتسمُو مداركُنا، وتتحرّرُ إراداتُنا، فـ"القراءةُ فعاليّةٌ نظرَ إليها الحاكِمُون بعينِ الفتُور دائِماً. لم يأتِ مِنْ قبيلِ الصُدفةِ تمريرُ القوانين ضِدّ تعليمِ العبيد القراءةَ في القرن التّاسع عشر، حتّى قراءة الكتاب المقدّس، فَمَنْ يستطيعُ أنْ يقرأَ الكتابَ المقدّس، سيتمكّن أيضاً من قراءةِ كُرّاسٍ يدعُو إلى إلغاءِ الرقّ. إنّ الجهود والحِيَل التي اجترحها العبيدُ ليتعلّمُوا القراءةَ، بُرهانٌ دامِغ على العَلاقةِ بينَ الحريّة المدنيّة وسُلطة القارئ، ودليلٌ على الخوفِ الّذي تثيرهُ تلكَ الحريّة وتلكَ السُلطةِ في نفُوسِ الحُكّام على ضروبهم كافّة"([٣٧]). وليسَ بخافٍ على أحد "أنّ الحُكّام الدكتاتوريِّيْنَ يخافُون الكُتُب أكثرَ مِنْ أيِّ اختراعٍ بشريّ آخر على الإطلاق. ولذا نرى أنّ القُوّة المطلقة لا تسمحُ إلاّ بنوعٍ واحِد مِنَ القُرّاء فقط، أي النوع الرّسمي. وبدل المكتباتِ الكامِلة الحافلة بالآراء المتنازَعة لا يُراد الإبقاء إلاّ على كلمةِ الحاكِم بأمره"([٣٨]). كتبَ فولتير: الكُتُب "تُشتِّتُ الجهل، هذا الحارِس

الأمين والضّامِن الحريص للدُّولِ ذاتِ الأنظمة البوليسيّة"([٣٩]). هذا، وقد سُئِلَ فولتير أيضاً عَمَّن سيقودُ الجنس البشريّ؟ فأجاب: "الّذين يعرفُون كيفَ يقرأون"!

التعليم هي الوسيلةُ الأساسيّة للتقدُّم:

هذا؛ وقد نظرَ "كوندرسيه" إلى التعليم على أنّهُ الوسيلةُ الأساسيّة للتقدُّم، لأنّهُ يقومُ على تربيةِ العقلِ، وتفجيرِ طاقاتهِ في الكشفِ عن قوانينِ الطبيعة، كما يقومُ على إرساءِ أرضيةٍ للتنافُسِ الاجتماعيّ على أساسِ الأهليّة العقليّة، تفتحُ البابَ أمامَ الجميعِ لتحقيقِ المساواةِ والعدالة، وتكافؤ الفُرَص. باختصارٍ كانتْ قيمةُ التعليمِ كُلّها نابعةً مِنْ فكرةِ الحُريّة الّتي يُعطيها للفردِ وللمجتمع، وهو رمزُ هذهِ الحريّة التي تقفُ على طرفٍ نقيض مِنْ نظامِ الطوائِف والطبقاتِ المغلقة والثابتة الّتي قامَ عليها النظامُ الإقطاعيّ. ولأنّ التعليمَ هُوَ الحُريّة، فهو أيضاً وبالضرورةِ أصلُ التقدّم وقاعدته([٤٠]). لذا، فما أحرى بنا أن نجعلَ فِكْرَنا مُضيئاً بشعلةِ القراءة وزنادِ التفكير! حتّى تتوسّعَ أفكارُنا، وتضيقُ عباراتُنا من غيرِ فائدة، ولهذا قال النفريّ: "كُلّما اتّسَعَتِ الفكرةُ ضاقتِ العبارةُ". فالقراءةُ – بعبارةِ جون لوك – تزوِّدُ عقولَنا بموادِّ المعرفةِ فقط، ولكنّ التفكيرُ هُوَ الّذي يجعلُنا نملكُ ما نقرأهُ.

ومن يريدُ معرفةَ نفسهِ فليفتحْ كتاباً، والكتابُ الجيِّد هو الّذي يُحَفِّزُنا إلى العمل. فـ"اجعل ما في كتُبِكَ رأسَ مالِكَ، وما في صدرِكَ للنفقة"، والقراءةُ – بتعبير بنجامين فرانكلين – تصنعُ رَجُلاً كاملاً، والتأمّلُ رَجُلاً عميقاً، والمحادثةُ رَجُلاً واضحاً. هذا، وقد قيلَ لسُقراط: أَمَا تخافُ على عينيكَ مِنْ إدامةِ النّظرِ في الكُتُبِ؟ قال: إذا سلمتِ البصيرةُ لم أحفَلْ بسقامِ البَصَر! فالكتبُ هي ثروةُ الدنيا المخبوءة، وميراث الأجيال والشعُوب، وهيَ إرثُ الإنسانيّة الأعظم، وهِيَ "الذاكرةُ الوحيدةُ المؤكّدة المستمرّة للفكر الإنساني"([٤١]). وهي وسيلةٌ للتفكيرِ الأصيل، ومُستودع المعرفةِ الرّصينة، ومعلِّمُ الإنسانِ الصّامِت، و"هو الجليسُ الّذي لا يُطْرِيكَ، والصّديقُ الّذي لا يُغْرِيك.. يُطيل إمتاعَكَ، ويَشْحَذُ طِباعَكَ"([٤٢]). ولا غَرْوَ أنّ "القراءة تُسْهِمُ بدرجةٍ كبيرة في صَقْلِ شخصيّة الإنسان، والارتقاء بطريقةِ تفكيره، ورسمِ واقعِه الاجتماعيّ، كما تسهمُ في تنميةِ الاتِّجاهاتِ والقيم المرغوب فيها لدى القرّاء"([٤٣]). وكلُّ هذا يدفعُنا إلى أنّ نعملَ سويّةً وبجد على نشرِ عادةِ القراءة وترويجِها بين أجيالنا الطّلبة الّذين يُعانون من مرضِ العزوفِ عن القراءة، ذلِكَ العزوفُ الّذي يمكن تعليله: بطُول المنهج الدراسيّ، ذلِكَ أنّ التفرُّغ الكُليّ للمنهج الدراسيّ لا يتيحُ للطّلبةِ وقتاً لممارسةِ القراءة الحُرّة، كما لا يوجدُ تعاون حقيقي بين البيتِ والمدارس لتعزيزِ هذه العادة، إضافةً إلى أنّ القراءةَ الحُرّة

لا تكون عادةً ضمن النشاطِ التعليميّ في المدارس ولا في الكُليّات، كما أنّ الطلبةَ نادراً ما يجدون مِنْ لدن مُدرِّسيهم التشجيع والتّحفيز على مُمارسةِ القراءة الحُرّة(٤٤). وهذا لا ينفي في الوقتِ عينهِ وجُودَ مدرِّسين أكفاء يهتمّون بالقراءة الحُرّة، ويُشجِّعون الطلبة على فعلِها، وهؤلاءِ المدرِّسُون هُمْ دائماً ما يكونُون على قَدْرٍ كبير مِنَ الثقافة والمعرفة(٤٥). وممّا لا شكّ فيهِ أنّ القراءة الحُرّة هي أهمُّ وسيلةٍ للاطّلاعِ على كُلِّ جديدٍ، ومعرفةِ كُلّ ابتكارٍ يحدثُ في هذا العالَم، فضلاً عن توسيع الاهتماماتِ الفكريّة والذاتيّة، وتحسين مُستوى الطلبة الدراسيّ(٤٦).

أزمة الكتب في عالم الإنترنت:

ولكنَّ الكتُبَ في عالمِنا اليوم أصبحتْ تندبُ حظّها؛ بعد أنْ تركها النّاسُ من أجلِ شبكاتِ التواصُلِ الاجتماعيّة التي تقتلُ الوقتَ والتفكيرَ معاً، ومن هنا وجبَ على القائمين بإدارةِ النظمِ التعليميّة إعادةِ النظرِ في المناهجِ التعليميّة، وتوجيهِ الطلبةِ إلى القراءةِ من جديد، لأنّها أسُّ التعليم الصحيح، وقبل ذلك لا بُدّ من إعادةِ الاعتبارِ للمعلِّم ومكانتهِ الاجتماعيّة، "فقد أصبح المعلِّمُ اليوم الأنموذج الاجتماعيّ الرديء، الفقير، المهزوم، الّذي يدفعهُ العَوَزُ، إلى مواقِف ومُمارسات، قد تزري بالقضية التعليميّة"(٤٧)، فالمعلِّمُون في بلادنا ببالغِ الأسى والأسف، قد أصبحُوا مِنَ الأصناف الّتي تستحقُّ الزكاة، ولهذا قيل: "ماذا تتأمَّلُ من مُجتمعٍ يكونُ فيهِ المعلِّمُ والمدرِّسُ والأُستاذ الجامعيّ مِنَ الأصناف الّتي تستحِقُّ الزكاة. إنّها همجيّةُ الاستخفافِ بالعِلْم". وتحضرُني في هذا المقام مقولة مهمّة لـ"براين غرين" مفادُها أنه: "حينَ يبدأُ أطفالُنا بالنّظرِ إلى العُلماءِ كقدوةٍ ومَثَلٍ أعلى كما ينظرُون الآن إلى المطربينَ والممثلينَ حينها فقط ستبدأُ حضارَتُنا بالتطوُّر نحو مرحلةٍ جديدة!"، أمّا إذا نظرُوا إلى عُلمائهم نظرةَ استخفافٍ وتهكّمٍ واستهزاء فإنّ العصُور الحجريّة ستكونُ في انتظارِنا على أبوابِ مُستقبلِنا الآجل، وخاصّة إذا عرفنا أنّنا أمّة تلبسُ مِمّا لا تنسج، وتأكلُ مِمّا لا تزرع، وتشربُ مِمّا لا تعصر! فنحنُ مجتمعٌ استهلاكيّ إلى درجةٍ أصبحنا معها عالةً على الكوكبِ الأرضيّ، نستهلكُ فقط دون أن نُنتج شيئاً لأبنائِنا وأحفادِنا.

الشهادة الجامعيّة والقيمة العلميّة والماديّة:

ليس سِرّاً أن نقولَ إنّ المعلِّمُ والمدرِّسُ والأستاذ الجامعيُّ بدأوا يشعرُون اليوم أكثر من أيّ يومٍ مضى أنه لم يعدُ لشهادتهم قيمة، وأصبحوا يتجرَّعُون تلك الحقيقة المرّة التي أُعلن عنها مُؤخّراً، وهي: أنّ "الشهادةَ الجامعيّة هِيَ الشيءُ الوحيدُ الذي دَفَعْتَ ثمناً باهِضاً مِنْ عُمرِكَ لأجلِها، والكارِثةُ أنّها لا تفيدُكَ بشيء"! لأنّ "الشهادةَ تحوّلتْ إلى شهادةٍ على البِطالة"(٤٨). نعم، يا لَلْكارِثة!

سنواتٌ من المشقّة والإرهاق، وسَهَرِ الليل والنّهار، ومُقاساةِ الحرِّ والبَرْد، وبذلِ الغالي والنفيس مِنْ أجلِ هذهِ الشهادةِ التي كُنْتَ تحلُمُ بها في منامِك، وتراها أغلى ما تتمنّاهُ في مسيرةِ حياتِكَ التعليميّة، ولكنّك تصطدمُ بصخرةِ الواقِعِ القاسية: الشهادةُ لم تَعُدْ ذات قيمة، بَلْ أصبحتْ شيئاً بالياً لا يُجدي نفعاً ولا يدرُّ مالاً! فلماذا إذاً، أركضُ وراءَ شهادةٍ لا تُطْعِمُ خُبْزاً، ولا تحسِّنُ وَضْعاً، نعم، لأجلِ ماذا أبذلُ قُصارى جهدي في سبيلِ شيءٍ جُرِّد من القيمةِ وانْتُزِعَتْ منهُ المكانة؟! والجواب: لأجل القيمة التي تمتلكها، نعم، لأجلِ هذهِ القيمة فأنت تبذل جُهدَك وتكابدُ فكرَكَ! فعلى أصحابِ الشّهاداتِ أنْ يُكافِحُوا مِنْ أجلِ قيمتِهم الضّائعة تحتَ دُولابِ القهرِ والاستعباد، وقد أرشدنا إلى هذهِ الحكمةِ عالِم الفيزياء الشهير "ألبرت أنشتاين"، حينَ قال: لا تكافِحْ مِنْ أجلِ النّجاح، بَلْ كافِحْ مِنْ أجلِ القيمة! فالقيمةُ العلميّة التي ينالها التدريسيُّون في درُوبِ العلمِ والمعرفةِ تكسبهم فخراً، وتمنحهم سُلطةً أعلى من جميع السلطاتِ، وإنْ جُرِّدوا مِنَ السُلطةِ الماديّة، وكيف لا وهُمْ يمثِّلُون حجرَ الزاويةِ في بناءِ المجتمعاتِ الإنسانيّة وتطوُّرها، هذا، "وإنّ جزءاً من شُهرةِ الجامعاتِ المعرُوفة عالميّاً تأتي مِنْ شُهرةِ الأساتذةِ الّذين يدرسُون فيها. لهذا، فإن توفيرَ أقصى ما يُمكن مِنَ التقديرِ والرفاهية للأساتذة الجامعيين فضلاً عن المعلِّمين قد حدتْ ببعضِ البُلدانِ الأوروبيّة إلى عدمِ تحديدِ راتبٍ شهريّ مُعيّن للمتميِّزين منهم، مهما بلغ هذا الرّاتِب، بل يجري تزويدهم بـ"شيكات" ليصرفوا ما يشاءون منها دون حِسَابٍ أو مُساءلة"(٤٩).

القراءة وأثرها في توعيه المجتمع:

لا جرمَ أن الضرورةَ الحضاريّة تستدعي العملَ على توعية البنى المجتمعيّة فكريّاً وثقافيّاً من خلالِ نشر فقهٍ حضاريّ بينَ أبناءِ المجتمع، وخاصّة بينَ الطبقةِ التّي تُسْهِمُ في العمليّة التعليميّة، أي تلك الّتي تعملُ في مجالاتِ التربية والتّعليم، لأنّ الثقافة الواعية المنضبطة تعدّ نقطة ارتكازٍ حضاريّة، تقومُ على أساسِها معالِمُ النّهضة الفكريّة والعمرانيّة، وتعملُ على تفعيل العناصِر المجتمعيّة وتثويرها من أجلِ ترشيد الإنتاج وتنميتِه. فالوعي الثقافي الرشيد هو الّذي يدفعُ العمليّة التعليميّة نحو التقدُّم، والنظريّاتُ التعليميّة الحديثةُ تقومُ على قاعدةِ "التثقيف الذاتي"، أكثر مِنَ "التعليم الآلي" المدرساني، وذلِكَ من خلالِ إعمالِ العقل وتنشيطِ فعاليّته، وتشغيلِه من خلالَ دراسةِ الكُتب ومُتابعة ما يجري في العالَم من مستحدثاتٍ أو طفراتٍ علميّة وإبداعاتٍ ثقافيّة، والاستفادة منها في المشرُوع الثقافي الطمُوح. والحقّ أنّ "القدراتُ الذاتيّة هي قدراتٌ ثابتة لا تزول، لأنّها ترتكِزُ على المعارِف، ومعرفة النّفس بالذات... إنّها تجذِبُ النّاسَ إليكَ، وتقرِّبُهم

منكَ، وتسوقُ لكَ الأشياءَ الّتي تريدُها. إنّها تُسْحِرُ النّاسَ، وتسوقُ المواقِف والظّرُوف لتعزِّزَ رغباتِك"([٥٠]). والسؤالُ كيف نتمكّن من تطبيقِ قانون الطّاقة الكامِنة المحضة وكيف نصلُ إليها؟ والجواب إنما نصلُ إلى حقلِ الطّاقة الكامنة خزّان الإبداع، مِنَ خلالِ الطّرُق الّتي تقودُ إليهِ، وهي: التدرُّب اليوميّ على الصّمْتِ والمناجاة، والتأمّل والتعمّق في الأشياء، وعدم الظنِّ بالآخرين أو اتخاذ الأحكامِ عليهم. "فلن أحكمَ على أمرٍ أبداً أيّاً كان الحدث"، وقضاء وقتٍ في الطبيعة، والتحادث معها بانطلاق وعفويّة([٥١]). فنحنُ عبرَ هذهِ الطرق نصلُ إلى العقلِ المبدع، المطلق، الفيّاض، الزاخر، السخيّ، الوافِر، الثريّ الّذي لا حدودَ له. وبعد ذلِكَ نصمِّمُ إمكانيةَ النشاط الحركيّ([٥٢]).

العطاء رمز الإنسان النّاجح:

من قوانين النجاح الإنسانيّ قانون الأخذ والعطاء، فالكونُ يعملُ من خلال التبادُل الديناميّ. والحياةُ في جريانِها، ليستْ إلاّ تفاعُلاً مُنسجِماً مع جميعِ العناصِرِ والقوى التي تنسِّقُ حقلَ الوجُود. هذا التّفاعُل المنسجِم للعناصِرِ والقوى في حياتِكَ يعملُ بوصفهِ قانون عطاء، لأنّ جسدَكَ وعقلَكَ والكون في تبادُل دينامي ثابت على الدّوام، فإيقاف تدفّق الطّاقة هو أشبهُ بإيقافِ تدفّق الدّم في الشرايين، وعندما يتوقّفُ الدّمُ عنِ التدفّق، يبدأ بالتخثّر والتجلّط، ليتجمّد ويتوقّف عنِ الحركة([٥٣]). فكلّما أعطيتَ أكثر، تلقيْتَ أكثر، لأنّكَ في هذهِ الحالة تحافِظُ على الوفرة في الكون المحيط في حياتِك([٥٤]). فأيُّ شيءٍ لهُ قيمةٌ في الحياةِ يتكاثرُ كُلّما أعطيته، وذلِكَ الّذي لا يتكاثرُ من خلالِ العطاءِ لا يستحقُّ العطاءَ ولا التلقّي. إذا شعرْتَ في فعلِ عطاءٍ أنّكَ خَسِرْتَ شيئاً، فإنّ هذهِ الهِبة لَمْ تُعْطَ في الحقيقة، ولا تسبّب أي زيادة، وإذا أعطيتَ بحقدٍ أو ضغينة، فلا طاقةَ وراءَ هذا العطاء([٥٥])! فالقَصْدُ من وراءِ الأخذِ والعطاء هو الشّيء الأهمّ. يجب أنْ يوجَدَ القَصْدُ دائماً ليُحْدِثَ حالةً مِنَ السّعادة عندَ المعطِي والمتلقّي، لأنّ السّعادةَ هِيَ مُساعِدٌ للحياةِ واستمرارها، ومِنْ ثمَّ تحدثُ الزيادةُ والعلاوة. عندئذٍ تنمو الطّاقة الكامنة وراء ذلِكَ العطاء وتتكاثر([٥٦]). لذا، إذا أردتَّ أن تنعمَ بكُلِّ ما هو حسن وجيّد ومُفيد وخيّر في الحياة، فتعلّم بصمت كيفَ توفِّر النِّعَم للآخرينَ في الحياة([٥٧]). وإذا أردْنا أنْ نحقِّقَ سعادةً في حياتِنا، وجبَ علينا أنْ نتعلّمَ زرع بذورها([٥٨]). ومن هُنا "فإذا أرادَ المرءُ أنْ يخدِمَ أمّتَهُ ويُقدِّم لها الكثيرَ مِنَ العطاء، وجَبَ عليهِ أنْ لا يبخلَ بوقتِه بَلْ يُكثّف مِنْ ساعاتِ قراءاتِه واطّلاعِه في مُختلف جوانب الحياة"([٥٩]). وقد جاء في الحديث: "ما تصدَّقَ النَّاسُ بصدقةٍ أفضل مِنْ عِلْمٍ يُنْشَر".

التثقيفُ الذاتي وأثرُه في تعزيز العمليّة التعليميّة:

فالتثقيفُ الذاتي يكون أوّلاً ثمّ يأتي دورُ العمليّة التعليميّة في المحاضن التربويّة، لأنّ الشريحةَ الّتي تعملُ في الحقل التعليميّ بدون خلفيّة ثقافيّة معمّقة إنّما تعيقُ عمليّةَ الإنتاج الحضاريّ وتؤخّرُ مسيرَها. فالمؤسسات التعليميّة في الدّول الأوروبيّة تقومُ على التثقيف الذاتي أوّلاً، ثمّ تلقّنُ المعلُوماتِ آليّاً، وتتحقّق الثقافة الذاتيّة من خلال تلقين الطّالِبِ المعلُوماتِ الّتي تفيدُه في حياتِه العمليّة، وهذا ما يُعاني منه تعليمُنا اليوم الّذي يقومُ أكثرُه على تلقين الطّالبِ المعلُوماتِ النظريّة التي قد تتأبّى على التطبيق والممارسة العمليّة، "فالملاحَظ أنّ التّلقينَ كأسلُوبٍ تعليميّ ما زالَ سائِداً في مدارسِنا، على الرغم من الأثرِ السلبيّ الّذي يتركُه هذا الأسلُوب على شخصيّة الفرد، حيثُ يُساعِدُ على بناءِ شخصيّةٍ انطوائيّة مُستسلِمة لِكُلِّ أنماطِ السُّلطة في المجتمع"([٦٠]).

فالتعليمُ الذي يحرِّكُ العقلَ، ويثير حُبّ الاستطلاعِ والفضُول، هُوَ التعليمُ الّذي نحنُ بحاجةٍ إليهِ، وأمّا التعليمُ الّذي يقومُ على التلقين والحشو وحشدِ المعلُومات، فإنّهُ لا يدفعُ المسيرةَ التعليميّةَ قُدُماً. وقد صدق "ج.م.ترفليان" القول إنّ: "التعليم أنتجَ عدداً ضخماً مِنَ النّاسِ الّذينَ يستطيعُون القراءةَ، ولكنّهُمْ لا يستطيعُونَ أنْ يميِّزُوا ما هُوَ جديرٌ بالقراءة". فالعبرةُ ليستْ بكثرةِ الكُتُب بَلْ بقيمتِها! وقد أجمل "جون نيسبيت" في كتابه "توجّهات كُبرى" قوّة المعرفة الذهنيّة؛ بقولِه: "إنّ تعلّم كيفيّة التعلّم هو خُلاصةُ الأمر". وبشكلٍ يكاد يكون مُتطابقاً، يذكرُ "ألفين توفلر" مؤلّف كتاب "صدمة المستقبل/ Future Shock" في كتابه "تحوّل القُوّة power Shift": "أنّ الشّخْصَ الأُمي في المستقبل لَنْ يكون الشّخْص الّذي يجهلُ القراءة، وإنّما الشّخْصُ الّذي لا يعرِفُ أنْ يتعلّمَ كيفيّة التعلّم"([٦١]).

النّظام التعليميّ وظاهرة الحفظ والتلقين:

فنظامُ تعليمِنا يقومُ على الحفظِ والتلقين وحشو المعلُومات الّتي يحفظها ثمّ ينساها بعد أشهرٍ قليلة، وقد أثبتتِ الدّراسات: أنّ هذه المعلُومات الّتي يدرسُها الطّالب لو اختبر فيها بعد نهاية السنة الدراسية بشهرٍ واحِد لا يبقى منها إلاّ (١٣٪) فقط. بينما النظامُ التعليميّ في الغرب يقومُ على المنهجِ العقليّ، والبحث والتجريب، ومنحهِ مفاتيح العُلُوم الّتي بواسطتِها يستطيعُ الطّالبُ أنْ يتعلّم بنفسهِ. وإلى هذه الفكرة ذهب مالكولم حين قال: إنّ أساليبَ التعليم التقليديّة بقيتْ في المدارس، كما هي طريقةُ الحفظِ الآلي، وأسلُوب حَشو الأذهان. إنّ نظامَ الامتحان ليسَ سليماً لتقويمِ شخصيّةِ الطّالِب واستعداداتهِ الذهنيّة وقدراتهِ على التفكير المستقل والتأمّل

والاستدلال([٦٢]). فالتعليمُ التقليديّ يقومُ حشدِ المعلُومات وحشرها في ذهنِ الطّالِب، "والتركيز في طُرُق التعليم على الإلقاءِ والتلقين من جانبِ المعلّمينَ، وعلى الحِفْظِ والاستذكارِ وإنهاكِ قوى الطلبة بالاسترجاع مِنْ جانبِ المتعلّمينَ، وكانَ الكتابُ المدرسيُّ الوسيلةَ المفضّلة الأكثر شيُوعاً، وظلّتِ الامتحاناتُ وطُرُق التقويم تقليديّة في أغراضِها وأشكالِها ومحتوياتِها، وترتّبَ عَنْ هذهِ الطُرُق استمرار شِقّة الانفصال بينَ التعليمِ العام والتعليم التقنيّ، وشعُور الطُلاّب الملتحقينَ بالتعليم التقنيّ بتدني مُستوياتهم مُقارنةً مع زملائِهم مِنَ التعليم العام، وتفشي البطالة المقنّعة، وافتقاد أغلب الخريجينَ لملكةِ الاجتهادِ والإبداع"([٦٣]).

ومن هُنا فإنّ التعليمَ العام يُعاني مِنْ أزمةٍ حقيقيّة، فلَمْ يَعُدْ هُناك مَنْ يُفَضِّلُ أنْ يُدْخِلَ أبناءَهُ فيهِ إلا نُدرة مِنَ النّاس مِنْ ذوي الدّخل المحدُود، وأصبحَ هُناك تنافسٌ كبير بين المدارس الأهليّة، لأنّ الآباء لا يريدُون أن يُدْخِلُوا أبناءَهم في مدارس حكوميّة ليسَ فيها تعليم! وليس فيها إلا الحشو والحِفْظ والإرهاق في النهاية، وبعد ذلك يتخرّجُون، دون أن يكتسِبُوا علماً أو ثقافةً، فهناكَ العشراتُ مِنَ الطّلبةِ مِمّنْ بعثُوا رسائِلَ على الإنترنت يقولون فيها: عندما أدخلُونا هذهِ الكُليّات كانوا يعلمُون أنّنا سنخرُج بتخرُّجِنا إلى الشارع دون عمل أو وظيفة؟ وقد وضع الدكتور طارق السويدان بصمتَهُ على واقعِنا المرير حينَ قال "الإنسان العاديّ قَدْ يُفَضِّل عدم إدخال ابنهِ في هذا التعليم، ويُفضّل أنْ يعملَ مُنتجاً في الزراعة، أو يفتح محلاً تجاريّاً، لأنّهُ يرى أنّ التعليمَ في النهاية سيُؤدّي إلى راتبٍ قليل، ودخل محدُود"([٦٤]).

عزوفِ الطلبةِ عن فعل القراءة:

ومن الأسباب الجوهريّة التي تؤدّي إلى عزوفِ الطلبةِ عن القراءة "غياب مفهوم التعليم والتثقيف الذاتيّ عند الكثير منهم، فأين المجالُ للتّعليم الذاتي إذا كانتْ أكثر مناهجنا تعتمِدُ أسلُوبَ الحفظ الآليّ الحرفيّ للكتبِ المنهجيّة المقرّرة، وممّا يُؤسف له أنّ هُناك فئةً مِنَ المدرِّسين لا يروق لها إلاّ الإجابة الحرفيّة أو النصيّة في الامتحانات، وهذا الأمرُ قد يكون سبباً في ابتعادِ الطّلبةِ عن التّفكير والإبداع"([٦٥]).

فالطّلبةُ في المراحِل الابتدائيّة يجب أن يُلقّنوا ثقافة ذاتيّة خارجيّة من خلال إثارة حُبِّ الاستطلاع فيهم، وتحريض مَلَكةِ النّقدِ البنّاء عندهم، فضلاً عن إثارة روح الدهشة والفضُول لديهم، وتحريكِ الحاسّة التخيليّة في مداركِهم، لأنّ ذلِكَ أجدى وأنفعُ من حشر ذاكرتِهم وحشدِها بالمعلُوماتِ النظريّة الجافّة الجامِدة الّتي ينسونها حال الانتهاءِ من الفصل الدراسيّ السنويّ المقرَّر، أمّا المعلُوماتُ الّتي تلقّوها مِنْ تلقاءِ أنفسِهم بصُورةٍ ذاتية من غير ضغطٍ أو إجبار، أو إكراهٍ أو تعنيف – كما

هو حاصِلٌ اليوم في مؤسّساتِنا التعليميّة – فإنّها تبقى حبيسةً في الذاكرة، لا تؤثّرُ عليها رياحُ الزّمن، لأنّها اقترنتْ بالتجربة والممارسة العمليّة، وبالتالي يستعصي على الذاكرةِ النشطة نسيان معلُوماتٍ ثبتت وترسّخت بالتجربّة العمليّة، أمّا في المراحِلِ الأُخرى فإنّ الطّالِب ينبغي أنْ يتلقّى معلُوماتٍ أكثرَ إيجابيّة، حيث تقومُ العمليّة التعليميّة على العصف الذهني والتداعي الفكريّ، وهذا ما يدفعُ الطّالِب إلى الإبداعِ والابتكار والاختراع، وقمينٌ ذكرُه هُنا أنّ الثقافةَ الذاتيّة رهنٌ بالأوضاعِ الاجتماعيّة والسياسيّة الّتي يعيشُها الطّالِب، فأجواء الحريّة السياسيّة تدفعُ الطّالِب إلى مزيدٍ مِنَ الحركةِ والحِراكِ والفعاليّة الاجتماعيّة، وتلقّي الكثيرَ مِنَ الأفكارِ الإيجابيّة وإنْ كانتْ تقعُ خارج لحظتِنا التاريخيّة، ما دامت تسهِمُ في عمليّة البناءِ الحضاريّ الرّشيد، ولا تعملُ على مُصادمةِ القيم ومُصادرة المعتقدات ومُناهضة المبادئ التي نؤمن بها، وما أجدر أن نؤكّد هنا أنّ الإسلامَ لا يعملُ على حجرِ العقُول، وتكميم الأفواه، وتحجيم الأفكار، كما فعلتِ الكنيسة، بَلْ هو على العكس فإنّهُ يُحرِّر عقلَ الإنسان من أُساره الضيِّق، ويُوجِّه تفكيرَه لقراءة كتابِ الله المنظُور وكتابهِ المسطُور. فما المانِع إذاً مِنَ الاستفادة من ثقافةِ الآخر ما دامت تعملُ على تفعيلِ المشرُوع الحضاريّ المنشُود، فـ(الحِكْمَةُ ضَالّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)(٦٦)، وعلى الإنسان أنّ "يأخذ الحكمةَ من أيِّ وِعاءٍ خَرَجَتْ، وعلى أيِّ لسان ظهرتْ".

ومِمّا لا مِراءَ فيهِ أنّ المشرُوع الثقافيّ الطمُوح يبدأُ مِنَ "التثقيف الذاتيّ" الّذي يبدأُ أساساً من الفرد، ثمّ يتداعى رويداً رويداً إلى المجتمع ككُلّ، وهذا ما يدفعُ الطبقاتِ الاجتماعيّة كُلّها في النهاية إلى التثاقُف الحضاريّ والتلاقُح المعرفيّ مع ثقافاتِ العالَم الأُخرى، لذا فما أولى بالمؤسّساتِ التعليميّة والثقافيّة أن تولي هذا الجانب الحيويّ اهتماماً جديّاً فاعِلاً، وأنْ تضعَ في برامجِها منهجاً ثقافيّاً تتواضعُ على تسميتها بـ"الثقافة الذاتيّة"، لأنّ "التثقيفَ الذاتيّ" يعدُّ خطوةً أساسيّةً في ترشيدِ العمليّةِ التعليميّة الّتي أعاقتها المناهِج الجامِدة الجاسِئة الجافّة التي لم تتغيّر مع تغيّر المجتمعاتِ الإنسانيّة وتطوُّرها.

رمضان والعودة إلى القرآن من جديد:

فما أحرى بنا أن نستثمرَ شهر الصيام للعودةِ إلى القرآن من جديد، ونتعمّق في آياتِه، ونتدبّر مقاصدَه، فـ"ليستِ العبرةُ أينَ وصلتَ في قراءة القرآن، بل العبرة أين وصَلَ القرآنُ في قلبِك"، فما أجدر بنا أنْ نجعلَ هذهِ المناسبةَ فرصةً للتدبّر والتفكّر والتعمّق والتأمّل في آياتِ القرآن ومعانيه، وأن تكون قراءتُنا للقرآن إعمالاً لَه، وتطبيقاً بما فيه من معانٍ عمليّة ومقاصِدَ ربّانيّة، وما أحرى بعلماءِ الأُمّة الإسلاميّة المشهود لهم بالعلم

والإيمان أنْ يدعو المسلمين جميعاً إلى تدبُّر آياتِ القرآن، وإعمالِها في واقِع حياتِهم العمليّة، وأنْ يبيِّنُوا لهم أنّ العبرةَ في قراءة القرآن وتلاوته هو تطبيقه في الميدان العمليّ، وليستِ العبرة زيادة عددِ ختماتِ القرآن من غير تدبّر وتفكّر، وفي هذا قال الفاروق عُمر بن الخطّاب (رضي الله عنه): "كُنّا نحفَظُ العَشْرَ آياتٍ فلا ننتقلُ إلى ما بعدَها حتى نعملَ بهنّ"، وقال عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه): "كُنّا لا نتجاوزُ عَشْرَ آياتٍ حتى نتعلّمَهُنّ ونعملَ بهنّ، ونعلمهن، ونعلم حلالهن وحرامهن، فأوتينا العِلْمَ والعَمَل).

فالقرآنُ الكريمُ - من حيثُ هو فاعليّة وحركةٌ ومسؤوليّة والتزام - قد أصبح مهجُوراً، فالكثيرُ مِنَ المسلمينَ في عالَمِ اليوم قد هجرُوه - كما يقول الشيخ سيِّد سابق - هجراً غير جميل، فأخذتْ تعاليمُه تتقلّصُ مِنَ المجتمع شيئاً فشيئاً، حتّى لم يبق منه إلاّ آيات تردّد للتبرُّك والتغنِّي، واستنزال الرحمات. أمّا إنه عقيدة تهدي، وعبادةٌ تزكّي، وخلُقٌ سامٍ، وحكمٌ عادِل، ودستورٌ شامِل، فإنه لا يخطرُ لهم على بال، فجزاهم الله جزاءَ مَنْ أهمل كتابَه، وأعرضَ عن تعاليمه"(٦٧)، وإذا ما قرأُوه كانتْ قراءتهم عابرةً وسريعةً دون تدبّر وتأمّل وتفكّر، على الرغم من أنّهم يقرأون قولَهُ تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٦٨). وربّما يستمِعُون إلى قَوْلِ ابن مسعود (رضي الله عنه): "اقرؤوا القرآنَ وحرِّكُوا به القلُوبَ، ولا يَكُنْ همُّ أحدِكُم آخرَ السُورة"، ولكنّهُم على العكسِ مِنْ ذلِكَ قرأوا القُرآن قراءةً عابرة، لذا لَمْ تتحرّكْ قلُوبهم، ولم تهتزّ مشاعِرُهم؛ وكيف تتحرّك وتهتزّ إذا كان همُّهُمْ آخرَ السُّورةِ، وإذا كان دأبُهم الإكثار من ختمِ القرآن، دون فهمٍ وتدبّر واستبصار. وكان الأَوْلى بهم أنْ يقرأوا القرآنَ بتعقّلٍ وتعمُّقٍ وتدبُّر للوصُول إلى التفسير الصحيح ومن ثَمّ إلى التأويل السّليم، ذلِكَ التأويلُ الّذي يُسمَّى عند بعضِهم بـ"فهمِ الفهم"، أو "فنِّ تجنُّبِ سُوءِ الفهم"، أو "فَهْمِ الكلماتِ فَهْمَاً ثانياً"(٦٩). يقول (ابن عربي) في هذا المقام ما نصُّه: "ألا ترى أنّ العالِمَ الفَهِمَ المراقِبَ يتلُو المحفوظَ عندَهُ مِنَ القرآن؛ فَيَجِدُ في كُلِّ تلاوة معنىً لم يجِدْهُ في التلاوةِ الأُولى، والحروفُ المتلوّة هِيَ بعينِها، ما زاد فيها شيءٌ ولا نقص، وإنّما الموطِنُ والحالُ تجدَّدَ، ولا بُدَّ مِنْ تجدُّده؛ فإنّ زمانَ التلاوةِ الأُولى ما هو زمانُ التلاوة الثانية"(٧٠). فالتأمُّل إذاً، هو قرينُ الفهم، والفهمُ قرينُ التجربة، والتجربة هِيَ التي تقودُك إلى الحكمِ الصحيح. ولكي نحقّق هذا الغرضَ علينا أنْ لا نتلُوَ القرآن بالصُورةِ التقليديّة التي تكتفي بالقراءة السطحيّة العابرة، وإنما أن ندخلَ إلى الأعماق والمقاصِد والغايات. وتفيدُنا في هذا المقام تجربة الفيلسوف (محمّد إقبال)؛ عندما قال: "أشدُّ ما أثّر في حياتي نصيحةٌ سَمِعْتُها من

أبي: يا بُنيَّ، اقرأ القُرْآن كأنّه أُنزل عليك"(٧١). فعلينا أنْ نقرأ القرآن كما لو أُنزل علينا، حينها نرى إشراقاتٍ روحانيّةً وفتوحاتٍ ربّانيّةً ونظراتٍ معرفيّة، نرى الروحَ في طُهرها وجمالِها وجلالِها، فنطلُبَ المزيدَ والمزيد. وفي هذا المعنى قال ذو النورين عثمان بن عفّان (رضي الله عنه): "لَوْ طَهُرَتْ قلُوبُكم ما شَبِعْتُم مِنْ كلامِ الله عزَّ وجلّ"(٧٢)، ولوجدنا في القرآن في هذا الزّمان أمُوراً لم يجدها غيرُنا في زمانِهم؛ وذلِكَ لأنّ في القُرآن عِلْمُ الأوّلينَ وَالآخِرينَ، وَمَا مِنْ شيءٍ إلاّ وَيُمكنُ استخرَاجهُ منهُ، لِمَنْ فَهّمَهُ الله تعالى، ولكننا لا ندخر جهداً في مُدارسةِ القرآن والتأمّل في آياته، وإذا ما اكتشفَ العلماءُ الغربيُّون أشياءَ في هذا الكون الفسيح الذي يحيطُ بنا، بناءً على الأبحاثِ العلميّة الجادّة والدراسات المعمّقة التي أنجزوها في سبيل اكتشافاتِهم، قُلْنا: إنّ هذهِ المكتشفاتِ موجودةٌ في القرآن الكريم، وهي حقّاً موجودة ومبثوثة في الوحي الإلهي، ولكن السؤال لماذا نحنُ لم نقدرْ على اكتشافِ ما هو موجودٌ في الكتاب الّذي بين أيدينا؟ لماذا نبخس النّاس أشياءَهم، لماذا لا نجتهد مثلما اجتهد غيرنا.

ومِنْ هُنا فما أحرى بعلمائنا أنْ يُوَجِّهُوا أنظار المسلمين – عبر مختلفِ القنواتِ التّواصُليّة – إلى تكثيفِ أفكارهم وتركيزِها في المقاصِد القرآنيّة، ويستفرِغوا جهُودَهم من أجلِ استنباطِ الأفكارِ الخلاّقة من الوحي القرآني، فيكون كلُّ واحد منا مُجتهداً يقومُ ببذل جهدهِ واستفراغِ وسعهِ من أجلِ الوصُول إلى مستكشَفاتٍ في المجالاتِ العلميّة والإنسانيّة، فـ"مَنْ طَلَبَ شيئاً نالَهُ أو بعضَهُ"(٧٣). و"مَنْ بذلَ جُهدَ طاقتِه بلغَ كُنْهَ إرادتِه. وقدرُ الرّجُلِ على قَدْرِ همّتِه". وإذا ما فعلَ كلّ واحدٍ منا فرداً فرداً على امتدادِ العالَم، وقرأوا القرآن بهذهِ الروح الاستكشافيّة، وخاصّة في شهر الصيام، حيث الصفاء الذهني، والطهارة القلبيّة، والتركيز الفكريّ، بعد التخفف من أثقال الجسدِ وأدرانِه، والارتقاء عن جواذب المادّة وكثافتها، ترى ماذا سيكون حجم المنجزات والإبداعات والاكتشافات والاختراعات التي سنتوصّل إليها من خلال هذهِ الفكرة البسيطة التي لا تكلّف شيئاً سِوَى أنْ نقرأَ القرآن بتدبّر وتأن وتعمّق وتفكّر، وليسَ الاستزادة في عددٍ ختماتِ القرآن كما هو حاصلٌ اليوم في عالَم المسلمين، حيثُ أصبحَ همُّ الواحِد مِنّا زيادةَ عددِ ختماتِ القرآن خلالَ الشهر الفضيل على حسابِ التدبّر والتفكّر والتعمّق.

ترى ماذا سيكون حالُ الأُمّة الإسلاميّة إذا ما طبّق أبناؤُها هذا المشرُوع العمليّ في حياتهم اليوميّة، وقرأوا القرآن من أجلِ استنباطِ الأفكار والقيم والمبادئ العمليّة، فضلاً عن تحقيقِ الإبداعاتِ

والاكتشافاتِ التي تكون تمهيداً لتدشينِ نهضةٍ حضاريّة خلاّقة في العالمِ العربيّ والإسلاميّ، وأن لا نكتفي فقط بتمجيدِ موروثِنا الحضاريّ مع جلال قَدْره وثراءِ قيمته، وفي ذلك قال الجاحظ: "وكَلامٌ كثيرٌ جَرَى على ألسنةِ النَّاس، ولَهُ مَضَرَّةٌ شديدةٌ وثمرَةٌ مُرَّةٌ. فمن أضَرّ ذلِكَ قَولُهُمْ: "لَمْ يَدَعِ الأَوَّلُ للآخِرِ شيئاً"، فلَوْ أنَّ عُلماءَ كُلِّ عصرٍ – مُذْ جَرَتْ هذهِ الكلمةُ في أسماعِهم – تركُوا الاستنباطَ لما لَمْ يَنْتَهِ إليهم عمَّنْ قبلَهم، لرأيتَ العِلْمَ مُختلاً"(٧٤).

ونحن هُنا لا نتحدّث عن ثواب القراءة وأجرها، فهذا أصلٌ ثابتٌ لا مِراء فيه.. فعن عبدالله بن مَسعُود قال: قالَ رَسُولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم): (مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ اللّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)(٧٥). والمرادُ بالحرفِ – والله أعلم – الكلمة سواء أكانتْ اسماً أو فِعْلاً أو حَرْفاً. إذاً، فـ"كلُّ مَنْ قَرَأَ القرآن قراءةً صحيحة، يبتغي بها وَجْه الله جلّ وعلا، فهو موعُودٌ بهذا الأجر إن شاء الله تعالى".

قراءات عرضيّة وتأويلاتٌ فاسدة:

وقمينٌ ذكره أنّ ما سلفَ عرضُه لا يعني أنّ مِنْ حقِّ كُلِّ قارئ للقُرآن أن ينكبَّ على تفسيره وتأويلِه على مُقتضى أفكاره وأهوائه. ومِمّا لا جدالَ فيهِ أنّ القراءةَ السطحيّة – العَرَضيّة تؤدِّي إلى تأويلاتٍ فاسِدة وتخريجاتٍ لا أساسَ لها مِنَ الصِحّة، وادِّعاءاتٍ باطِلة زائِفة، وإنْ كانتِ القاعدة المقرّرة التي عبّر عنها عُلماءُ البحثِ والمناظرة هِيَ: "إنْ كُنْتَ ناقِلاً فالصِحّةُ، وإنْ كُنْتَ مُدّعِياً فالدليلُ". فالقراءةُ التي لا تتجاوزُ السطح النصيّ تؤدّي إلى إشكاليّاتٍ معرفيّة بل إلى شطحاتٍ فكريّة ليس لها دليلٌ نقليّ مِنْ كتابٍ ولا سُنّة، وليس لها مُسوّغ عقلي في نسبةِ المحمُولِ إلى الموضُوع.

ومِنْ هذهِ القراءاتِ الملتبسة أو التأويلاتِ الفاسِدة التي ساقها أحدُ الباحثين – التي أثارت مؤخّراً ضجّة إعلاميّة – افتراض مقدِّمة لا أساسَ لها مِنَ الصِحّة، وهي أنّ كلمةَ "كُتِبَ" في قولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٧٦)، تأتي بمعنى الكتابة، وهو مصدرُ "كَتَبَ" بمعنى جمع ودوّن، وقصدُه من ذلِكَ ليسَ بيان المعنى المعجميّ من هذهِ اللّفظة الّتي يعرفها حتّى طالبُ الابتدائيّة، وإنّما غرضُه الأساس هو الوصُول إلى نتيجةٍ مؤدّاها أنّ "كُتِبَ" إذا كانت معناها الكتابة والتدوين، فهي لا تأتي إذاً بمعنى الفرضِ والإلزامِ، وهنا يتبيّن لنا "حجم المغالطة التي توسّل بها للوصُول إلى هدفِه المرسُوم مُسبقاً، فهو غايةٌ يُطْلَبُ الوصُول إليها، ثمّ تُخْتَرَع المقدِّماتُ اختراعاً بصُورةٍ أو أُخرى، وتُرتّب في صُورةِ بُرْهان، ليتمّ التأثيرُ بواسطتِه في نفُوسِ النّاس،

لـدفعهم إلى التشـكّك مـن فرضـيّة الصـيام ككل(٧٧). على الـرّغم مِـنْ أنّ العُلمـاء قـد بيّنُوا وجُوبها على المسلمين عامّتهم، باسـتثناءِ الأصناف الّـتي ذكرهـا القـرآن، فضـلاً عـن ذواتِ الأعذار، فهذا الطبري يقول: ﴿كُتِـبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِـبَ عَلَـى الّـذِينَ مِـن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: فُرِضَ عليكم مثل الّذي فُرِضَ على الّذين مِنْ قَبْلِكم(٧٨). و"الكتابة معروفة المعنـى، ويكنـى بـه عـن الفـرض والعزيمـة والقضاء الحتم"(٧٩). والقولُ في معنى كُتِـبَ عليكم، دلالتُه على الوجُوب(٨٠). وجـاء في موضعٍ آخر: "والقـول في (كُتِـبَ) ظـاهِرٌ في الوجُوب قريبٌ مِنَ النصِّ فيـه"(٨١). فمعنـى (كتب عليكم) أنه حقّ لازِمٌ للأُمّة لا محيدَ عن الأخذِ به، فضميرُ "عَلَيْكُمُ" لمجمُوع الأمة على الجُملة... و"كُتِبَ" بمعنى حـقّ وثبـت(٨٢). وهُناك اسـتثناءاتٌ بيّنهـا القـرآنُ الكـريم في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَـى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الّذِينَ يُطِيقُونَـهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّـهُ وَأَن تَصُـومُوا خَيْـرٌ لَّكُـمْ إِن كُنـتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٨٣)، ولو قال: فُرِض عليكم، لكان لِزامـاً علـى المسـلمين الإمسـاك عـن الطعـام والشّـراب مـن طلُـوع الفجـر الصّـادق، إلى غرُوب الشمس بنية، بغضِّ النظّـر عـن هـذهِ الأصناف التي تـمّ استثناؤُها، ولكان وجُوبها مثـل وجُـوبِ الصـلاة لا يمكـن للإنسـان أن يكفّ عنها مهمـا كانـت حالتـه، وأيّـاً كـان موقفه: "قُمْ إلى الصّلاةِ متـى سَـمِعْتَ النـداء مهمـا تَكُـنِ الظّـرُوف". فالصّـلاة لا تسـتثني أحداً ولا تعفـي أحـداً مـن أدائهـا وإقامتهـا، سِوَى ذواتِ الأعذار، قال تعـالى: ﴿وَأَقِيمُـوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(٨٤)، على وجهِ الإلزامِ والوجُـوب، وقـال الرسُـول (عليـه الصّـلاة والسّلام): (صَلّوا كما رأيتمُوني أُصلّي)(٨٥). علـى وجـهِ الإلـزامِ والوجُـوب، ولم يقـل: "صُوموا كمـا رأيتمُـوني أصُـوم". وحتـى إذا كـان معنـى قولِـه تعـالى: ﴿كُتِـبَ عَلَـيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، إخباراً عـن تحقّقِ الكتابـة، ولـيسَ إنشاءً للحُكْم(٨٦)، فهو توطئةٌ وتمهيـدٌ لقولِـه تعالى الوجوبيّ في الآيةِ الثالثـة: ﴿فَمَـن شَـهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُـمْهُ وَمَـن كَـانَ مَرِيضًـا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيـدُ اللَّـهُ بِكُـمُ الْيُسْـرَ وَلَا يُرِيـدُ بِكُـمُ الْعُسْـرَ﴾(٨٧). وقـد أوضح أحدُ الباحثين هذهِ المسألة على النحـو الآتي: إنّ الله جلّ وعلا قال في كتابهِ العزيـز: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقلْ: فُرِض، والاختيـار دليلُ الحِكمة، والحِكمة هـي في اختيـارِ لَفْـظِ ﴿كُتِـبَ﴾، أنَّ الصـيامَ عبـادةٌ شـاقّة، فهـيَ امتناعٌ عـن أمُـورٍ محبُوبـة وضـروريَّة للبـدن، والنَّفْس في فِطرتها تنفر مِن المنعِ إلى الإباحـة، فكان المقامُ أن تُذكَر الفرضية بلفظ "كُتِـبَ"، لأنَّ الكتابةَ في معنَى التكليـف أوْثَـق وأقـوى مِن لفظ "فُرِضَ"، ألاَ تـرَى أنَّ مُـديراً مـا لـو كَلّف مُوظفاً عندَه بأمرٍ ما شفهيّاً، فـإنَّ ذلـك سيكون أقل حتميةً مِن أن يكتُب له التكليف

رسميّـاً؟ والكتابـة في اللّغـة بمعنـى الجمْـع والتشبيت(٨٨). قال ابن فارس: "الكافُ والتّاءُ والبَاءُ: أصْلٌ صحيحٌ واحِدٌ يدلُّ على جَمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ. مِنْ ذلِكَ الكتابُ والكتابةُ. يُقال: كَتَبْتُ الكتابَ أكْتُبُهُ كَتْباً"(٨٩). وهُناك أمرٌ آخر لا بُدَّ مِنَ الإشارةِ إليهِ في هذا المقام، وهو أنّ سياقَ الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ يفيدُ الوجُوب والإلزام، إذ لا يصحُّ من حيث الدّلالة أن يكون "كُتِبَ" بمعنى: تحقّق الكتابة فقط، لأنّه لو كان ذلِكَ كذلِكَ، لقَالَ: كُتِبَ لَكُمْ، ولَمْ يَقُلْ: كُتِبَ عليكم، وفي (عليكم) معنى الأمرِ الّذي يفيدُ الوجُوب والإلزام.

وأخيراً فما أحرى بنا جميعاً إلى نسعى إلى مُجاهدةِ النّفس، ومُغالبةِ الأهواء التي تحيطُ بنا من كُلِّ جانب، وأن نعود أدراجَنا إلى مُصاحبة الأنيس الّذي لا يُمل، والرفيق الّذي لا يكلّ، والجليس الّذي لا يفتر، والكريم الّذي يفيدُ ولا يستفيد، ويُعطي ولا يأخذ، ونواصِلَ اللّيل بالنّهار، حتّى نجني ثمار العلم، فـ"لا يُسْتَطاع العِلْمُ براحةِ الجِسْم"(٩٠). ولا تُكْتَسَبُ المعالِي إلاّ بسَهَرِ اللّيَالِي:

بقَدْرِ الكدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي
وَمَنْ طَلَبَ العُلا سَهِرَ اللّيَالِي(٩١) ❐

الهوامش:

١- بريهادا رانياكا أوبانيشاد، Upanishad: أي مجموعة مِنَ المؤلّفات الفلسفيّة الفيدية (نسبةً إلى الفيدا Veda). في القوانين الروحانية السبعة للنجاح، ديباك شوبرا: ٥.

٢- القراءة المثمرة مفاهيم وآليات، أ.د.عبدالكريم بكّار، ط(٦)، دار القلم، دمشق - سورية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م: ١٦.

٣- تقديم الدكتور زكي الميلاد لكتاب العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟ لحسن آل حمادة: ١٣.

٤- القراءة المثمرة مفاهيم وآليات: ٢٠.

٥- المجموعة الكاملة لمؤلّفات الأستاذ عبّاس محمود العقّاد، السيرة الذاتية -١- يحتوي على أنا، حياة قلم، ط(١)، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، ١٩٨٢م: ١٠٨.

٦- قراءة القراءة، فهد بن صالح الحمود، ط(٢)، مكتبة العبيكان، الرياض - المملكة العربية السعوديّة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ٤٩.

٧- م.ن: ٢١.

٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبدالرّحمن بن محمّد بن قاسم، (د.ط)، مطبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنوّرة - المملكة العربية السعوديّة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م: ١٥/ ٥٥.

٩- الفوائد، لابن القيم، تحـ: عصام الدين الصبابطي، ط(٢)، دار الحديث طبع، نشر، توزيع، القاهرة - مصر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م: ٢٥٦.

١٠- قراءة القراءة: ٢٦.

١١- القراءة المثمرة مفاهيم وآليات: ٢٦.

١٢- م.ن: ٣٢ و٣٣- ٣٤.

١٣- نهج البلاغة، وهو مجموع ما اختاره الشّريف الرضيّ من كلام الإمام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه)، (د.ط)، شرح: الشيخ محمّد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، (د.ت): ٣/ ٤٠.

١٤- العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟، ٧٢.

١٥- م.ن: ٧٢.

١٦- م.ن: ٧٢.

١٧- م.ن: ٧٢.

١٨- بناء الأسرة الفاضلة، عبدالله أحمد، (د.ط)، مكتبة العرفان دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م: ٢٧.

١٩- العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟: ١٢٣.

٢٠- م.ن: ٣٩.

٢١- صيد الخاطر، لأبي الفرج عبدالرّحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، بعناية: حسن السّماحي سُويدان، ط(٣)، دار القلم، دمشق – سورية، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م: ٤٥٤.

٢٢- كيف تقرأ كتاباً؟ محمّد صالح المنجد، ط(١)، دار الوطن للنشر، الرياض – المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م: ٥٦.

٢٣- العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟: ١٢٧.

٢٤- م.ن: ١٢٨ – ١٢٩.

٢٥- العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟: ١٢٨.

٢٦- العلاج بالقراءة.. الكتب كذخيرة، مرام عبد العزيز، http://n-scientific.org/15875 مجموعة نون العلمية، تاريخ النشر: ٢٩/ ٠٥/ ٢٠١٧م.

٢٧- سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

٢٨- ينظر بتصرّف: العلاج بالقراءة أو البيليوثيرابيا، للدكتور شعبان عبدالعزيز خليفة، ط(١)، الدار المصرية اللبنانيّة، ٢٠٠٠م.

٢٩- سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

٣٠- القراءة المثمرة مفاهيم وآليات: ٥١.

٣١- م.ن: ٥٢.

٣٢- قراءة القراءة: ٦٣.

٣٣- القراءة المثمرة مفاهيم وآليات: ٥٣- ٥٤.

٣٤- م.ن: ٥٤- ٥٥.

٣٥- كيف تقرأ كتاباً؟ محمّد صالح المنجد، ط(١)، دار الوطن للنشر، الرياض – المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، ص٣٧.

٣٦- مقولة مُتداوَلة للمفكّر ياسر حارب. وهو كاتب وإعلامي بارز من الإمارات العربية المتحدة، ومُؤسِّس مشارك للمنتدى العالمي "منتدى تعزيز السِلم في المجتمعات المسلمة".

٣٧- فن القراءة، ألبرتو مانغويل، تر: جولان حاجي، ط(١)، دار الساقي، بيروت – لبنان، ٢٠١٦م، ٢١٣- ٢١٤.

٣٨- تاريخ القراءة، آلبرتو مانغويل، تر: سامي شمعون، ط(٤)، دار الساقي، بيروت – لبنان، ٢٠١٣م، ص٣١١.

٣٩- م.ن: ٣١١.

٤٠- مجتمع النخبة، د.بُرهان غليون، ط(١)، معهد الإنماء العربيّ، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م، ص٢٤١.

٤١- آرثر شوبنهاور (١٧٨٨ – ١٨٦٠ م) فيلسوف ألماني. "المكتبة هِيَ الذاكرةُ الوحيدةُ المؤكّدة المستمرّة للفكرِ الإنسانيّ".

٤٢- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبي القاسم الحسين بن محمّد بن المفضّل المعروف بالرّاغب الأصفهاني، تحـ: د.رياض عبدالحميد مراد، ط(٣)، دار صادر، بيروت – لبنان، ٢٠١٢م، ١/ ٢٣٨.

٤٣- العلاج بالقراءة.. كيف نصنع مجتمعاً قارئاً؟ ص٤٤.
٤٤- ينظر بتصرّف: العلاج بالقراءة.. كيف نصنع مجتمعاً قارئاً؟ ص٥٦.
٤٥- ينظر بتصرّف: العلاج بالقراءة.. كيف نصنع مجتمعاً قارئاً؟ ص٥٨- ٥٩.
٤٦- م.ن: ص٥٧.
٤٧- الشاكلة الثقافية.. مساهمة في إعادة البناء، عمر عبيد حسنة، ط(١)، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، ص٢٦.
٤٨- ينظر بتصرّف: مجتمع النخبة، مجتمع النخبة، د.بُرهان غليون، ط(١)، معهد الإنماء العربيّ، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م: ٢٥٠.
٤٩- دراسات وشؤون جامعية، خالد محمّد خالد، ط(١)، منشورات دار "روشنبير" للطبع والنشر، العراق – سليمانية، ١٩٩٨م، ص٧.
٥٠- القوانين الروحانية السبعة للنجاح – الدليل العملي لتحقيق أحلامك، ديباك شوبرا، ط(١)، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ٢٠١٣م: ٢١.
٥١- م.ن: ٢٢، و٣٣.
٥٢- م.ن: ٣٠.
٥٣- م.ن: ٣٨.
٥٤- م.ن: ٣٩- ٤٠.
٥٥- م.ن: ٤٠.
٥٦- م.ن: ٤٠.
٥٧- م.ن: ٤١.
٥٨- م.ن: ٤٩.
٥٩- العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟، ص١٢١.
٦٠- المشكلات الاجتماعية بين الشباب الكويتي، فائقة يوسف الإبراهيم: ١٦٥- ١٧٣. في العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟ لحسن آل حمادة، ص٣٣.
٦١- كتاب خريطة العقل، توني وباري بوزان، ط(٤)، مكتبة جرير، الرياض – المملكة العربية السعوديّة، ٢٠٠٧م،: ٣٨٥.
٦٢- Malcolm Adiseshiah: Education and national Development: 2. نقلاً عن أزمة التعليم في عالمنا المعاصر، فيليب كومبز، ترجمة: أحمد خيري كاظم، والدكتور جابر عبدالحميد جابر، (د.ط)، دار النهضة العربية، القاهرة – مصر، (د.ت): ١٦٠.
٦٣- ينظر بتصرف: أزمة التعليم في العالم العربي ومخاطرها على مستقبل الأمة، د.طارق سويدان، المدير العام لمؤسسة الإبداع الأمريكي، الجزيرة، في ٢٠٠١/٠٢/٢١م.
٦٤- ينظر بتصرف: أزمة التعليم في العالم العربي ومخاطرها على مستقبل الأمة.
٦٥- العلاج بالقراءة.. كيف نصنعُ مجتمعاً قارئاً؟، ص٣٣.
٦٦- رواه الترمذي في (جامعه) وابن ماجه في (سننه).
٦٧- في تقديمه لكتاب (علوم القرآن) لأحمد عادل كمال، نُشِر ضمنَ سلسلة كتاب المختار، في سنة ٢٠٠٥م.
٦٨- سورة محمّد، الآية: ٢٤.
٦٩- أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، إبراهيم أحمد، ط(١)، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، ص١٣٠.
٧٠- الفتوحات المكيّة، ابن عربي، ط(٢)، تحقيق وتقديم: د.عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: د.إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م: ٢٥٨/٤.
٧١- شروط النهضة، مالك بن نبي، ط(١)، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبدالصبور شاهين، تقديم: محمّد همّام، دار الكتاب المصري – القاهرة، ودار

الكتاب اللبناني – بيروت، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م، ص٨٣.

٧٢– حديث موقوف عن سُفيان بن عُيَيْنة، رقم الحديث: (٣٦٣).

٧٣– مقولة للإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، نهج البلاغة: ٧٦٨.

٧٤– الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، شرح وتعليق وتنقيح وتحقيق وفهرسة ومراجعة: د.محمّد السعدي فرهود، د.محمّد عبدالمنعم خفاجي، د.عبدالعزيز شرف، ط(٦)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، ص٩٩.

٧٥– رواه البخاري في التاريخ الكبير: (٢١٦/١)، والترمذي، رقم (٢٩١٠)، وصحّحهُ الألبانيّ (تخريج الطحاوية، رقم ١٣٩)، (المشكاة، رقم ٢١٣٧).

٧٦– سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

٧٧– تفنيد الأسس النظرية والعملية للإلحاد، نقد كتابين للدكتور عادل ضاهر: تأملات في مفهوم الفعل الإلهي، ونقد الصحوة الإسلامية، للأستاذ سعيد عبداللطيف فودة، ط(١)، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م، ص٩٦.

٧٨– تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ط(٢)، حقّقه وعلّق حواشيه: محمود محمّد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه: أحمد محمّد شاكر، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر: ٣/ ٤٠٩.

٧٩– الميزان في تفسير القران، للسيد محمّد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، (د.ط)، منشورات جماعة المدرِّسين في الحوزة العلمية، قم – الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، (د.ت): ٢/ ٧.

٨٠– تفسير التحرير والتنوير، لمحمّد الطّاهر بن عاشور، (د.ط)، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ١٩٨٤م: ٢/ ١٥٤.

٨١– تفسير التحرير والتنوير: ٢/ ١٤٦.

٨٢– تفسير التحرير والتنوير: ٢/ ١٣٥.

٨٣– سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

٨٤– سورة البقرة، الآية: ١١٠.

٨٥– رواه البخاري.

٨٦– الميزان في تفسير القران، للسيد محمد حسين الطباطبائي: ٢/ ٦.

٨٧– سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

٨٨– تأملات في آية الصيام، محمد شلبي محمّد، http://www.alukah.net/sharia/0/34016/ الألوكة الشرعية، تاريخ الإضافة: ١٧/ ٨/ ٢٠١١م.

٨٩– معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (ت٣٩٥هـ)، ط(١)، تحـ: عبدالسّلام محمّد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م: ٥/ ١٥٨.

٩٠– مقولة للإمام يحيى بن أبي كثير (ت١٣٢هـ). كنيته أبو نصر وقيل: الطائي، من الطبقة الخامسة من طبقاتِ رُواة الحديث النبوي الشريف.

٩١– ينظر: ديوان الإمام الشافعي، أبي عبدالله محمّد بن إدريس الشافعيّ (ت٢٠٤هـ)، (د.ط)، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له: الدكتور عمر الطبّاع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، (د.ت): ٩٧.

رؤية

خُلق الإنصاف!

شيروان الشميراني

الحياة عبارة عن ميدان مفتوح للتدافع، بجميع مجالاتها، نتيجة الاختلاف في الدين والفكر والمذهب، أو الصراع السياسي والاجتماعي.

وعندما تغيب الموازين، ويغلب الهوى العقول والإرادات، ويفشو بخس الناس أشياءهم، ونتيجة البحث عن المصالح الشخصية، أو الجماعية، بغض النظر عن مدى الأحقيّة، أو عندما تغشى الغيوم الأبصارَ، يحاول الناس أن يميلوا إلى ذواتهم، الفردية أو الجمعية، وأن ينكروا ما لدى الآخرين من الفكر النير، أو الاجتهادات المفيدة.. والنتيجة هو الظلم، ظلم الحقيقة في إطار بشريّ مجسّد، أو نظرية علمية ثقافية..

من هنا، ضرب (ربّ العالمين)– وفقاً للمنهج الوسطي الذي ارتضاه للأمّة– أمثلة في القرآن، عند الحديث عن الآخرين: الآخرون المخالفون في الدين، في وقت كانت الحرب الفكرية والحجاج قائماً بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى من أجل تثبيت الأحقيّة، فعند التقييم لا بدّ من الإنصاف. بمعنى: ليس هناك الأبيض والأسود، من معكم محض خير وبياض ناصع، ومن ليس معكم محض شرّ وسواد كالح..

عند الحديث عن (النصارى)، في (سورة آل عمران)، يقول الله – سبحانه –: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:٧٥. يتحدث الله هنا عن أمانة أهل الكتاب، فلا يعمم، مع أنهم مشركون، بالمعيار القرآني، بل يضع الموازين بالقسط، ويصنف كل مجموعة منهم في مكانها اللائق، ثم لا يستعجل بالحديث عن السيئين منهم، بل يقدّم الخيرين: فمنهم من إن تأمنه بقنطار يؤدّه

إليك، هؤلاء هم أهل الثقة في التعامل، حتى ولو كانوا مخالفين في الدين والعقيدة، وهم أولى بالحديث، وأن يسبق ذكرهم من سواهم، ثم بعدهم يأتي بذكر الخائنين..

بعض المفسرين غابت عنهم هذه الالتفاتة التربوية الربانية، يقولون: حتى الذين يؤدون الأمانات يؤدونها، لأنهم ليس لهم من محل أو ملجأ يذهبون إليه، وليس لهم من مكر سوى إرجاع الأمانات، اضطراراً وليس خلقاً..

هذه الصفة الإسلامية الإنسانية،كانت متبناة من طرف المسلمين، علماء أو عامة، ولم يجانبوا الصواب، وكانوا منصفين في التعامل، فهو خلق قرآني، لا يتصف به إلا من استلهم المنهج الوسطي في الفهم والتربية ..

أضرب هنا مثالاً واحداً من التاريخ الحديث، بالإمام (عبدالحميد بن باديس)، مؤسس (جمعية علماء المسلمين)، في (الجزائر)، فمع وقوع (الجزائر) تحت سلطة الاحتلال الفرنسي، و(بن باديس) من رواد الحركة الإصلاحية الدينية والتحررية الجزائرية، إلا أنه لم يتشدد في إصدار الأحكام، ولم ينكر ما للفرنسيين من علم، وحضارة، ونظام عام بارع.. فعندما يتحدّث عن عالم الصحافة، وعن حرية الصحافة، حيث إنه كان صحفياً أصدر أربع صحف ومجلة واحدة، في هذا المجال لا يستحضر ظلم المحتل على بلده، بل يصف الحال كما هو: أن للفرنسيين صحفاً كبيرة، و"أنا مع المعجبين بالصحافة الفرنسية الكبرى، وما لها من بديع نظام، ومهرة أقلام، وجرأة وإقدام"، ولم ينكر ما للفرنسيين من حضارة، وكثيراً ما استدل بعلمائهم، في معرض محاججة السلطات الفرنسية المحتلة..

ومع أن الجزائركانت تقاوم فرنسا لنيل الحرية والاستقلال،كان يعترف بأن الثورة الفرنسية "بداية مشعل الحرية في أوروبا"، قائلاً بأنه من الجدير أن تحتفل شعوب العالم كله بيوم انتصار الثورة الفرنسية، وكسر أسوار سجن الباستيل – مقبرة الأحرار – وسط باريس في ١٤ يوليو ١٧٨٩، (بن باديس) يعترف بأن الثورة الفرنسية جاءت بقيم إنسانية جديدة، تشكّل منطلقاً لجميع الشعوب الباحثة عن الحرية.. مؤكّداً – في موضع آخر – بأن الإنسان السجين، ما دام يملك الشرف، فهو يفرح بحرية الآخرين الذين هم خارج السجن، حتى ولو قضى حياته سجيناً..❐

– الإسلام والمسلمون وتنوع الانتساب	أ. صلاح الدين بهاء الدين
– الحياة التي يريدها كتاب الله!!	د.عماد الدين خليل
– آن أوان دعوة المسلمين إلى الإسلام..!	د.حكيم مختار
– حل جدل المكونات من منظور قرآني	أ. محمد رؤوف محمد
– في ظلال دعاء سيدنا (يونس) – عليه السلام –	د.دحام الهسنياني

الإسلام والمسلمون وتنوع الانتساب

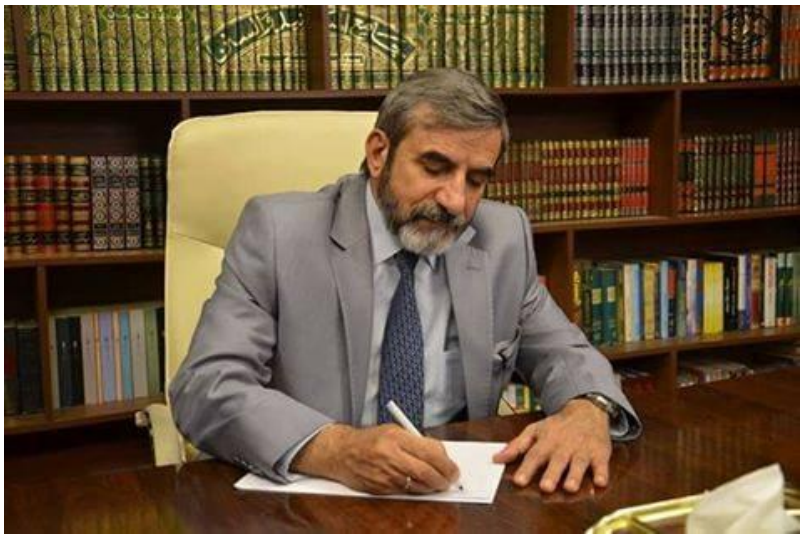

أ. صلاح الدين محمد بهاءالدين

✍ لجهل البعض بحقيقة الموضوع، أو لأغراض معينة، أو لالتباس في فهم اللغة، وفك الارتباط بين مدلولاتها، أو لأسباب أخرى غير مرئية، حصل نوع من الخلط بين عدة مصطلحات حول الإسلام، والانتساب إليه، وعلى أساس هذا الخلط يحكمون على الجميع بحكم واحد قاهر. وهذا يجانب الصحة والصواب. وكأمين عام لحزب (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، إليكم تفسيري لتلك المصطلحات والقضايا:

أ/ الإسلام: دين سماوي سمح، وهو آخر الأديان السماوية، وله أكثر من ربع المنتسبين للأديان على وجه الأرض، وله كتاب مقدس كريم (القرآن)، ورسوله الخاتم (محمد) (صلى الله عليه وسلم)، سيرته وسنته محفوظة ومدونة لدى المسلمين.. وله من العمر أكثر من (١٤) قرناً من الزمن، ولا يزال يتمتع بالحيوية والديمومة والحضور المواكب للعصر.

ب/ المسلمون: هم كل المنتسبين إلى هذا الدين منذ القرن الأول (ستمائة ميلادية)، لحد الآن، فهؤلاء فيهم المصيب في التزامه والمخطئ، وفيهم المُفرِط والمُفرِّط، وفيهم الصحيح والسقيم، حسب درجة التزامه، فهماً وممارسةً.. فالتاريخ الإسلامي هو بالأصل تاريخ المسلمين، وهو ليس حجة على الإسلام، ولا يحكم عليه بسبب ممارسات منتسبيه.

ج/ الإسلاميون: هم منتسبو الحركات الإسلامية، الذين اعتمدوا الإسلام مرجعية، وتبنّوا الشريعة الإسلامية مصدراً رئيساً للتشريع في بلدانهم، وأطلقوا مشاريع فكرية وحركية، ودخلوا المعترك السياسي في بلدانهم، وهم يأخذون شرعيتهم من الشعب، وبآلية انتخابات ديمقراطية، ويؤمنون بحكم مدني، وليس بحكم ديني ثيوقراطي، يؤمنون بالعمل السياسي المدني، ويعتمدون على الحوار والتعايش مع الآخر والتعددية والديمقراطية.

ولم يتخذ الإسلاميون (المتبنون الدعوة والتربية، أو السياسة) النهج العنفي والراديكالي سبيلاً لعملهم الدعوي، أو حياتهم السياسية. ولا شك أن بين هؤلاء حركات وأحزاب تتفاوت درجات وسطيتها واعتدالها وممارستها للنهج الديمقراطي، في داخل فعالياتهم ومنظماتهم، أو مع غيرها من الأحزاب والحركات السياسية. وكذلك تتفاوت درجات اهتمامهم بالعمل التربوي والدعوي والروحي، أو السياسي والاجتماعي: فقسم يعتنون بالجانب التربوي أكثر، وقسم بالجانب الدعوي أكثر، وقسم بالسياسي، وهكذا.. ولا شك أيضاً أن هذه الحركات والمنظمات ليست خالية من الخطأ، وليست معصومة، وهي مشاريع بشرية، وتتحكّم فيها العقول البشرية، والفارق الوحيد هو مرجعيتهم العليا التي يعتمدونها بالأخير، وهي الإسلام، أي لا يخرجون من دائرة ثوابت الإسلام، وهم مطلقو اليد في دائرة المتغيرات كلها.. أما حمل اسم الإسلام – أي الانتساب إلى الإسلام – في تسميتهم للحركات والأحزاب، فهذا شيء فرعي وعرفي، وليس شرطاً ولا ملزماً.. فالأصل في هذه الحركات أن تمارس العمل السياسي ضمن دائرة المتغيرات الواسعة في الإسلام، وتشارك الآخرين بنهج مدني سلمي، ومنهجية وسطية اعتدالية.

نموذج هذه المجموعة هو (الإخوان المسلمون)، في مصر، وفي البلدان العربية الأخرى، (أقصد الإخوان كجماعة أم وكمنهج، وليس الخارجين عن الخط العام، كجماعة الجهاد والهجرة والتكفير)، وكذلك: (الجماعة الإسلامية)، في باكستان، و(جماعة النور)، في تركيا.. وجميع هذه الحركات

الإسلامية تبنّت المشروع السياسي الوسطي، وانخرطت في العملية السياسية، في المغرب والجزائر واليمن والعراق والأردن...إلخ، ولا بد من القول إن كل حركة لها خصوصيتها القطرية والمحلية، وليست ملزمة بأي إطار خارج بلدها.

ويذكر أنه من بين هذه المجموعة، يستهدف العاملون في الحقل السياسي، حقداً وملاحقةً وافتراءً عليها من قبل الأنظمة الحاكمة في بلدانهم، بسبب منافستها للأحزاب الأخرى في العملية السياسية، وممارستها – في أكثر الأحيان – دور المعارضة للسلطة الحاكمة، فهؤلاء الحكام لا يروق لهم هذا التيار السياسي الإسلامي، ويحاولون توريطهم في مزالق ومحطات عدائية وعنيفة، وإخراجهم من حالتهم السلمية والمدنية.

فعلّة عداء هذه الأنظمة لهذه الحركات الإسلامية السياسية، ليست في فكرها وممارستها، وإنما لمنافستها في الساحة، ومزاحمتها لهم.. فالسجون والمشانق والزنزانات في البلدان العربية، وطيلة القرن الماضي، كانت مفتوحة الأبواب لقادة هذه الحركات ونشطائها وكوادرها. والقمع والديكتاتورية وحكم العوائل والاستبداد، كانت سمات الأنظمة التي استخدمت عنف الدولة، وممارسته خلال مواجهتها لهذه الحركات. ولولا هذا الخوف من منافسة السلطة، لكان التيار الوسطي خير علاج لإنهاء الفكر المتشدّد، لأن الحل الأمني عاجز عن العلاج، ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يعالج الفكر إلا الفكر.

د/ الإسلاميون التقليديون: هناك فئة أخرى من الإسلاميين يتبنّون السلفية أو الصوفية أو الجانب الفلسفي أو الفكري النظري، مثل جماعة التبليغ، ومدارس الطلبة في باكستان، والسلفية المدخلية، ونظائرها، نشأت هذه المجاميع طيلة التاريخ الإسلامي، وشكّلت فرقاً وجماعات، ولكنها على الأكثر سهلة التفاهم مع السلطة القائمة. هؤلاء المنتسبون مسالمون وتقليديون، وليسوا سياسيين، وهم مرغوبون لدى الأنظمة الحاكمة في المنطقة الإسلامية، في أكثر الأحيان.

ولا يخفى أن بعضاً من المجاميع العنفية اتخذت من هذه المدارس السلفية، أو الصوفية، منحاها الأساسي الفكري، وبالأخص التيار الجهادي السلفي، الذي نشأ على الفهم السلفي المتشدّد، وأخذ منه جرأته على التكفير والحكم على الآخرين بأيٍّ مخالفة لظاهر النصوص.

هـ/ الإرهابيون العنفيون: وهم مجاميع المؤمنين بالعنف والتشدّد والإرهاب، والمنتظمون في منظمات مسلحة تحت غطاء

الجهاد، مدعومة من بعض الغافلين من الأغنياء، ومخترقة من قبل مخابرات بعض الدول في المنطقة، وعلى مستوى العالم، لخلق البلبلة والفوضى الأمنية، ولتشويه الوجه الناصع للإسلام، والتشويش على العاملين في مجال العمل الإسلامي المعتدل والوسطي.

إن هذه الفكرة يعود تاريخها إلى القرن الأول للإسلام، متمثلاً في جماعة – الخوارج –، وكان التكفير، ثم القتل العشوائي، ديدنهم، وقد قتلوا (علي بن أبي طالب)، وقاتلوا المسلمين، وهدروا دماء كل من يخالفهم ولا يسلك مسلكهم.

وقد واجههم العلماء ونظام الحكم في وقته، وأخمدوا حركتهم، إلا أنها تتجدّد بين فترة وأُخرى. والحلقة الأخيرة لهذه الحالة المستنسخة من (الخوارج) هي تنظيم – القاعدة – الإرهابي، بقيادة (أسامة بن لادن)، السعودي الجنسية، السلفي العقيدة والانتساب، وخلفه: (أيمن الظواهري)، المصري الجنسية، والحاقد والمتمرّد على الإخوان. نشأ ضمن صراع القطبين الأمريكي والسوفيتي، وأصبحت أفغانستان ميداناً للصراع هذا، فاستغل هذا الموقف أصحاب الفكر السلفي المتشدّد في (أفغانستان)، في فترة الثمانينيات، لصنع أجواء عمل عنفي باسم الجهاد، ونجحت الحركات المسلحة هناك في محاربة السوفييت، وإجبارهم على الخروج، ثم انقلبت على العالم الإسلامي والغربي، وأعلنت الحرب على الدنيا.

وقد تفرّعت من هذا التنظيم مجاميع وفرق، وتوزّعت على العالم وقاموا، بجريمة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وغيرها من العمليات الإرهابية، وتشكّلوا أخيراً في تنظيم جديد باسم (داعش) (أي: الدولة الإسلامية في العراق والشام)، واستولوا على مدن سنية عراقية، وأعملوا فيها تدميراً وقتلاً وتخريباً.

يتوجّب على كل متابع ومهتم بشأن الإسلام، من كُتّاب وصحفيين وباحثين وأكاديميين، أن ينتبهوا إلى هذه المفارقات والمقاربات، وأن يميزوا بين هذه التقاطعات، ويفكوا الارتباط بين الاسم والمسمّى، لكي لا يقعوا في خطأ التعميم، ويلتبس عليهم الموضوع، ويتجاوزوا الموضوعية والعلمية. وعليهم أن يأخذوا بنصيحة رب العالمين الآتية في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾سورة الحجرات: الآية ٦❐

الحياة التي يريدها كتاب الله!!

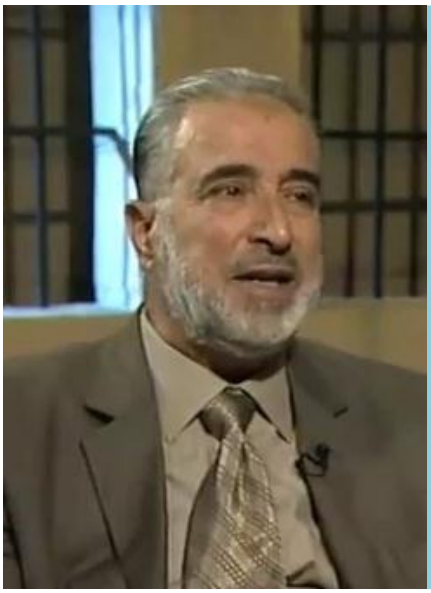

بقلم: أ.د. عماد الدين خليل

﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(سورة الرحمن: الآيات ٧-٩)..

في هذه الآيات الثلاث ثمة تأسيس لجوهر التنظيم الإسلامي للحياة البشرية : إنه الميزان.. وضع كل شيء في حالة توازن مع ذاته، ومع الأشياء والكائنات الأخرى.. حيث تجيئ الآية التالية: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾(سورة الرحمن : الآية ١٠)، بعد التأكيد مراراً على (الميزان)، كأنها تريد أن تقول: بأن الله سبحانه وتعالى إذ وضع الأرض للأنام، أراد لها أن تحيا تحت مظلة الميزان، فتكون الحياة سعيدة، جديرة بأن تعاش!! ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو

وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة المطففين: الآيات ١-٦)، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ...﴾(سورة الإسراء : الآية ٣٥)، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ...﴾(سورة الأعراف : الآية ٨)، ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾(سورة الحجر: الآية ١٩)، ﴿...وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة الأنعام : الآية ١٥٢)، ﴿...فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ ...﴾(سورة الأعراف : الآية ٨٥)، ﴿... وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ ...﴾(سورة هود: الآية ٨٤)، ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة هود: الآية ٨٥)، ﴿اللّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ...﴾(سورة الشورى: الآية ١٧)، ﴿...وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة الحديد: الآية ٢٥)، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ...﴾(سورة الأنبياء : الآية ٤٧)، ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾(سورة الشعراء : الآية ١٨١).

أما عن القسط، الذي هو رديف الميزان، فهذه بعض شواهده: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(سورة الممتحنة: الآية ٨)، ﴿...فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(سورة الحجرات: الآية ٩)، ﴿...ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ ...﴾(سورة البقرة: الآية ٢٨٢)، ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ...﴾(سورة الأحزاب: الآية ٥)، ﴿...وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(سورة المائدة: الآية ٤٢)، ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ..﴾(سورة آل عمران: الآية ١٨)، ﴿...وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(سورة آل عمران: الآية ٢١)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ...﴾(سورة النساء: الآية ١٣٥)، ﴿...وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(سورة المائدة: الآية ٤٢)، ﴿...وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة الأنعام: الآية ١٥٢)، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة الأعراف: الآية ٢٩)، ﴿...لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة يونس: الآية

٤)، ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ...﴾(سورة هود: الآية ٨٥)، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ...﴾(سورة الأنبياء: الآية ٤٧)..

ومع مفردتي الميزان والقسط، ثمة مفردات أخرى تتردد في جنبات القرآن.. إنهما: الحق، والعدل، من أجل تأكيد دعوة القرآن إلى إقامة حياة وضيئة، عادلة، تقوم على الحق والعدل، وهما أكبر قيمتين في بناء الكون والعالم، فلا يطيش بها الميزان، كما طاش – ولا يزال – بعقائد وأديان ومذاهب ونظريات ونظم وفلسفات، ما لبثت أن تساقطت، لأنها لم تقم على التأسيس الكوني المتمثل بالميزان والقسطاس والحق والعدل..

فلنتابع بعض شواهد هاتين المفردتين في كتاب الله، واللتين وردت أولاهما، وهي (الحق)، فيما يزيد على المائتين والثلاثين مرة، ووردت ثانيتهما، وهي (العدل)، بتصريفاتها المختلفة، فيما تقرب من الثلاثين مرة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً..﴾(سورة البقرة: الآية ١١٩)، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...﴾(سورة البقرة: الآية ١٧٦)، ﴿..وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ...﴾(سورة البقرة: الآية ٢١٣)، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...﴾(سورة آل عمران: الآية ٣)، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ ...﴾(سورة النساء: الآية ١٠٥)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ...﴾(سورة النساء: الآية ١٧٠)، ﴿...وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ...﴾(سورة المائدة: الآية ٤٨)، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ...﴾(سورة المائدة: الآية٧٧)، ﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ ...﴾(سورة المائدة: الآية ٨٤)، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ...﴾(سورة الأنعام: الآية ٧٣)، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ...﴾(سورة الأعراف: الآية ٨)، ﴿...لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ...﴾(سورة الأعراف: الآية ٤٣)، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾(سورة الأعراف: الآية ١٨١)، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ...﴾(سورة التوبة: الآية ٣٣)، ﴿...مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(سورة يونس: الآية ٥)، ﴿...فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾(سورة يونس: الآية ٣٢)، ﴿...أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى ...﴾(سورة يونس: الآية ٣٥)، ﴿...إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً...﴾(سورة يونس: الآية ٣٦)، ﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُجْرِمُونَ﴾(سورة يونس: الآية ٨٢)، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ...﴾(سورة الرعد: الآية ١٤)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ ...﴾(سورة إبراهيم: الآية ١٩)، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(سورة الأنبياء: الآية ١٨)، ﴿هُوَ الّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ...﴾(سورة الصف: الآية ٩).

أما عن العدل، فهذه بعض شواهده: ﴿...وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ...﴾(سورة الشورى: الآية ١٥)، ﴿...فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ...﴾(سورة النساء: الآية ١٣٥)، ﴿...وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ...﴾(سورة المائدة: الآية ٨)، ﴿...وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ...﴾(سورة الأنعام: الآية ١٥٢)، ﴿...وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ...﴾(سورة النساء: الآية ٥٨)، ﴿...هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ؟﴾(سورة النحل: الآية ٧٦)، ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى ...﴾(سورة النحل: الآية ٩٠)، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(سورة الأنعام: الآية ١١٥).

وإلى جانب (الميزان) و(القسط) و(الحق) و(العدل)، هنالك تأكيد قرآني متواصل على (الصراط)، وهو الطريق المستقيم الذي يصل إلى هدفه دون أي قدر من الاعوجاج.. بدءاً من (سورة الفاتحة) التي تتضمن دعوة المؤمنين في العالم بأن يلتزموا الصراط المستقيم، فلا تنحرف بهم الأهواء ذات اليمين وذات الشمال.. وعلى مدى كتاب الله كله يتدفق الخطاب القرآني كالسيل مؤكداً على الصراط.. وهذه بعض شواهده: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ، صِرَاطَ الّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(سورة الفاتحة: الآيتان ٦-٧) من أجل أن يمضي المؤمنون بهذا الدين إلى أهدافهم، متجنبين سلوك اليهود الملتوي الذي استدعى غضب الله سبحانه وتعالى ، وضلال النصارى بالشرك المكشوف.. هذا الدعاء الحار الذي يتردد على كل لسان في اليوم الواحد عشرات المرات: ﴿...قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(سورة البقرة: الآية ١٤٢)، ﴿...وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(سورة البقرة: الآية ٢١٣)، ﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(سورة آل عمران: الآية ١٠١)، ﴿...مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(سورة الأنعام: الآية ٣٩)،

﴿وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّـكَ مُسْـتَقِيماً...﴾(سـورة الأنعام: الآية ١٢٦)، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّـي إِلَى صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ دِينـاً قِيَمـاً...﴾(سـورة الأنعام: الآية ١٦١)، ﴿...لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِـإِذْنِ رَبِّهِـمْ إِلَـى صِـرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(سـورة إبـراهيم: الآيـة ١)، ﴿...فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَـنِ اهْتَـدَى﴾(سـورة طـه: الآيـة ١٣٥)، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّـرَاطِ لَنَـاكِبُونَ﴾(سـورة المؤمنـون: الآيـة ٧٤)، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِـهِ أَهْـدَى أَمَّـن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَـى صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ﴾(سـورة الملـك: الآيـة ٢٢)، ﴿قَـالَ فَبِمَـا أَغْـوَيْتَنِي لأَقْعُـدَنَّ لَهُـمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْـتَقِيمَ﴾(سـورة الأعراف: الآية ١٦)، ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَـن سَـبِيلِهِ ذَلِكُـمْ وَصَّـاكُم بِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُونَ﴾(سورة الأنعام: الآية ١٥٣).

وفي مقابل هـذا، إدانـة قرآنيـة متواصـلة للاعوجاج، الذي هو نقيض الميزان والقسـط والحـق والعـدل والتـزام الصـراط: ﴿...لِـمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ...﴾(سورة آل عمران: الآية ٩٩)، ﴿قُرْآنـاً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِـوَجٍ لَّعَلَّهُـمْ يَتَّقُـونَ﴾(سـورة الزمر: الآية ٢٨)، ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَـا عِوَجـاً...﴾(سـورة الأعـراف: الآية ٤٥)، ﴿...وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً...﴾(سورة الأعراف: الآية ٨٦)، ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَـبِيلِ اللّـهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً...﴾(سورة هود: الآية ١٩)، ﴿...وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجـاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَـلاَلٍ بَعِيـدٍ﴾(سـورة إبـراهيم: الآية ٣).

فـأيّ ديـن أو عقيـدة في العـالم تنطـوي تعاليمها على هذا القدر مـن الحسـم والجـزم والوضـوح في إقامـة حيـاة يسـودها الحـق والعدل، وتلتزم القسط والميزان، وتمضـي إلى أهـدافها علـى الصـراط الـذي يحميهـا مـن الانحـراف ذات الشـمال وذات الـيمين، والخضـوع لإغـواء الطواغيـت والمشـركين والأربـاب، الـذين يسـوقونها عـبر الطـرق المعوجة المنبثقة عن رغبتهم الجارفـة في تعبيـد الناس لأنفسهم من دون الله ؟!

إن هذا الدين بتأكيده المتواصـل، وطرقـه المستمرّ، علـى قـيم الحـق والعـدل والقسـط والميزان والصـراط، لهـو الـدين الـذي يحـرر الإنسان من شتى صـنوف القهـر والاسـتعباد والابتزاز والاسـتلاب.. ويرفـع قامتـه عاليـاً لكي لا يخضع إلا لله سبحانه وتعالى.. ولكـي يحيا حياة طيبة آمنة سعيدة متوازنـة، تحرسـها قيم الحق والعدل والميزان والقسط.. وتمضـي إلى أهدافها على الصـراط الـذي يـرفض أي جنوح أو اعوجاج..

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن هذه القيم، ويؤكد عليها، يربط – على طريقته المدهشة – بين الأرض والسماء.. بين اليومي والأبدي.. بين الموقوت والدائم.. بين أسباب النزول، وبين إطلاق الحكم، لكي يمضي مخترقاً حواجز الزمن والمكان.. بين الميزان الذي توزن به الأشياء اليومية، وبين ذلك الذي قامت عليه السماوات والأرض: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة المطففين: الآيات ١–٦)، ﴿...وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾(سورة الحديد: الآية ٢٥)، ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾(سورة الحجر: الآية ١٩).

ألا تعكس هذه الآيات رؤية الإسلام الكونية الشاملة، التي لا تغفل – وحاشا لله – عن أدق خصوصيات الناس، ولكنها ما تلبث أن تنقلهم إلى الفضاءات الواسعة للعالم والكون، فتجعل من الميزان خطاباً بيانياً يبدأ بوزن الحاجيات اليومية، ثم يمضي مصعداً باتجاه إقامة العدل بين الناس، وبناء العالم بما يجعله صالحاً لاستمرارية الحياة.. بل بيوم القيامة العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، لكي يتلقوا جزاءهم العادل عن كل صغيرة في موازين الحاجات اليومية.. وكبيرة في تجاوز التعاليم الدينية الكبرى، التي تؤكد على التزام الحق والعدل والقسط بمفاهيمها الشاملة.

كل المذاهب والنظريات والمبادئ والأديان المحرفة الأخرى التي طاش بها الميزان، ما لبثت أن تساقطت الواحدة تلو الأخرى، لأنها لم تقم على الحق والعدل.. ولأنها أغفلت التعامل بالقسط والميزان.. وضعت في آذانها شمعاً لكي لا تصغي لخطاب الله الذي يدعوها إلى التزام الصراط، ومضت عبر الطرق المعوجة، فضّيعت نفسها وكل المنتمين إليها، ولم تحصد في نهاية الأمر إلا الدمار والخراب..

والذي يمعن النظر في كتاب الله، من زاوية معينة، قد تتمركز بعبارة "وما هي الحياة التي يدعو إليها كتاب الله في هذا العالم"، يجد نفسه قبالة البعد الإنساني الذي يستهدف إقامة حياة طيبة، متوازنة، آمنة، سعيدة، حرة، لا ظلم فيها، ولا فساد، ولا انحراف.. ومن خلال ذلك يستهدف تحقيق إنسانية الإنسان بأعلى وتائرها، وأكثرها مقاربة لتكوينه وطموحاته كإنسان.

وعلى سبيل المثال، فإن في الآيات ١٤٤–١٥٣ من (سورة الأنعام) تأكيداً على أن قاعدة هذا الدين هي (الحلال)، وأن (التحريم) الاعتباطي الذي يضيّق الخناق على

مطالب الإنسان الحيوية أمرٌ ممقوت ومرفوض. وفي الآيات ٢٦-٣١ من (سورة النساء) دعوة قرآنية لحياة يسودها التوازن، والحق، والتخفيف، وإدانة كل صيغ الميل والعدوان والظلم وأكل أموال الناس بالباطل واقتراف الكبائر التي تمسخ الحياة البشرية وتقودها إلى البوار: ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾(سورة النساء: الآية ٢٧). وفي الآية ٩٧ من (سورة النحل) تأكيد على الحياة (الطيبة) التي يدعو إليها هذا الدين بالتزام الإيمان والعمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. وفي الآيات ٦٢-٦٤ من (سورة يونس) أن المؤمنين يتلقون البشرى، بكل ما تنطوي عليه من دلالات، في الدنيا قبل الآخرة، وأن ذلك هو الفوز العظيم، وأنهم يعيشون حياة آمنة مطمئنة لا خوف فيها ولا حزن: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. هذا إلى أن الله سبحانه وتعالى يمنحهم الثبات في الحياة الدنيا وفي الآخرة (سورة إبراهيم الآية ٢٧). وفي الآية ٥١ من (سورة غافر) وعد إلهي بنصر رسله وأتباعهم المؤمنين، في الحياة الدنيا، قبل يوم القيامة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.. وولاية الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين تكلؤهم في الدنيا والآخرة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...﴾(سورة فصلت: الآية ٣١).. ووعد آخر للذين يقيمون حكم الله في الأرض، بأنهم سيأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم، مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾(سورة المائدة: الآية ٦٦)، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً...﴾(سورة البقرة: الآية ٥٨)، ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾(سورة النحل: الآية ١١٢).

وثمة حشود المقاطع والآيات القرآنية التي تفتح الطريق لإشباع الغرائز، وتضبط التعامل معها، بحيث لا تسمح بالإفراط أو التفريط.. وآيات أخرى تحذّر من السرقة، والغش، وتتوعد القتلة بغير الحق بأشد أنواع العقاب في الدنيا والآخرة.. وآيات أخرى تحمي ظهر الإنسان، في غيابه عن الآخرين، وتنذر من

يفعل ذلك بالويل والثبور، فيما لا نكاد نجده – على الإطلاق – في عقائد الوضاعين والكهنة والمشرعين بغير ما أنزل الله..

وثمة الدعوة القرآنية المتكررة للالتزام بالعهود والإيمان والمواثيق، والتنديد بمن يخرقها.. وبإقامة العلاقات الأسرية على المودة والمحبة والرحمة بين الزوج وزوجه، وبين الآباء والأبناء، وبين هؤلاء وآبائهم.. وبصلة الرحم، ووضعها في الدرجة التالية للتوحيد، الذي هو قاعدة هذا الدين.

وفي الآيتين ٨٧–٨٨ من (سورة المائدة): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾، يطرح القرآن معادلة ذات بعد إنساني تحريري، حيث يقرن تحريم الطيبات بالظلم، ثم يدعو إلى الإباحة، ولكن تحت مظلة التقوى والإيمان.. وهي أكثر المعادلات إحكاماً لحياة إنسانية يتحرر فيها الإنسان من شد الضرورات، ويأكل الطيبات، ويتقي الله سبحانه وتعالى.

وفي الآيات ٥–١٨ من (سورة النحل)، صورة رائعة للحياة التي يريدها كتاب الله: حيث ترد هذه المنظومة من نعم الله للبشرية، متمثلة بتوفير الحاجات الأساسية للإنسان، وبالخدمات، وبالجماليات، وبتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وفي جعل فيزياء البحار تحمل الفلك، وتقدم الغذاء، وأدوات الزينة للناس، وفي إلقاء الجبال الرواسي بالأرض، كي لا تميد بالناس.. وبالنعم التي لا يحصيها عدّ، من أجل جعل الحياة في هذه الدنيا جديرة بأن تعاش، شرط أن يتوجه الناس بالشكر والعرفان والامتنان للخلاق، الذي أنعم عليهم بهذا كلّه.. ولن تتم الإفادة القصوى من هذه النعم إلا بأن تلتحم الأمة الإسلامية، وعلماؤها، بفيزياء العالم، وجغرافيته، للكشف عن سنن الله ونعمه في العالم، وتسخيرها لخدمة الإنسان.. وهي – إذا أردنا الحق – نقطة الانطلاق في بناء الحضارات: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ

مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لّعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ، أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكّرُونَ ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي الآيات ٨٧-٩٣ من (سورة المائدة) دعوة مؤكدة أخرى إلى أكل الحلال الطيب، وإطعام المساكين، وكسوتهم، وتحرير الأرقاء، واجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، لأنها رجس من عمل الشيطان، الذي يسعى من خلالها إلى الإيقاع بين المسلمين، وإثارة العداوة والبغضاء، والصدّ عن ذكر الله.. وأما الآيات ١٣٦ ، ١٣٨-١٣٩ ، ١٤٢-١٥٣ من (سورة الأنعام)، فتنطوي على حملة شاملة، وسخرية مرة، بأتباع الأديان المحرفة، لتحريم ما أحل الله. حيث ترد هذه الآية، التي تحسم الموضوع فيما لا يقبل لجاجة ولا إنكاراً: ﴿قُل لاّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(سورة الأنعام: الآية ١٤٥).

بل إن القرآن يمضي خطوات أخرى في تصوير الحياة الإسلامية الآمنة، المتوازنة، السعيدة، المطمئنة، بتأكيده على التزيّن.. وإضافة البعد الجمالي لبنية هذه الحياة، من أجل أن تشع بالروعة والجمال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(سورة الأعراف: الآيتان ٣١-٣٢)، حيث ها هنا أيضاً تلتقي الرؤية القرآنية الثنائية، التي تدير المنظور على جوانب الحالة كافة، فنجد أنفسنا قبالة (الجمال) و(الضرورة).. التزيّن، وإشباع الحاجات الأساسية.

حيثما قلبنا أبصارنا في كتاب الله، وجدنا الخطاب القرآني يحمل دعوة واضحة مؤكدة لبناء حياة إسلامية تلبي حاجات الإنسان الضرورية، وتحرّره، وتفتح الطريق أمامه واسعاً عريضاً لكي يحيا حياة متوازنة، آمنة، متوحدة، وسعيدة.. ولكن أين العقول التي تفقه.. والقلوب التي تكسر ما علاها من صدأ.. لكي تتلقى هذا الخطاب المشع وضاءة وطهراً ؟!

ثم ماذا عن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي؟ إنهم، بشهادة التاريخ.. وقبلها:

بتأسيسات كتاب الله، وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، واجتهاد فقهائه الكبار.. تلقوا حريتهم الدينية والمدنية كاملة، وعاشوا مع رفاقهم المسلمين، وباعترافهم هم، أجمل حياة، وهم يمارسون طقوسهم الدينية بحرية، ويشاركون في بناء وصيرورة الحياة الاجتماعية والثقافية والإدارية والاقتصادية والعمرانية، في وتائرها العليا، حيث برز منهم كبار الكتاب والمترجمين والأطباء والمهندسين والوزراء والإداريين، دون أن يمسهم أحد بسوء، أو يقف قبالة مطامحهم عائق واحد..

وبدلاً من إيراد الشواهد والتفاصيل التي يعج بها تاريخنا الحضاري، والتي سبق وأن عرضنا لها في أكثر من بحث وكتاب، لنكتفي بهذا الموقف القرآني المدهش، في حماية حقوق غير المسلمين، والتنديد الصارم بكل من تسوّل له نفسه المساس بها من المسلمين!! والذي تتضاءل دونه سائر القمم الأخرى في مجال التعامل العادل، كالصراط مع الإنسان، أياً كان موقعه في الزمن أو المكان أو الطبقة أو العرق أو المكانة أو – حتى – الدين !: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ، وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ، وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ، هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ، وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ، وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ، وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾(سورة النساء: الآيات ١٠٥–١١٣).

وعن هذه الآيات يقول الشهيد (سيد قطب): "إنها تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً، ولا تعرف لها البشرية شبيهاً. وتشهد وحدها بأن هذا القرآن، وهذا الدين، لابدّ أن يكون من عند الله. لأن البشر – مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم – لا يمكن أن يرتقوا – بأنفسهم – إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات، إلاّ بوحي من الله... إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة، على الإسلام والمسلمين... في الوقت

الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب، ويؤلبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويرسمون لهم الطريق، ويطلقون الإشاعات، ويضللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي والرسالة، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج = والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه. في هذا الوقت الحرج الخطر... كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وعلى الجماعة المسلمة، لتنصف رجلاً يهودياً اتهم ظلماً بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجنده، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة !

"إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة برئ، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام – وإن كانت تبرئة برئ أمراً هائلاً، ثقيل الوزن في ميزان الله – إنما كانت أكبر من ذلك: هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن، أياً كانت الملابسات والأحوال.. وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد، وعلاج عناصر الضعف البشري فيه، مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية، في كل صورها، حتى في صورة العقيدة، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس، وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة، التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تتدحرج مع الأهواء والميول والشهوات...

"ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه، والتنديد به، وكشفه هكذا لجميع الأبصار، بل فضحه بين الناس، على هذا النحو العنيف المكشوف.. كان هناك أكثر من سبب، لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم، وتحكم، ولو كانت موازين البشر، ومقاييسهم، هي التي يرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سبب واضح عريض: إن هذا المتهم (يهودي)، من (يهود)، يهود التي لا تدع سهماً مسموماً تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله، والتي يذوق منها المسلمون الأمرين، والتي لا تعرف حقاً ولا عدلاً ولا نصفة، ولا تقيم اعتباراً لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق!

"وكان هناك سبب آخر، وهو أن الأمر في الأنصار، الذين آووا ونصروا، والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن، بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق! وكان هناك سبب ثالث، هو عدم إعطاء اليهود سهماً جديداً يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضاً، ثم يتهمون اليهود! ولا يدعون هذه الفرصة تفلت، للتشديد عليها.

"ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله... أن يقام ميزان العدل في الجماعة المسلمة، لتحكم بين الناس مجرداً من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئاً كبيراً لا يقدرون على تجاهله.

"ومن ثم لم يكن هناك مجال للباقة ! ولا للكياسة ! ولا للسياسة ! ولا للجهارة، في إخفاء ما يحرج، وتغطية ما يسوء.. ولم يكن هناك لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها! هنا كان الأمر جداً خالصاً، لا يتحمل الدهان، ولا التمويه ! وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله، وأمر هذه الأمّة التي تعد لتنهض بهذا المنهج وتنشره، وأمر العدل بين الناس في هذا المستوى، الذي لا يرتفع إليه الناس، إلا بوحي من الله !

"وينظر الإنسان من هذه القّمة السامقة على السفوح الهابطة، في جميع الأمم على مدار الزمان، فيراها هناك في السفوح، ويرى بين تلك القّمة السامقة والسفوح الهابطة، صخوراً مترديةً هنا وهناك، من: الدهاء،والمراء، والسياسة، والكياسة، والبراعة، والمهارة، ومصلحة الدولة، ومصلحة الوطن، ومصلحة الجماعة، إلى آخر الأسماء والعنوانات، فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود" (في ظلال القرآن ٥/٢١٤-٢١٩، باختصار عن ط٣).

أليس هو الميزان الذي بنيت عليه السماوات والأرض بالحق والعدل؟ أليس هو القسط بين الناس كافة، بغض النظر عن أديانهم وانتماءاتهم ؟ أليس هو الصراط الذي لا عوج فيه ولا أمتا؟

ثمة لقطة من فيلم (عمر المختار)، الذي أخرجه مصطفى العقاد (رحمه الله)، أريد أن أختم بها مقالي هذا، لأنها تعبّر عن الكثير مما يمكن أن يقال، ومما بدأنا به الحديث حول ارتباط الميزان بقضية العدل في العالم، وليس بمجرد التطفيف في حاجات الناس اليومية.. إنه – دائماً – الارتباط الصميم بين الخاص والعام، بين الموقوت والدائم، وبين الأرضي والكوني.. فلنرَ ..

عمر المختار، قائد حركة المقاومة الليبية للغزو الإيطالي الفاشستي الذي لا يرحم،

يقف قبالة مجموعة من صبيان الكتاتيب، يعلمهم التلاوة.. حتى إذا وصل الآيات التي تقول: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَان، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(سورة الرحمن: الآيات ٧-٩)، جاءه مستشاره وساعده الأيمن لكي يهمس في أذنه أن الايطاليين الفاشست استغلوا فرصة غياب الرجال عن إحدى القرى الليبية فانقضوا عليها وقتلوا كل من فيها من الشيوخ والنساء والأطفال ...

توقف (عمر المختار) لحظات.. وثم نهض قائماً وهو يردد: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَان، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.. ثم ما لبث أن أصدر أوامره إلى المجاهدين الذين انطلقوا كالسهم إلى الكتيبة الإيطالية نفسها التي ذبحت القرية المسالمة، فأبادوها عن آخرها..

فذلك هو (القسط)، وذلك هو (الميزان)!!❐

والذي يمعن النظر في كتاب الله، من زاوية معينة، قد تتمركز بعبارة "وما هي الحياة التي يدعو إليها كتاب الله في هذا العالم"، يجد نفسه قبالة البعد الإنساني الذي يستهدف إقامة حياة طيبة، متوازنة، آمنة، سعيدة، حرة، لا ظلم فيها، ولا فساد، ولا انحراف.. ومن خلال ذلك يستهدف تحقيق إنسانية الإنسان بأعلى وتائرها، وأكثرها مقاربة لتكوينه وطموحاته كإنسان..

آن أوان دعوة المسلمين إلى الإسلام..!

د.حكيم مختار

دعوة مهمة جداً، مخلصة جداً، لكافة المخطّطين والعاملين فى المؤسسات والمنظمات الإسلامية: الخيرية والدعوية.. أن ينتبهوا إلى الحقيقة المّرة، ويدركوا أن قد: آن الأوان أن ندعو المسلمين إلى الإسلام، أوّلاً..لا أن ندعو الآخر – غير المسلم – أوّلاً، بل البدء بالمسلمين أولى!.. – ذلك لأن المسلمين في الواقع العملي عموماً – إلا من عصم ربي، وقليل ما هم– :

– أصبحت عقيدتهم مغايرة لما أمر به الله ورسوله.. بعيدة عن ما جاءت به تفاصيل شريعة الإسلام.

– وأصبح تعامل أغلب المسلمين بعضهم مع بعض أولاً، ومع غير المسلمين ثانياً، مخالفاً لما أمر به الله ورسوله.

إذ لم نعد نمثلّ أخلاق الإسلام العظيم، ما يجعلنا مؤهلين الآن لدعوة الآخر – غير المسلم – إلى الإسلام.. ففاقد الشيء لا يعطيه.

..والأنبياء، والمرسلون، هم أوّل الدعاة إلى الخير.

والشرائع والأديان تنير الدرب، وتهدي إلى طريق الخير.

والإنسان يختار سبيله، وتتحدد سعادته، أو شقاؤه، على ضوء اختياره.

والسلف الصالح – بعد الأنبياء والمرسلين – دعوا إلى ما كان هؤلاء الأنبياء والمرسلون يدعون إليه.

هؤلاء كلهم كانوا متميّزين.. ميّزتهم الأساسية أنهم كانت لهم قيم وسلوكيات راقية، وكانوا قمة في: الخلق الحسن.

اقتدى بهم، واهتدى بهديهم، أفراد، ثم جماعات، فشعوب وأمم، دخلوا هذا الدين الحنيف، ولم تمض سوى سنوات يسيره حتى نشأت بهؤلاء أمة واحدة، هي خير أمة أخرجت للناس، وأقاموا دولة الإسلام، وهي أعدل دولة في تاريخ البشرية..

و دام الأمر قروناً..

إذاً، بسمّو أخلاق الدعاة، سمت أخلاق المسلمين.. وبذا رحّب الآخرون بالإسلام..

وبتدنّي أخلاق الدعاة، تدنّت أخلاق المسلمين.. وبذا نفر الآخرون من الإسلام ..

ورغم انحرافات هنا وهناك.. بقي الإسلام، وأخلاق الإسلام، هو السمة الحاكمة في سلوك وأخلاق المسلمين.

– المسلمون الأوائل فهموا أن الأخلاق صُلب الدين، وفهموا العلاقة بين الدين والأخلاق، كما في المعادلة التالية:

دين + أخلاق = دنيا و آخرة

أخلاق – دين = دنيا بلا آخرة

دين ــ أخلاق = لا دنيا ولا آخرة

سند المعادلة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(١)(دنيا وآخرة).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ (٢) .(دنيا...)

وقول رسوله (صلى الله عليه وسلم): (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد إلا بعداً من الله)(٣). (لا دنيا ولا آخرة).

–وفي الحديث الشريف، الذي جمع فأوعى (٤): سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أيّة حسنة أعظم عند الله، أجاب (صلى الله عليه وسلم): حسن الخلق . وسئل (صلى الله عليه وسلم) عن الإيمان: كيف يكمل، أجاب: حسّن خلقك، يكمل إيمانك.

– وفي محطه مهمة أخرى، يقول الرسول الكريم: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه، فزوّجوه(٥). (وفيه تأكيد صريح من الدين كلّه على: الأخلاق) .

إذاً، فهم الدعاة الأوائل حقيقة الإسلام أنه دين جلّه أخلاق، وأهم ما فيه هو حسن الخلق.. فتخلّقوا بأخلاقه، وأفلحوا في مهمتهم الدعوية خير فلاح، وغدوا رحمة مهداة إلى البشرية.

أماّ اليوم، فإن بيوت الله في كل العالم عامرة بالمصلين! (والحمد لله).. لكن يا ترى كم هي النسبة من هؤلاء المصلين أخلاقهم مقاربة – ولا نقول مطابقة– للأخلاق التي جاء بها الإسلام العظيم.. لا شك أن النسبة متدنية.. ولذا فإنهم بتدنّي خلقهم، ينفرون الآخرين من الإسلام.

ونخشى أن يكون زماننا بهذا الوصف، هو الزمان الذي قصده الخليفة الراشد أمير المؤمنين (علي بن ابي طالب) (رضي الله عنه) حيث قال: يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلاّ رسمه، ومن الإسلام إلاّ اسمه: مساجدهم يومئذ عامرة من البناء، خراب من الهدى، سكانها وعمّارها شّر أهل الأرض(٥).

عموماً، يعيش العالم الإسلاميايوم واقعاً مُرّاً، شديد المرارة. أبرز سمات هذا الواقع المّر هو:

الجهل، والتخلف، الاختلاف، فالتمزق..
مرّد كلّ ذلك هو البعد عن منهج الله، وخاصة في الجانب الأخلاقي.

غاية بعثة النبي هو ما صرح به (محمد (صلى الله عليه وسلم) بذاته المباركة: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(٦) .

ولكن المسلمين في واد، والأخلاق التي جاء بها الإسلام العظيم في واد آخر..

كنتيجة: فسد فهم العقيدة، وساءت الأخلاق، وصعب التعامل مع المسلمين.

على صعيد الأمة الإسلامية، فإن هذه النتيجة المرّة أدت إلى:

– شيوع الظلم، وقوانين الغاب، في أغلب البلدان الإسلامية.

– حرمان المسلمين من نصر الله، فغدوا مهزومين أمام قوى الاستكبار العالمي.

– فساد أغلب القيادات والنظم الإدارية والسياسية.

– غياب نظم العدالة الاجتماعية، وانتهاكات صارخة لحقوق الإنسان.

– غياب الأمن والأمان.

– غياب الاستقرارالسياسي، ثم الاقتصادي.

– وحتى الجماعات الإسلامية، من أحزاب وجمعيات، فإن أغلبها لم تتمكن من تحقيق المستويات المقبولة من طموحاتها الإصلاحية..

ـــ هبوط مستويات التعليم، والتعليم العالي، إلى أدنى المستويات.

– شيوع الجهل، وانغلاق العقل، والخلل في التفكير السليم.

– هجرة أغلب العقول والطاقات الإسلامية، من حملة الشهادات العليا، ورجال الأعمال المتمكنين، إلى خارج بلاد المسلمين.

وما كل هذه السلبيات إلا نتيجة طبيعية لسلوك الأفراد في مجتمعنا المسلم، الذين غالبيتهم العظمى:

– لم يعودوا يفقهون جوهر الدين، بل مراسيمه ومظاهره.

– ضعف وخلط في فقه الولاء والبراء لديهم.

–ضعف الالتزام عندهم، وعدم التفقه بأدب الاختلاف.

– تفشي سوء الخلق في الغالبية العظمى.. من غيبة، ونميمة، وفضول، وتدخل في شوؤن الآخرين .

– وكذا تفشي البغض، والحسد، حتى بين الغالبية العظمى من الملتزمين بالعبادات.

– والجشع، والتحايل في التعامل، باسم الحيل الشرعية، وتأويلات:الضرورات تبيح المحظورات.

– عدم الالتزام بالمواعيد، وعدم إدراك قيمة الوقت.

– تغليب المصلحة الشخصية على المصالح التي تخدم الإسلام، حيثما ظهر تعارض.

– وعموماً: عدم الإخلاص في العمل.

– والطامة الكبرى تكمن في إننا، وغالبيتنا الذين هم الأسوء خلقاً، نحسب أننا الأحسن خلقاً!.. والجنّة لا شكّ مضمونة!!

– بهذه السلبيات في السلوك، والأخلاق، والتعامل، ثم في غياب العقل والتفكير السليمين.. وفي أجواء انعدام الأمان، والإنعاش الاقتصادي، وشيوع الفساد الإداري والسياسي.. والآخر (غير المسلم) يطّلع ويرى هذا الواقع المخزي، فكيف له

– لهذا الآخر غير المسلم– أن يقبل دعوة المسلم له إلى الإسلام، وهو يرى هذا المثال غير الصادق أمامه؟!

كيف لهذا الآخر (غير المسلم) أن يتنازل عن حقوقه، وإنسانيته، وهو يتمتع بصيغ أفضل من الحقوق والعلاقات الإنسانية، وهو يعيش في كنف نظم في بلاد غير إسلامية؟! كيف لهذا الآخر غير المسلم أن يقبل دعوة من لا يمثلون الإسلام، عقيدة وسلوكاً وأخلاقاً، بينما يرى من بني جنسه، من غير المسلمين: العدالة، والصدق، وحسن الخلق.

– إذاً، من ندعو إلى هذا الواقع المّر؟.. هل ندعو غير المسلمين إلى الإسلام، فيرون هذا الواقع المتدهور للمسلمين، فينفروا من الإسلام؟!.. أليس هذا ظلماً بحق الإسلام، وبحقّ الإنسانية، التي هي في أمسّ الحاجة الآن إلى الإسلام، وإلى سماحته، وسمو أخلاقياته؟!.. أليس الأولى أن نبدأ ببناء ديارنا، قبل أن نبدأ حتى بالتفكير في بناء ديار الآخرين؟!.. وإذا لم نبن دولة الإسلام في نفوسنا، فهل يحقّ لنا أن ندعو إلى بنائها في نفوس الآخرين؟..

– هذه دعوة مخلصة إلى مخططي الدعوة، وإلى الدعاة الميدانيين خاصة، وإلى كل العاملين في المؤسسات والمنظمات الإسلامية، لأن يعيدوا حساباتهم، ويراعوا مبادىء فقه الأولويات، فيبدأوا بالأهم قبل المهم.

فقد آن الآوان أن نبدأ بدعوة أنفسنا إلى الإسلام العظيم، قبل أن ندعو الآخرين إليه.. فإن صلح أمرنا، فلا شك أن يؤدي ذلك إلى إصلاح الآخرين..

وإذاً: آن الآوان أن تعيد مؤسسات الدعوة الإسلامية النظر في خططها، وتغيّر أهدافها، وتركّز جل طاقاتها، وإمكانياتها، وتبدأ أول ما تبدأ بالدعوة بين دعاة المسلمين أنفسهم، ومن ثم رسم السياسات البناءة، التي من شأنها أن تدعو المسلمين إلى التمسك الجادّ بقيم وأخلاق الإسلام العظيم. فإن

رسخ بناؤنا بعدئذ، وفقط بعدئـذ، يحـقّ، بـل يتوجب، حينئذ، دعوة الآخرين إلى الإسلام.

تسلسل في أولويات الـدعوة، ليثمـر عـن تمكين ونصر..

وإلاّ فليس إلاّ هزيمة وذلّ وعسر..

ولا مجال لانتظار المعجـزات.. فـإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

وذكّر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين..

وإذ لا يأس مـن رحمـة الله.. فالأمـل بـالله كبير..❐

آن الأوان أن ندعو المسلمين إلى الإسلام لا أن ندعو الآخر.. ذلك لأن المسلمين في الواقع العملي عموماً أصبحت عقيدتهم مغايرة لما أمر به الله ورسوله.. بعيدة عن ما جاءت به تفاصيل شريعة الإسلام، وأصبح تعامل أغلب المسلمين بعضهم مع بعض أولاً، ومع غير المسلمين ثانياً، مخالفاً لما أمر به الله ورسوله. إذ لم نعد نمثلّ أخلاق الإسلام العظيم، ما يجعلنا مؤهلين الآن لدعوة الآخر إلى الإسلام.. ففاقد الشيء لا يعطيه..

الهوامش:

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٣) الحـديث أخرجـه الطبرانـي في المعجـم الأوسط: ١/ ١٤١ .

(٤) الحديث رواه أحمد بن حنبل مرفوعاً.

(٥) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، نهج البلاغة: ٦٤٠ .

(٦) حديث حسن، أخرجه الترمذي عـن أبـي هريرة: ٦/ ٢٦٦.

حل جدل المكونات من منظور قرآني

(مبدأ التعارف مفتاح الحل وكلمة السرّ)

محمد رؤوف محمد

بعد مئة عامٍ مضت، لم تتمكن الأمّة على مستواها العام، ولم تتمكن الحكومات والدول، على مستواها الخاص القطري،من الوصول إلى الحل الجذري لتجاوز مشاكل التنوع العرقي والطائفي، بل زاد الطين بلّةً، فالتنوع بدل أن يكون عنصر القوة والإغناء، والتطور والثراء، صارسبباً ووسيلةً للإفقار والافتقار، والتشرذم والانكسار.. فالتنوع العرقي والطائفي والثقافي، في غياب القيم القرآنية الأصيلة، التي تشرح وتؤصل مبدأ التعارف ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، لتجسيد مبدأ التكريم للإنسان:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.. وفي غياب قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق الدولية، صارتْ حقوقُ المكّونات، والأقليات، والطوائف، جدلاً عقيماً، ثم أصبحت مشاكل وملفات ساخنة، ثم تحوّلتْ الى أجندات وأوراق إقليمية، وأحياناً دولية، حتى وصلت الى مرحلةٍ لم يعد في مقدور أية دولةٍ أو نظامٍ أوحكومةٍ حلّها.

لوأقررْنا – فرضاً– أن المكونات العرقية، والمذهبية، والطائفية، والثقافية، خلال القرون الثلاثة عشر الماضية، لم تكن لديها، أو معها، عُقدة الوجود أو التواجد، أو المناصبِ، أو الكيان على أرضها، بأيّ صيغةٍ كانت، حسب الفترات المختلفة..فكلّ تلك الأحوال، والصيغ، ترجعُ إلى القيمة والمبدأ القرآني (التعارف)، هذه القيمة التي يمكن أن نجعل منها أساساً من أُسس الدستور،وحصناً من حصون السلم الاجتماعي، ورابطاً من روابط وحدة الأمّة..

ولكن مع الأسف (وليس للأسف موقع ومقام في السياسة وإدارة الدولة والحياة) لا الدول، ولا الحكومات، ولا القادة، بأنواعها، ولا العلماء، بأشكالها وأصنافها، لم ينتبهوا إلى ذلك.. فلم يرجعوا إلى أسس التعارف ذات

المغزى الفطري والغريزي للإنسان والأمم والشعوب والأديان، ولم يستسلموا للقيم الديمقراطيةوأساسيات الدولة الحديثة.. فوصلت الأمّة إلى ماوصلت إليه الآن..

فالحل مازال واحداً من اثنين: إمّا:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، فالخطابُ واضحٌ لا يحتمل التأويل، ولا مجال للتحوير والتبديل: فالتنوع العرقي، أو الثقافي، سنّةٌ كونيةٌ، وسنّةٌ جعليةٌ راسخة، ولا تبديل لخلق الله.. فجعلُ الشعوب والأقوام، كجعل الليل والنهار، وكذلك كجعل الجبال الراسيات. فأيةُ خطةٍ أو محاولةٍ لطمسِ السنن الجعلية، بائسةٌ، وهي صراعٌ مع إرادة الخالق (سبحانه)..

وأما المراجعة، فكراً وسياسةً وسلوكاً، مع الديمقراطية وحقوق الإنسان، و عدم الاستسلام (أكثر من هذا القرن) لجدار الخوف من الحرّية والتعددية والتنوع.. فإن كانت الأمّة على حالها، فلترجع إلى ماكانت عليه خلال ١٣ قرناً. وإن كانت الأمّة مكتوفة الأيدي، ومنزوعة الإرادة، فلتقبل الديمقراطية الحقيقية، ولا عيب في الديمقراطية، إنْ نظرنا إليها منْ المنظور الذي يقول إن الديمقراطية عبارة عن نتاج جهدٍ بشريّ، تحمل في قلبها وطيّاتها قصص الحروب والاستعباد، وحملتْ معها الحرية والكرامة.. فالأمور بمقاصدها ومآلاتها، ومنطق القرآن والتوراة والإنجيل يقول:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، فلا وقت للانتظار.. فاختاروا واحداً منهما: إمّا العمل بمقتضى (لِتعارفوا)، للوصول إلى مغزى ومقصد﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، أو العمل بمقتضى معايير الديمقراطية وحقوق الإنسان، والعهود الدولية المتعارف عليها.. وماالاستفتاء الشعبي حسب الدساتير والقوانين، إلاّ آليةٌ من آليات احترام إرادة الإنسان وحريته، وحفظ كرامته وحقوقه.. فاليوم وبعد قرون من الخدمات الجليلة التي قام بها الشعب الكوردي تجاه الأمة الإسلامية، وبعد مئة عامٍ من تقسيمه، يرفع هذا الشعب مرافعته الحقة من أجل حريته وكرامته..ولم نسمع من دولةٍ أجنبيةٍ معاداة هذه المرافعة.. ولكن كلما نتحدّث أو نتحاور مع أية دولةٍ أجنبية تقول: إنْ كانت لديكم مشاكل أو عوائق مستقبلية، فهي مع بغداد، أو دول الجوار العربي، أو الإسلامي.. فنقول: يا دول الأمة، تعالوا نحتكم إما إلى القرآن، كي نتفق على التعارف وآلياته، أو نحتكم إلى أسس الديمقراطية وحقوق الإنسان❐

في ظلال دعاء سيدنا (يونس) - عليه السلام -

د. دحام إبراهيم الهسنياني

لقد أرسل الله سيدنا (يونس)عليه السلام إلى أهل (نِيْنَوى)، وهي من أرض الموصل، عاصمة الدولة الآشورية، التي تمكنت من بسط سلطانها على كثير من بلاد آسيا.. وكانت غنية موفورة الغنى، لكن ذلك لم يقدها إلى الدين الحق وعبادة الله وحده، بل قادها إلى الانحراف عن صراط الله المستقيم.. فأرسل الله سيدنا (يونس)إلى هؤلاء القوم،الذين كانوا يعبدون الأصنام، ويسجدون للأوثان" فحمل علم التوحيد، ودعا القوم إلى عبادة الله الفرد الصمد وحده.

ودهش القوم وهم يسمعون كلاماً لم يألفوه، وقالوا له ما قاله كل قوم من المشركين لرسولهم: لقد عبد آباؤنا هذه الآلهة، ونحن نسير سيرهم، فنعبدها كما عبدوها!!

فكذبوه، ولم يستجيبوا لدعوته، فضاق بهم ذرعاً، وخرج من بين ظهرانيهم غاضباً عليهم، متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث ليال،

قبل أن يأمره الله ﷻ بالخروج. وظن أن الله ﷻ لن يؤاخذه على هذا الخروج، ولن يضيّق عليه بسبب تركه للقرية، وهجره لأهلها، قبل أن يؤمر بالخروج.

فلما خرج، وتحقق قومه من نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، فتضرعوا، وبكى الرجال والنساء، فكشف الله عنهم العذاب.

أما (يونس)، فقد سار حتى وصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة على سفر، فتوسم أهلها فيه خيراً، فأركبوه، فلما توسطوا البحر، هاج بهم واضطرب، فاستهموا فيما بينهم على أن من وقع عليه السهم ألقوه في البحر.فوقع السهم على (يونس)، فألقوه فالتقمه الحوت بأمر الله، وتمت المعجزة، وسار الحوت بـ(يونس) حيًا، يُسبِّح الله ويستغفره، فاستجاب الله له، ونجّاه من الغمّ، ثم قذف به الحوت في العراء، على ساحل البحر، وهو سقيم.

وعاد (يونس)إلى قومه، فوجدهم مؤمنين، فلبث فيهم يعلمهم، ويدلهم على الله، ومتعهم الله مدة إقامة (يونس) فيهم، وبعده، آمنين مطمئنين.

وقد ذكر الله ﷻ مدينة (الموصل) في القرآن الكريم، وأثنى على أهلها. قال الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاّ قَوْمَ يونس لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ**﴾[١].

قال القرطبي: "إن قوم (يونس)عليه السلام كانوا بنينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم (يونس) يدعوهم إلى الإسلام، وترك ما هم عليه... فلما آمنوا، لم يقع بهم العذاب... فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء.."[٢].

ونعود إلى دعاء سيدنا (يونس)عليه السلام: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

هذه الدعوة من الدعوات العظيمة المباركة في كتاب ربنا جل شأنه، دعاء (يونس)عليه السلام.. وقد قصّ لنا كتاب الله ﷻ في عدّة مواضع عنهم، كما في هذه السورة، وفي سورة (الصّافّات)، وفي سورة (القلم)، دلالة على أهميتها، لما فيها من الحكم، والفوائد الجليلة، في مصالح الدين والدنيا والآخرة. وقد ذكرت لنا التفاسير: أن الله ﷻأرسله إلى قومه، فدعاهم إلى الله ﷻ بالإيمان به، فأبوا عليه، ولم يؤمنوا، وتمادوا في كفرهم، فوعدهم بالعذاب بعد ثلاث، ثم خرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، قبل أن يأمره الله ﷻ، فظنّ أن الله ﷻ لن يقضي عليه عقوبة ولا بلاء. فلمّا تحقّقوا من ذلك، وعلموا أنّ النبيَّ لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم... ثمّ تضرّعوا إلى الله ﷻ وجأروا إليه... فرفع الله عنهم العذاب.وأما (يونس)عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع القوم في السفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم... فوقعت القرعة على (يونس)، فأبوا أن يُلقوه، ثم أعادوها ثلاث مرات، فوقعت عليه، قال ﷻ: ﴿**فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾، فألقى بنفسه في البحر، فأرسل الله ﷻ من البحر حوتاً عظيماً، فالتقم (يونس)، وأوحى الله جلَّ شأنه ألاّ يأكله، بل يبتلعه، ليكون بطنه له سجناً"[٤].

فاستغاث بربه السميع العليم، الذي لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض، مهما دقّت وخفت، فأنجاه الله ﷻ، كما هي سنته مع الموحدين المخلصين الداعين.ثم قال: ﴿**وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾: "يقول جلّ ثناؤه: وكما أنجينا (يونس) من كرب الحبس في بطن الحوت في البحر، إذ دعانا، كذلك

ننجي المؤمنين من كربهم، إذا استغاثوا بنا، ودعونا"[٥].

دعاء سيدنا (يونس) سبب لاستجابة الدعاء

ان مناجاة سيدنا (يونس بن متى) – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – هي من أعظم أنواع المناجاة لاستجابة الدعاء وقبوله. ويهمنا أن نتوقف عند تعقيب القرآن في الآية: ﴿**وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾، أيْ: حين يأخذون بالتسبيح، صلاةً وذكراً ودعاءً، فهي سُنَّةٌ ماضية، وذكرى للعابدين.. ونريد أن نؤكد هنا، أن النجاة من ظلمات البر والبحر بيد الله وحده، فهو الذي ينجيكم منها، ومن كلِّ كَرْب، حين تَدْعُونه تضرعاً وخُفية" لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين.. وهذه البشارة، والوعد العظيم، الذي لا يتخلف من الله ربّ العالمين، لكل مؤمن ومؤمنة، إذا وقع في الشدائد والهموم، فدعا ربه القدير بهذه الدعوة العظيمة، بصدقٍ وإخلاصٍ، أن ينجيه ويفرج عنه.

وجاءت هذه البشارة كذلك عن سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد ﷺ، حيث قال: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ**﴾، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ)[٦].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ: (أَلاَ أُخْبِرُكُمْ أَوْ أُحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلاَءٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا دَعَا بِهِ فَفَرَّجَ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: بَلَى، قَالَ: دُعَاءُ ذِي النُّونِ!)[٧].

وعَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى اسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى؟ الدَّعْوَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا (يونس) حَيْثُ نَادَاهُ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ كَانَتْ لِـ(يونس) خَاصَّةً، أَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللهِ عز وجل: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾)[٨].

قال الطبري: المعنى: كما أنْجَيْنَا (يونس) مِنْ كَرْب الْحَبْس فِي بَطْن الْحُوت فِي الْبَحْر، إذْ دَعَانَا، كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَرْبهمْ، إذَا اِسْتَغَاثُوا بِنَا وَدَعَوْنَا[٩].

وقال رجل لأبي الدرداء رضي الله عنه: أوصني، فقال: (اذكر الله في السراء، يذكرك الله عز وجل في الضراء). وعنه أنه قال: (ادع الله في يوم سرائك، لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك).

وقال ابن كثير: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أيْ: إذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِد، وَدَعَوْنَا مُنِيبِينَ إلَيْنَا، ولا سِيَّمَا إذَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاء فِي حَال الْبَلاء[١٠].

قال ابن القيم: "أمّا دعوة ذي النون، فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربّ ﷻ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه، ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمّ والغمّ، وأبلغ الوسائل إلى الله ﷻ في قضاء الحوائج"(١١).. فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويخبؤها بجهده، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه.

وقال السعدي: إن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه، وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء، أن الله يشكر له ذلك، ويعرفه في حال الشدة، بكشفها بالكلية، أو تخفيفها. ولهذا قال في قصة (يونس):﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾(١٢).

وقال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء، يذكركم في الشدة. إن (يونس) عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله ﷻ، فلما وقع في بطن الحوت، قال الله ﷻ: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾(١٣).وإن (فرعون) كان طاغياً ناسياً لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله ﷻ: ﴿**آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِين**﴾(١٤).

يقول (بديع الزمان سعيد النورسي): "إن مناجاة سيدنا (يونس بن متى)– على نبينا وعليه الصلاة والسلام – هي من أعظم أنواع المناجاة، وأروعها، ومن أبلغ الوسائل لاستجابة الدعاء وقبوله.. وسر هذه المناجاة العظيم هو: إن الأسباب المادية قد هوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً، فلم تحرك ساكناً، ولم تترك أثراً، وذلك لأن الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الحالة، ليس إلاّ ذلك الذي تنفذ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر، وتستولي على الليل وجو السماء" حيث أن كلا من الليل الحالك، والبحر الهائج، والحوت الهائل، قد اتفق على الانقضاض عليه، فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، ولا يوصِله إلى ساحل السلامة بأمان، إلاّ من بيده مقاليد الليل، وزمام البحر والحوت معاً، ومَن يسخّر كل شيء تحت أمره.. حتى لو كان الخلق أجمعين تحت خدمته عليه السلام، ورهن إشارته، في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشيء!.

أجل لا تأثير للأسباب قط.. فما أن رأى عليه السلام بعين اليقين ألاّ ملجأ له من أمره ﷻ إلاّ اللواذ إلى كنف مسبب الأسباب، انكشف له سرُّ الأحديّة من خلال نور التوحيد الساطع، حتى سخرتْ له تلك المناجاةُ الخالصة، الليلَ والبحرَ والحوت معاً، بل تحوّل له – بنور التوحيد الخالص – بطنُ الحوت المظلمإلى ما يشبه جوف غواصة أمينة هادئة تسير تحت البحر، وأصبح ذلك البحر الهائج بالأمواج

المتلاطمة، ما يشبه المتنزه الآمن الهادىء، وانقشعت الغيوم عن وجه السماء – بتلك المناجاة –، وكشف القمر عن وجهه المنير،كأنه مصباح وضيء يتدلى فوق رأسه.. وهكذا غدت تلك المخلوقات التي كانت تهدده وترعبه من كل صوب، وتضيّق عليه الخناق، غدت الآن تسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب إليه بالود والحنان، حتى خرج إلى شاطىء السلامة، وشاهد لطف الرب الرحيم، تحت شجرة اليقطين[١٥].

ما أحوج المسلمين اليوم إلى دعاء سيدنا (يونس)

فهذه الدعوة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾، هي الكلمات التي دعا بها (يونس)عليه السلام وهو في بطن الحوت، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة يارب صوت ضعيف معروف، من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا:لا يارب، ومن هو؟ قال: عبدي (يونس). قالوا: عبدك (يونس) الذي لم يرفع له عمل متقبل، ودعوة مجابة. قالوا: يارب،أولا ترحم ما كان يصنع في الرّخاء، فتنجيه من البلاء. قال: بلى. فأمر الحوت، فطرحه في العراء[١٦].

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾: بـ(الفاء): التي تفيد التعقيب دون مهلة، وبالإجابة الواسعة العظيمة، التي يشير إليها (الألف، والسين، والتاء)، التي تفيد المبالغة[١٧].فَاسْتَجَبْنا لَهُ: أيْ: دعاؤه. وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ، يعني: بأن قذفه الحوت إلى الساحل. قيل لم يقل: (فنجيناه)، كما قال في قصة أيوب عليه السلام: ﴿فَكَشَفْنا﴾، لأنه دعا بالخلاص من الضر، فالكشف المذكور يترتب على استجابته، و(يونس)عليه السلام لم يدع، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته. وردّ بأن (الفاء) في قصة أيوب تفسيرية. والأول دعاء بكشف الضر، وتلطف في السؤال[١٨].

والاستجابة مبالغة في الإجابة، وهي إجابة توبته مما فرط منه، وإجابة دعائه الذي دعاه في ضمن الاعتراف، لإظهار التوبة على ألطف وجه وأحسنه[١٩].

وقوله ﷻ: ﴿فاستجبنا له﴾، أيْ: دعاؤه الذي دعاه في ضمن الاعتراف، وإظهار التوبة على ألطف وجه وأحسنه. حتى قال بعض أهل العلم: إن ذلك اسم الله الأعظم. قال الآلوسي في تفسيره: "وقد شاهدت أثر الدعاء به، ولله ﷻ الحمد، حين أمرني من أظن ولايته من الغرباء المجاورين في حضرت الباز الأشهب، وكان قد أصابني من البلاء ما الله أعلم به"[٢٠].

فيا أيها المظلوم والمغلوب، ويا أيها الملهوف والمكروب، ويا أيها المجروح والمنكوب، لا تيأس، وإن توالت عليك الخطوب، وسدت في وجهك الدروب، فإن

علام الغيوب، وغفار الذنوب، وستار العيوب، ومقلب القلوب، سيفرج عنك الكروب، ويحقق لك المطلوب، كما كشف الضر عن أيوب، وردّ يوسف على يعقوب،ونجّى يونس من بطن الحوت..

وقوله ﷻ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات[٢١]، ونجينا عبدنا الصالح مما هو فيه من الغمّ، الذي ناله حين التقمه الحوت، بأن قذفه إلى الساحل. والإنجاء وقع حين الاستجابة،إذ الصحيح أنه ما بقي في بطن الحوت إلا ساعة قليلة، وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت، حتى خرج إلى قرب الشاطئ، فتقيأه، فخرج يسبح إلى الشاطئ[٢٢].

وفي قوله ﷻ: (**وكذلك ننجي**):إن كلمة (**نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**) تعطينا الأمل بأننا مهما فرطنا في جنب الله، فإن باب الاستغفار مفتوح أمامنا، ورحمة الله قابلة لأن تسعنا، فلا داعي لليأس والقنوط.

لقد دلت هذه الآية، بما لا يدع مجالاً للشك،على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم، فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم.وذلك حتى لا يظن أحد أن أمر الإجابة قاصر على الأنبياء والمرسلين.. وقد كان الدعاء في الشدائد والملمات، وملاقاة العدو، بل حتى في السراء، من دأب نبي هذه الأمة عليه السلام، وهو من جعل الله ﷻ لنا فيه القدوة.

فمن مسّه الضر في فتنة من الفتن، وفي ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت، ولا يتزعزع، وليستبق ثقته برحمة الله، وعونه، وقدرته على كشف الضراء، وعلى العوض والجزاء. فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة، ويقنط من عون الله له في المحنة، حين تشتد المحنة، فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء، وليذهب بنفسه كل مذهب، فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء: ﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾[٢٣].

والذى ييأس عند الضر من عون الله، يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء، إلا أنه لا سبيل في احتمال البلاء، إلا بالرجاء في نصر الله، ولا سبيل إلى الفرج، إلا بالتوجه إلى الله، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر، والكفاح للخلاص، إلا بالاستعانة بالله. وكل حركة يائسة، لا ثمرة لها ولا نتيجة، إلا زيادة الكرب، ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه، بغير عون الله.

والشواهد على أن الدعاء الخالص لله ﷻ تفرج عن الإنسان كربة السجن كثيرة، ورجالها أنبياء ورسل ودعاة وصالحون.. فهذا هو الإمام (أحمد بن حنبل) رحمه الله ﷻ يعاني هذه الكربة، لإصراره على كلمة الحق، والثبات عليها، أو الموت دونها، فكانت ثمرة موقفه هذا أن أخرجه الله من محنته وكربته، عزيز النفس، ينهل من علمه الصافي علماء الأمة، وتكسب من بعده الأمة العقيدة السليمة، والسنة النبوية الصحيحة، وأصبح إمام أهل السنة والجماعة في عصره، وينسب إليه مذهب الحنابلة في الفروع.

لذلك كان يقول بعض السلف:

١. عجبت لمن أصابه ضر، كيف يغفل عن قول الله: ﴿**أَنّي مَسّنِيَ الضرّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ**﴾[٢٤]. والله ﷻ يقول: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرّ**﴾[٢٥].

٢. وعجبت لمن أصابه هموغم، كيف يغفل عن قول الله: ﴿**لاّ اله إلاّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنّي كُنتُ مِنَ الظّالِمِينَ**﴾[٢٦]. والله ﷻ يقول: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذالِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢٧].

٣. وعجبت لمن يخافشيئا من السوء، كيف يغفل عن: ﴿**حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[٢٨]، والله ﷻ يقول: ﴿**فَانْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء**﴾[٢٩].

٤. وعجبت لمن يمكر به الناس، كيف يغفل عن:﴿**وَأُفَوّضُ أَمْرِى إِلى اللّهِ إِنّ اللّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[٣٠]، والله ﷻ يقول: ﴿**فوقَاهُ اللّهُ سَيّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوء الْعَذَابِ**﴾[٣١].

٥. وعجبت لمن يرغب في الجنة، كيف لا يقول: ﴿**ما شاءَ اللّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**﴾[٣٢]، لأن الله ﷻ يقول: ﴿**فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ**﴾[٣٣].

فواجب على العبد، إذا ضاقت به ضائقة، أو أتاه حادث، أو أتاه هم وغم، أن يكرر هذا الدعاء، ويجعلها ملازمة له في دعائه كله، ويقدمها قبل أن يدعو أي دعوة، فإنه بإذن اللّه فتح عظيم، يستجاب له، بإذن الله ﷻ.

من وسائل دفع الهموم والغموم وكشف الكروب في دعاء سيدنا (يونس)عليه السلام

١. الإيمان بالله، وتوحيده:

هذه الدعوة فيها من كمال التوحيد، والإيمان بالله ﷻ، الذي ينبغي لكل داع لربه أن يضمن هذه المضامين في أدعيته.لذلك بدأ (يونس)عليه السلام بكلمة التوحيد في دعائه. لأنها العروة الوثقى وعلامة الإيمان، قال ﷻ: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قلبه**﴾، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات. "فمن وَطّنَ قلبَه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس

اضطرب،واشتد به القلق.. فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب في التوحيد، ودعوة المؤمن التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه، في التوحيد".. فكأنه يقول: إن تعذبني فبعدلك، وإن تغفر لي فبرحمتك.. كذلك تضمّن هذا الدعاء الجليل صدق العبودية للّه ﷻ ربّ العالمين، من كل الوجوه" "فإن التوحيد والتنزيه يتضمّنان إثبات كل كمال لله ﷻ ربّ العالمين، وسلب كلّ نقصٍ، وعيبٍ، وتمثيلٍ، عنه. والاعتراف بالظلم يتضمّن إيمان العبد بالشرع، والثواب، والعقاب، ويوجب انكساره، ورجوعه إلى الله ﷻ، واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربّه ﷻ. فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف"[٣٤].

وكأنّ لسان حاله يقول: أي يا ربّ، أنت الواحد المنفرد بالألوهية، المنزّه عن كل نقصٍ وعيبٍ، ومن ذلك أن ما وقع لي ليس بظلم منك، فأنت الكامل في أسمائك، وصفاتك، المنزّه عن كل سوء، فإني ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، بتعريضي للهلاك. فتضمّن هذا الإقرار: طلب الغفران منه جلّ وعلا، والتجاوز عنه، وإنقاذه ممّا هو فيه من الكرب، والشدة، بألطف الكلمات. وفي هذا الدعاء من دقائق الأدب، وحسن الطلب، ما يوجب استجابته، منها: ذكر ظلمه لنفسه، وسلك نفسه مسلك الظالمين لأنفسهم، ولم يطلب من الله بصيغة الطلب الصريح أن يغفر له ذنبه" لاستشعاره أنه مسيء ظالم، وهو الذي أدخل الضر على نفسه، وأنه ﷻ لم يظلمه، فتضمّن الطلب على ألطف وجه[٣٥].

إن من ثمرات الإيمان أن الله يدفع عن المؤمنين جميع المردة، وينجيهم من الشدائد. كما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[٣٦]، أيْ يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم شر شياطين الإنس، وشياطين الجن، ويدفع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ إذا وقعوا في الشدائد" كما أنجينا (يونس).وكما قال الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾[٣٧].

فالمؤمن المتقي ييسر الله له أموره، وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب، ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا" ويرزقه من حيث لا يحتسب. وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة[٣٨].

٢. التوبة والاستغفار والاعتراف بالذنب

فالاستغفار والتوبة من أعظم الأسباب لتفريج الهموم، وجلب الأرزاق، والخروج من المضائق. وقد كان شيخ الإسلام (ابن تيمية)- رحمه الله - يُكثر من الاستغفار، إذا أشكلتْ عليه مسألة. وهو يقول: "إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تُشْكِل عليّ، فأستغفر الله ﷻ... حتى ينشرح الصدر، ويَنْحَلّ إشْكال ما أشْكَل... وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك مِن الذِّكْر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي"(٣٩).

وكان (يونس) يَنُوحُ على نفسه فِي جَوْف الحوت، ويقول: إلهي من الجِبال انْزَلْتَنِي، ومن بين العِباد أَخْرَجْتَنِي، وفي البحار صَيَّرْتَنِي، وفي بَطْنِ الحُوتِ حَبَسْتَنِي، وبشُؤْم الزَلّةِ ابْتَلَيْتَنِي، فلو نَجَّيْتَنِي من سِجْنِك لأَعْبُدَنَّك عِبادَةً لم يَعْبُدْك أَحَدٌ من العالمين.

وقوله: ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾، دليل على أن التهليل والتسبيح يجليان الغموم، وينجيان من الكرب والمصائب، فحقيق على من آمن بكتاب الله أن يجعلها ملجأ في شدائده، ومطية في رخائه، ثقة بما وعد الله المؤمنين من إلحاقهم بذي النون في ذلك، حيث يقول: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٤٠).

٣. الصبر على تكاليف الدعوة، وعدم اليأس من هداية الناس

إن في قصة سيدنا (يونس)عليه السلام عظات باهرات، ولفتات ولمسات، ينبغي لكل مسلم يدعو إلى الله،أن يتأملها ويقف أمامها: فإنه عليه السلام لّما كذبه قومه، ولم يؤمنوا بدعوته، ضاق بهم صدراً" فلم يصبر على ما تتطلبه تكاليف الرسالة من الصبر والمصابرة.. لقد ترك قومه بعد أن غضب عليهم: فأوقعه اللّه في ضيق أشد. ولولا أنه تاب إلى ربه، واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه، لما وجد تفريجاً لذلك الضيق.

إن أصحاب الدعوة إلى الله لابد أن يصبروا على التكذيب والإيذاء، من أجل الدعوة، فإن ذلك - ولو كان ثقيلاً على النفس - هو بعض تكاليف الدعوة إلى الله.

إن المسلم لا ييأس من استجابة القلوب مهما لاقى من عنت وتكذيب وجحود وإيذاء.. فليس من طبيعة دعوته اليأس. فليحاول مرات ومرات بلا عدد ولا حصر" فقد يجعل الله هدايتهم على يديه!.

إن طريق الدعوة إلى الله ليس هيناً، واستجابة النفوس ليست يسيرة، ومهمة المسلم أن يقوم بإحياء قلوب الناس بكل وسيلة... وليس ذلك بالأمر اليسير.. إن من اليسير أن يغضب صاحب الدعوة على الناس الذين لم يستجيبوا لدعوته، فيهجر الناس،لكنه

يخسر خسارة كبيرة" إذ يخسر الدعوة إلى الله!.

إن نبي الله (يونس)عليه السلام لم يصبر على تكاليف الرسالة، فضاق صدراً بالقوم، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضباً، ضيّق الصدر، حرج النفس، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين. ولولا أن ثاب إلى ربه، واعترف بظلمه لنفسه، ودعوته، وواجبه، لما فرّج الله عنه هذا الضيق. ولكنها القدرة حفظته، ونجته من الغم الذي يعانيه.

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها.. وتكذيب الصادق الواثق، مرير على النفس حقاً، ولكنه بعض تكاليف الرسالة. فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات، أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا، ولا بد أن يكرروا الدعوة،ويبدأوا فيها، ويعيدوا.

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس، واستجابة القلوب، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عتو وجحود. فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة.. وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف.. ولو صبروا هذه المرة، وحاولوا، ولم يقنطوا، لتفتحت لهم أرصاد القلوب! إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً. واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة. فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم والأوضاع، يجثم على القلوب. ولا بد من إزالة هذا الركام.

ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة، ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة، ومن محاولة العثور على العصب الموصل.. وإحدى اللمسات ستصادف، مع المثابرة والصبر والرجاء. ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة، متى أصابت اللمسة موضعها. وإن الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري، فينتفض كله بأيسر مجهود، وقد أعيا من قبل على كل الجهود! وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة: جهاز الاستقبال، عند البحث عن محطة إرسال.. إنك لتحرّك المؤشر مرات كثيرة ذهاباً وإياباً، فتخطىء المحطة وأنت تدقق وتصوب. ثم إذا حركة عابرة من يدك، فتتصل الموجة، وتنطلق الأصداء والأنغام! إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال. وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المؤشر ليتلقى القلب من وراء الأفق. ولمسة واحدة بعد ألف لمسة، قد تصله بمصدر الإرسال! إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته، فيهجر الناس.. إنه عمل مريح، قد

يفثأ الغضب، ويهدىء الأعصاب.. ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟! إن الدعوة هي الأصل، لا شخص الداعية! فليضق صدره. ولكن ليكظم ويمض. وخير له أن يصبر، فلا يضيق صدره بما يقولون! إن الداعية أداة في يد القدرة. والله أرعى لدعوته وأحفظ. فليؤد هو واجبه في كل ظرف، وفي كل جو، والبقية على الله، والهدى هدى الله.. وإن في قصة (ذي النون) لدرساً لأصحاب الدعوات، ينبغي أن يتأملوه[٤١].

إن الصبر سلاح عظيم يستعين به الدعاة إلى الله، وهم يبلغون رسالة ربهم، ويحققون ما يريدون من هداية الناس. وما أروع ما قاله (ابن القيم): "أين أنت والطريق تَعِبَ فيه آدم، وناحَ لأجله نوح، ورُميَ في النار الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى أيوب، وزاد على المقدار بكاء داوود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ.. تزهو أنت باللهو واللعب:

فيا دارَها بالحزن إن مزارها
قريب، ولكنْ دون ذلك أهوال"[٤٢]

٤. التوكل على الله:

كما فعل (يونس)عليه السلام عندما وقع في البلاء، حيث لجأ إلى الله، وتوكل عليه وفوض أمره إليه" فكانت الثمرة زوال الكربة وانكشاف الغمة.

وحقيقة التوكل: أن يعتمد العبد على الله سبحانه وتعالى اعتمادًا صادقًا في مصالح دينه ودنياه، مع فعل الأسباب المأذون فيها. فالتوكل: اعتقاد، واعتماد، وعمل.

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ﴾

فلا ملجأ لأيّ هاربٍ أو ضائعٍ أو حائر إلاّ إليك، ولا ملاذ إلاّ أنت، فأنت القادر على كل شيء، والرحيم لكل مخلوق، والعليم بكل الخفايا، والمهيمن على الأمر كله، والغافر لكل ذنب، والمستجيب لكل داع، والمغيث لكل ملهوف، والمفرِّج عن كل مهموم ومكروب... وليس لي غيرك أسأله كشف ضري، والنظر في أمري، فأنت ربي وسيدي ومولاي وملاذي في كل الأمور، (**سُبْحَانَكَ**) إذ يختزن قلبي وعقلي ووجداني الإحساس بعظمتك في كل مواقع العظمة في مجالات التصور، وفي حركة القدرة في الواقع، في مظاهر الخلق والإبداع.. فيتحول ذلك إلى تسبيح منفتحٍ خاشعٍ مبتهلٍ إلى الله، **﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**، فقد ظلمت نفسي في تحركي، أو تقصيري في سبيل الدعوة، من غير قصد، ولا عمد. وها أنذا يا رب راجع إليك بكل قلبي وعقلي وحياتي، لتتقبلني بكل

لطفك ورضوانك ورحمتك، ولتكشف عني كل أجواء الحيرة والغمّ التي تغمرني بالآلام والمشاكل، فهل تستجيب لي؟ إنك أنت الذي تستجيب كل الدعوات لمن دعاك.

لذلك ينبغي علينا اليوم أن نتذكر هذا الدعاء، وأن نكثر منه، عسى الله أن يكشف عنا الضر، ويعطي كل إنسان مسألتَه، وينجينا من الغم. ولذلك، فإن الله ﷻ استجاب مباشرة لسيدنا (يونس)، ونجاه من الغم. لماذا؟ لأنه كان مؤمناً حقيقياً بالله ﷻ، وتذليل الدعاء بـ(كذلك) من الإنجاء الذي أنجي به (يونس)عليه السلام، أيْ مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من هموم، يحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة.. وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغم والنكد الذي يلاقونه لسوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم(٤٣).

يقول (سعيد النورسي): "فلننظر بنور تلك المناجاة إلىأنفسنا.. فنحن في وضع مخيف ومرعب أضعاف أضعاف ما كان فيه سيدنا (يونس)عليه السلام، حيث إن:ليلنا، الذي يخيم علينا، هو المستقبل.. فمستقبلنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة، يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً، وأشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا (يونس)عليه السلام، بمائة مرة..وبحرنا: هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذاً بحر مرعب رهيب بمائة ضعف رهبة البحر الذي ألقي فيه عليه السلام.وحوتنا: هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهو حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويمحقها. هذا الحوت أشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدنا (يونس)عليه السلام" إذ كان يمكنه أن يقضي على حياة أمدها مائة سنة، بينما حوتنا نحن يحاول إفناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت حقيقة وضعنا هذه، فما علينا إذاً إلاّ الاقتداء بسيدنا (يونس)عليه السلام، والسير على هديه، معرضين عن الأسباب جميعاً، مقبلين كلياً إلى ربّنا، الذي هو مسبب الأسباب، متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين إليه ﷻ، قائلين: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ**﴾، مدركين بعين اليقين أن قد ائتمر علينا –بسبب غفلتنا وضلالنا – مستقبلُنا الذي يرتقبنا، ودنيانا التي تضمنا، ونفوسُنا الأمارة بالسوء التي بين جنبينا، موقنين كذلك أنه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوف المستقبل وأوهامه، ولايزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يبعد عنا أضرار النفس الإمارة بالسوء، ودسائسها، إلاّ من كان المستقبل تحت أمره، والدنيا تحت حكمه، وأنفسنا تحت إدارته.

فما دامت هذه حقيقة وضعنا، فما علينا إلاّ أن نرفع أكفّ الضراعة إليه ﷻ متوسلين،

مستعطفين نظر رحمته الربانية إلينا، اقتداء بسرّ تلك المناجاة الرائعة، التي سخّرت الحوت لسيدنا (يونس)عليه السلام، كأنه غواصة تسير تحت البحر، وحولت البحر متنزهاً جميلاً، وألبست الليل جلباب النور الوضيء بالبدر الساطع. فنقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فنلفت بها نظر الرحمة الإلهية إلى مستقبلنا بقولنا: (لا إله إلاّ أنتَ). ونلفتها إلى دنيانا بكلمة: (سُبحانَكَ)، ونرجوها أن تنظر إلىأنفسنا بنظر الرأفة والشفقة بجملة: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، كي يعمّ مستقبلنا نور الإيمان وضياء بدر القرآن، وينقلب رعب ليلنا ودهشته إلى أمن الأنس، وطمأنينة البهجة. ولتنتهي مهمة حياتنا، ونختتم وظيفتها بالوصول إلى شاطىء الأمن والأمان، دخولاً في رحاب حقيقة الإسلام، تلك الحقيقة التي هي سفينة معنوية أعدّها القرآن العظيم، فنبحر بهاعباب الحياة، فوق أمواج السنين والقرون.."[44] ❐

الهوامش

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبد الله القرطبي الأنصاري (ت: ٦٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ٨/ ٢٨٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧ ــ ٨٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، للحافظ إسماعيل بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.: ٣/ ٢٦٤.

(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن، الإمام ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ٥/ ٢٧٦.

(٦) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم ٣٥٠٥، والنسائي، كتاب الجمعة، رقم ١٠٤١٧.

(٧) رواه النسائي، كتاب الجمعة، رقم ١٠٤١٦، والحاكم: ١/ ٥٠٥، وصححه.

(٨) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: ١/ ٦٨٥، وصححه.

(٩) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٥/ ٢٧٩.

(١٠) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٦٧.

(١١) زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام محمد بن أبو بكر ابن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، دار التوزيع والنشر الإسلامي، المكتبة القيمة، ط١، القاهرة: ٤/ ٢٠٨.

(١٢) سورة الصافات ١٤٣، ١٤٤.

(١٣) سورة الصافات ١٤٣، ١٤٤.

(١٤) سورة يونس: ٩١

(١٥) اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر - استانبول - ط: ١ (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م): ٦ – ٧.

(١٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، للحافظ بن كثير: ١٩٢/٣.

(١٧) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٥/ ٢٧٦.

(١٨) محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم، للعلامة جمال الدين القاسمي (ت: ١٩١٤م)، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ -١٩٥٧م : ٢١٧/٧.

(١٩) التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور (ت: ١٩٧٣م)، الدار التونسية، تونس، ١٤٠٥هـ -١٩٨٤م: ١٣٢/١٧.

(٢٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت: ١٩٢٤م)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م: ١١٢/١٧.

(٢١) تفسير القرآن العظيم: ١٩٣/٣.

(٢٢) التحرير والتنوير: ١٣٢/١٧.

(٢٣) سورة الحج، الآية: ١٥.

(٢٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٢٥) سورة الأنبياء، الآية: ٨٤.

(٢٦) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٢٧) سورة الأنبياء، الآية: ٨٨

(٢٨) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣

(٢٩) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(٣٠) سورة غافر، الآية: ٤٤

(٣١) سورة غافر، الآية: ٤٥.

(٣٢) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

(٣٣) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

(٣٤) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٤/ ٢٠٨.

(٣٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، مكتبة المعارف، الرباط.: ١٠/ ٢٤٧.

(٣٦) سورة الحج، الآية: ٣٨.

(٣٧) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٣٨) التوضيح والبيان: ٦٧.

(٣٩) العقود الدرية: ١٠.

(٤٠) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، محمد علي الكرجي القصاب، دار ابن القيم – دار ابن عفان، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣: ٣١١/٢.

(٤١) في ظلال القرآن، ، للأستاذ سيد قطب (ت: ١٩٦٠م)، دار الشروق، بيروت، ط٩، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.: ٢٣٩٤/٤.

(٤٢) الفوائد لإبن قيم الجوزية: ٤٢.

(٤٣) التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٣٤/١٧.

(٤٤) اللمعات لسعيد النورسي: ٨.

مرافئ

أعطني تنمية، واقمعني كما تشاء!

د.يحيى عمر ريشاوي

العبارة أعلاه خرجت من فم زميل أكاديمي ومثقف عراقي، متحسراً على ما وصلت إليه حال البلاد والعباد في العراق وإقليم كوردستان، من اقتصاد مدمر، وحياة يرثى لها! كنّا وإياه نتحدث عن حال بعض البلدان الخليجية، وما وصلت إليه من عمران وتنمية ورفاهية في العيش: رفاهية إلى حدّ التخمة، والترف الزائد، وانعكاس ذلك على حياة المواطن العادي، المدلل بمعنى الكلمة، في حين يعيش المواطن هنا، في (بلد الحضارة!)، تحت حكم ما يسمى بالتجربة الديمقراطية، والتعددية الحزبية، والمؤسسات البرلمانية، في ضنك من العيش، وحياة يندى لها جبين الإنسانية.. المواطن هنا تهدر كرامته، ويعيش الأمرّين: مرارة التحكم الحزبي والطائفي، ومرارة العيش مع قوت لا يموت.

قلنا، أنا وزميلي العراقي: من الحيف أن نوجه النقد – إلى حدّ الاستخفاف – بتجارب بعض الدول والحكومات، ووصف أنظمة الحكم فيها بالمتخلفة والرجعية، وغيرها من الألقاب، في حين ندعي بأننا نتداول السلطة، ونعيش أجواء الانتخابات والديمقراطية! بعض هذه الأنظمة – مع كل يقال عنها، وربما بعضه صحيح–، إلا أنها على الأقل فكّرت، فخطّطت، فأعدّت، فولدّت تنمية اقتصادية.. إلا أن أنظمتنا في الحكم فكّرت، وياليتها لم تفكر، وخطّطت، ولكن عينها كانت فقط على المكاسب الحزبية والطائفية المقيتة، فولدّت هذا المستوى المتدني من العيش للمواطن المسكين، وهذه الحالة من الاستبداد والفساد، بدل الرفاهية والتنمية.

الأنظمة الثورية في بعض البلدان العربية قضت على الأنظمة الملكية، وأخرجت الاستعمار، بحجة حياة أفضل للمواطن، ومساحة أكبر من الحريات! ولكن انظر إلى نتيجة هذه الشعارات، وانعكاسها على الحياة اليومية للمواطن، هنا، أو في أيّ مكان شئت..

ولعل المؤشر الاقتصادي، والمستوى المتدني من دخل الفرد، وهجرة آلاف الشباب، واستخفاف بعضهم بمكاسب (الثورة، والانتفاضة)، خير دليل على ما سبق القول، وعلى توصيف الحالة بهذه التشاؤمية المفرطة.. كل ذلك مقابل سيطرة فئة قليلة على خيرات البلد، واستغلال سلطتها لتوزيع المناصب والمكاسب، ومزيد من الترف والعيش (الملكي)! ولعل خير من وصف هذه الأحوال الشاعر (أحمد مطر)، حين يقول ساخراً:

(ما عندنا خبز ولا وقود.. ما عندنا ماء.. ولا سدود.. ما عندنا لحم.. ولا جلود.. ما عندنا نقود.. كيف تعيشون إذاً؟!.. نعيش في حب الوطن!)❐

الإقليم الكوردي واختلال توازن القوى!!

زيرفان البرواري
طالب دكتوراه / لندن

إن المعادلة السياسية في (إقليم كوردستان) تتجه نحو مزيد من التعقيد في ظل التجاذبات الإقليمية على حدود (الإقليم)، وكذلك الدفع بـ(أربيل) نحو التشتت في ظل المشاريع الإقليمية، ومفهوم التنافس على القوة في الشرق الأوسط بين الدول المحورية، خاصة إيران وتركيا. ونظرًا لتزايد النفوذ السياسي والعسكري للحكومة المركزية، بعد السيطرة على أغلبية المناطق التي كانت تحت سيطرة تنظيم (داعش) الإرهابي، تظل الخيارات السياسية لـ(الإقليم) محدودة في الداخل .

إن الوحدات الإقليمية المستندة على القوى الرئيسيّة في الشرق الأوسط، سوف تستخدم اللاعبين غير الدوليين، بمن فيهم الكورد، للحصول على مكتسبات ما بعد (داعش)،أو بالأحرى تحقيق أكبر قدر من المصالح في إعادة هيكلة الخريطة السياسية في الشرق الأوسط.

فالدور الإيراني في تزايد مستمر، وتظل السياسة الخارجية الإيرانية تحكمها الأجندة الدفاعية، القائمه على توسيع النفوذ الإقليمي عن طريق استخدام القوة التقليدية، من خلال دعم الميليشيات، وتعبئة العواطف الدينية، من أجل الحصول على رأي عام إقليمي حول المشروع الإيراني، وكيف أن المشروع يخدم الأقلية الشيعية في المنطقة! إلا أن المشروع – في الأساس – يستند إلى حقائق جيوسياسية تخدم المصالح الوطنية لـ(طهران) وحدها في الشرق الأوسط.

وفي الجانب الآخر، تتجه تركيا نحو تغيير سياستها الخارجية، من خلال تزايد استخدام

الآليـة الأمنيـة والعسـكرية، وتـبني سياسـة دفاعية قائمة على أسس تاريخيـة، مـن حيـث عدائية الجوار، من أجل تحقيق الأمن الـوطني، وحماية حدود الدولة التركية من الانقسام.

ففي ظـل المعطيـات الإقليميـة المـذكورة، وتعقيد الأمن الإقليمي،يظل (الإقليم) الطرف الأكثر تعرضـاً للمخـاوف الأمنيـة، والحـرب بالوكالة بين الدول الإقليمية، وذلك للتشتت الـداخلي، وتفـاقم الأزمـة الاقتصـادية، واستمرار الحكومة المركزية في فـرض سياسـة الأمر الواقع على (الإقليم)، فضلاً عن غياب الرؤية الاستراتيجية الكوردية في التعامل مـع الأزمـات الداخليـة والتحـديات الإقليميـة، وبـذلك يظـل مسـتقبل (الإقلـيم) مرهونـاً بسياسات إقليمية، وتفاهمات خارجية، قد لا تخدم الأحلام الكوردية في إقليم كوردستان.

فالأحزاب الحاكمـة، خاصـة الـديمقراطي الكوردستاني والاتحاد الوطني، قد اتفقتا على الاستفتاء الوطني حول تقرير المصير، في حـين تظـل الأحـزاب الأخـرى، خاصـة (حركـة التغـيير) و(الجماعـة الإسـلامية)، الأطـراف المعارضة لأي اسـتفتاء لا يسـتند علـى قـرار تشريعي صادر مـن البرلمـان.إلا أن (البرلمـان) تعد النقطة الجوهرية في تفاقم الأزمة السياسية بين الأحزاب الكورديـة، وأن الاتفـاق علـى إعادة تفعيل البرلمان لا يزال بعيد المنـال، مـن حيث الاتفاق الكوردي الكـوردي في إعـادة الحيـاة التشـريعية إلى مسـارها الـديمقراطي المستند على الإرادة الشعبية.

فالتأثير الإقليمي على القرارات الداخليـة في المشهد الكوردسـتاني، خاصـة التـدخلات الإيرانية والتركية، يعرقـل الجهـود والحلـول السياسـية للأزمـة السياسـية والاقتصـادية في داخل (الإقليم)، وفي ظل اسـتمرار التشـتت الـداخلي بـين الأطـراف الكورديـة،يظل الاسـتقرار السياسـي والاقتصـادي في (كوردستان) في خطر التعرض للسيناريوهات غير المرتقبة في المرحلة القادمة.

فالحشد الشعبـي، وتزايـد قـوة (العمـال الكوردسـتاني)، وتعامـل هـذا الحـزب مـع حكومـة بغـداد، تحـول (الإقلـيم) إلى سـاحة للتصفيات السياسية والعسـكرية بـين القـوى الإقليمية المهيمنة في المنطقة..كما أن التنـافس والصراع الكوردي- الكوردي في (الإقلـيم) يظـل احتمـالاً وارداً، في ظـل التـدخلات الإقليميـة، وتزايـد خطـر احتماليـة حـدوث الصـراع بـين القـوى الكورديـة بعـد وفـاة (نوشيروان مصطفى) زعيم حركة التغيير، وما قد تتعرض لـه الحركـة مـن تشـتت، وتوجـه بعض أعضائهاإلى تبني خيارات أكثر راديكالية تجاه القوى الرئيسيّة في (الإقلـيم).. فـالتوازن الـداخلي الكـوردي يظـل مختـلاً في ظـل التحـديات الخارجيـة والانكسـارات الداخلية❐

مهاترات الإخوة الأعداء ..

سعد سعيد الديوه جي

✍قبل نصف من قرن من الزمان كانت الصحافة المصرية والإذاعة سيدتا الموقف الإعلامي العربي آنذاك، وكان هذا التيار يصب في مسألة تحرير فلسطين والقدس. وإثارة النعرات ضد السعودية، ومن والاها، والتي كانت آنذاك تحتضن (الإخوان المسلمين)!

ولم يبق شيء من قاموس الشتائم إلا واستخدمته وسائل الإعلام المصرية، بقيادة الراحل (محمد حسنين هيكل)، ناهيك عن المصطلحات الرائجة آنذاك لكل من يخالف قائد الأمة: عملاء، رجعيون، أذناب، أمبرياليون.. إلخ، وصوت العقل غائب، والجيش المصري غارق في موحلة اليمن.

وفي الخامس من حزيران عام ١٩٦٧،صحونا على صوت المذيع المصري الشهير (أحمد سعيد) يبشرنا بقرب نهاية (إسرائيل)، وإذ خلال أسبوع تضيع

القدس، وماتبقى من فلسطين، وسيناء، والجولان.. وخرجت هذه الجوقة لتقول بأننا خسرنا معركة، ولم نخسر الحرب!

في أيامنا هذه تبدلت الأدوار، ولم تتبدل العقليات، وحلّ(الإرهاب)مكان (إسرائيل)! وهو في الحقيقة الواجهة البشعة لجزء من حرب شرسة على مناطق النفوذ، وعلى رؤوس أموال الخليج، ورساميلها، بين أوروبا، بزعامة (ألمانيا)، التي توظف فيها (قطر)، أكثر مما توظفه في (أمريكا)، بزعامة رجل الأعمل (ترامب)، الذي حقق مالم تحققه الحروب، في غزوته الاقتصادية الشهيرة.

ومايهمنا بأننا لم نتعلم شيئا مطلقاً خلال خمسة عقود، لابل إن ظاهرة المهاترات زادت قتامة، وتطورت بتطور وسائل الإعلام، فصارت البذاءة والسباب واللعن لها مفكروها ومنظروها، وبدل أن نقر بحتمية الاختلاف بيننا، غيّبنا عقولنا وراء الإرهاب، فصار وحشاً خرافياً لا يمكن تخيله.

وأقسى وأمرّ مافي مهاترات الإخوة الأعداء، في القرن الواحد والعشرين، نزول (علماء الدين)، ومؤسساته، إلى الساحة، وتسييسهم للدين على الطريقة الداعشية، ولكن بلون آخر..وهو أمر ليس له تبرير مطلقاً،إذ الدين براء من الخلافات السياسية.

لقد جعل هؤلاء الدين موضع استهزاء وسخرية، وهم يناصرون هذا، ويلعنون ذاك.. فهل سننتهي على فاجعة أخرى، أقسى من ضياع القدس! والخراب يعبث في العراق وسوريا وليبيا واليمن؟!! لننتظر خمسين سنة أخرى، ونرى ما سيحدث!❐

حساسية الروائي وذائقة المتلقي

خصائص علاقة متبادلة

علاء الدين حسن*
Aladin.hasan@gmail.com

✍.. في عالم الرِّواية، تطير في فضاءات الإنسان الرَّحيبة، ترى الإنسان كما هو بفطرته ومدركاته، تراه بخيره وشرِّه، تراه بقِمَّة نجاحه، تراه بذروة فشله..

هنا نتوقَّف مع كتاب صادر عن وزارة الثَّقافة والإعلام السّعوديَّة، ضمن سلسلة كتاب المجلَّة العربيَّة، يتحدَّث عن وقائع العلاقة الّتي تجمع بين الرِّوائيِّ وشخوصه الرِّوائيَّة، وكيفيَّة ولادة فكرة الرِّواية، وعمليَّة البناء الرِّوائي، وكذلك علاقة الرِّوائيِّ بتراث وتاريخ الرِّواية.

يقدِّم لنا الكاتب الرِّوائيُّ (عبد الباقي يوسف) في كتابه: (حساسيَّة الرِّوائيِّ وذائقة المتلقِّي)، أهمّ المحطّات الّتي يقف عندها الرِّوائيُّ في أثناء كتابة رواية جديدة " وبذلك فإنَّ هذا العمل المتميِّز، يُعَدَّ نوعاً مِن

المذكّرات" حيث يتحدَّث الأديب (يوسف) عن وقائع العمل والطُّقوس الرِّوائيَّة بالنِّسبة إليه، كما يسرد علاقته بقراءة الرِّواية، وكيف يقرأ الرِّوائيُّ رواية جديدة.

وتكمن أهميَّة هذا الكتاب أيضاً في أنَّ مؤلِّفه يتناول حساسيَّة أقطاب وأعمدة الرِّواية في العالم" مِن خلال بعض علاقاتهم الشَّخصيَّة، وأهمِّ أعمالهم الرِّوائيَّة.

ومنذ بدء القراءة" يُدخلنا القاص (عبد الباقي يوسف) إلى أجواء روائيَّة" فيجعلنا نشعر بأنَّنا نقرأ رواية جديدة، ولكنَّها رواية بالغة الخصوصيَّة والجماليَّة" لأنَّها تأتي على وقائع تفصيليَّة وتؤرِّخها.

يتناول الباحث في الفصل الأوَّل بعضاً مِن سيرته في كتابة الرِّواية، مثل قوله في باب (المؤلِّف والمؤلَّف): في الماضي كنَّا نرى كلمة / تأليف ظز/ على أغلفة الأعمال الرِّوائيَّة والقصصيَّة، ولكن في وقتنا الحاليّ تكاد تختفي تلك الكلمة، ويكتفي المؤلِّف أن يضع اسمه دون أن تسبقه كلمة تأليف" بل إنَّ البعض ينحرج إذا وضع هذه الكلمة جوار اسمه. وفي حقيقة الأمر" فإنَّ هذه الكلمة هي الأكثر تعبيراً عن مهمَّة الرِّوائيِّ والقصصي.

ويضيف (عبد الباقي) قائلاً: لقد اتَّضحت لي هذه الحقيقة فيما بعد، وتحديداً بعد أن قرأت أوَّل رواية كتبتها،فتبيَّن لي أنَّني قمت بعمليَّة تأليف بين مجموعة مِن أصدقائي المقرّبين، وأخرجتهم في شخص واحد هو بطل الرِّواية. كنت كلَّما قرأت ذاك البطل، رأيت ملامح وسمات وخصوصيَّات وحتَّى عبارات

أصدقائي هؤلاء، حتَّى أنَّني شعرت ببعض الحرج مِن أنَّ أحد أصدقائي سوف يرى جزءاً منه في تلك الشَّخصيَّة. كنت أرى بوضوح الأحداث الَّتي رووها لي، علاقاتهم الأكثر سريَّة، سلوكيّاتهم، وجهات نظرهم في أمور بالغة الحساسيَّة والإحراج. ومع كلِّ قراءة كان يتأكَّد لي أنَّ هذا / الزَّعيم / إنَّما هو كائن مؤلَّف مِن مزايا مجموعة أشخاص في الحياة، وهو ليس مِن كوكب آخر" بل لايستطيع الكاتب أن يأتي بشيء مِن كوكب آخر غير الكوكب الَّذي يعيش فيه، مهما رأى الآخرون بأنَّه يستعين بالخيال وفق مفاهيم متعدِّدة.

ويسترسل (يوسف) حديثه الماتع: ثمَّ كنت أنظر في شخصيَّة / زعيمة / الرِّواية" فأُراها تحمل مزايا وخصوصيَّات نساء عرفتهنّ: الأخت، ابنة الخالة، الحبيبة، الصَّديقة. امرأة/ مؤلَّفة / مِن كل تلك النّسوة اللَّواتي عرفتهنّ. عندذاك تأكّدت لي حقيقة واحدة،هي أنَّ الرَّاوي ينجح في مهمَّته على قدر نجاحه في أن يؤلِّف بين عدَّة أشخاص مِن الواقع في شخصيَّة روائيَّة، سواء كانت خيِّرة أو شرِّيرة.

كما أنَّه يمكن أن تأتي شخصيَّة ثريَّة مِن الواقع" فتتوزَّع خصالها ومزاياها على عامَّة شخوص الرِّواية. وتبيَّن لي في مرحلة لاحقة، أنَّ هذا الأمر أعانني كثيراًفي اجتناب الوقوع في سِيَريَّة الرِّواية، الّتي وقعت ضحيّتها أعمال روائيَّة كان يمكن أن تكون فذَّة" سواء في بلادنا أو في بلاد أخرى مِن العالم، فيحسّ القارئ أنَّه يقرأ سيرة ذاتيَّة، أو يقرأ مذكّرات، أكثر ممَّا يقرأ رواية.

إنَّها رواية الشَّخصيَّة المنغلقة الواحدة، الّتي تسعى للتَّعريف بهذه الشَّخصيَّة فحسب. وهذا يناقض روح الرِّواية، الّتي مِن أولى وظائفها الانطلاقة المفتوحة، والسِّباحة في مياه خطرة، واللّعب بالنَّار. وهذا ما لاحظته في فترة مبكرة مِن خلال أعمال بعض الكتَّاب،الّتي كادت تفتقر إلى التَّأليف، وتنفرد بامتياز في سرد سيرة ذاتيَّة وعلاقاتها بالآخرين، ولست أدري لماذا حينذاك ينتابني شعور بأنَّني أقرأ رواية ناقصة.

أصدَاء الشُّخوص الرِّوائيَّة :

يرى الكاتب في هذا الفصل أنَّ الرِّوائيَّ يتعامل مع شخوصه الرِّوائيَّة تعامله مع أشخاص الحياة، يتحاور معهم، يعلِّمهم، ويتعلّم منهم" إذن الرِّواية تعتمد على الشُّخوص، وعلى اللُّغة، الّتي تعبِّر عن هذه الشُّخوص، واللُّغة في الرِّواية هي مِن أعمدة المقام الرِّوائي.

إنَّ هؤلاء الشُّخوص في الرِّواية يتشكّلون في تربة أعماق الرِّوائي، كلُّ شخصَّية معبَّأة بحالة ما، وهي رسول هذه الحالة. إنَّ هؤلاء جميعاً يسعون لأن تكون الشَّمس أكثر

ضوءاً، وأن يكون اللّيل أقلّ ظلمة. وهم جميعاً يحملون سمات الأبطال، مهما كانت أدوارهم ومواقعهم.

ومـمَّا يقوله (يوسف): الإبداع العظيم يحتاج لشخصيَّة عظيمة غير مهزوزة، ورغم الاهتزاز في بعض تصرّفات (تولستوي)" إلا أنَّه كان متمكِّناً في قوَّة النَّفاذ إلى العمق البشريّ.. لقد كانت شخصّيته قويَّة بشكل ملفت. ورغم نوبات صرع (دستويفسكي)، فقد كان كبيراً في مواقفه الأدبيَّة والاجتماعيَّة، وكان مخلصاً بشكل مذهل لأدبه" بل ويعتبر الأدب قيمة كبرى في حياته. ورغم هذا، فإنَّ الأديب يمتلك شيئاً مِن الميل إلى الحياة" حتَّى يصقل روحه، ويلبِّي حاجاته الذَّاتيَّة.. إنَّه يرغب في أن يجرِّب كلَّ شيء، ويرى كلَّ شيء.. باختصار إنَّه يودُّ أن يرى مِن الحياة كلَّ شيء" ليمنحها كلَّ شيء، وعلى هذا الإيمان يمضي.

أسـرَار الرِّواية النَّسويَّة:

وتبقى أبواب الكتاب متماسكة" بحيث تتسلسل وفق خطّ تصاعديّ روائيّ متلاحم، فننتقل مع الكاتب إلى الجانب الآخر مِن الرِّواية، وهي الرِّواية النَّسويَّة" حيث يتحدث الكاتب عن أسرار وخصائص الرِّواية الَتي أبدعتها المرأة، ويقف عند رائدات الرِّواية في العالم، ومع أبرز الرِّوايات النَّسويَّة في تاريخ الرِّواية.

يقول: أركِّز هنا علىوجودفوارق الإبداع، وخصوصيّاته،وتمايزه في الأدب الّذي تبدعه المرأة، سواء في بلادنا، أم في مختلف أنحاء العالم، هذا الّذي أرى أنَّه بذات الوقت يضفي على المرأة خصوصيَّتها كأنثى مختلفة عن خصوصيَّة الرَّجل، سواء مِن النَّاحية السّيكولوجيَّة، أم مِن الناحية الجسديَّة" فالمرأة ليست رجلاً، كما أنَّ الرَّجل ليس امرأة، وهذا الخلاف هو الّذي يضفي خصوصيَّة على كلِّ واحد منهما، ويدفع كلَّ واحد منهما للحنين إلى الآخر"لأنَّ كلّواحد يفتقد في ذاته ما لدى الآخر، ولايكتمل إلاّ بوجود الآخر.

مِنهما" فإنَّه مِن الطّبيعيِّ أن يكون أدب المرأة غنيًّا بمزاياها، في أيِّ منطقة مِن العالم، ومعبِّراً عن وجهة نظر وقلق ومشاعر المرأة بصفة عامَّة. وهو على الأغلب يكون أكثر ثراءًبإنماءالعواطف ومسألة الإخلاص والعفاف في الحبّ..

يضيف (يوسف)، مغنياً هذا الباب: إنِّي كثيراً ما أقرأ الأدب النَّسوي، وعندما أقع على مجلَة تحتوي على مجموعة إبداعات، فإنَّني أباشر بالأدب النَّسوي، وألمح تلك الخصوصيَّة المتميِّزة في هذا الأدب. وعلى الأغلب، فإنَّني عندما أقرأ قصَّة لكاتبة" ينتابني شعور بأنَّني أقف في حافلة ما، أمام امرأة تسرد حكاية لصديقتها، وأنا أختلس السَّمع

منهما. في حين عندما أقرأ قصَّة لكاتب" ينتابني شعور بأنَّني أقف خلفه خلسة، وهو جالس على مائدة كتابة، يكتب شيئاً سرِّيَّاً بينه وبين نفسه، بسرِّيَّة تامَّة.

وعندما يتحدَّث الرِّوائيُّ عن حميميَّة علاقته بالمرأة" فإنَّه يتحدَّث بطلاقة" لأنَّه يتحدَّث عن مآثره، وعن مزاياه. وعندما تتحدَّث المرأة عن حميميَّة هذه العلاقة" فإنَّها تتحدَّث بشيء مِن الحياء" لأنَّها تشعر بأنَّها تفضح سرَّاً مِن أسرار بنات جنسها، وتروي خفايا أكثر نقاط أخواتها ضعفاً، وخدشاً للحياء.

شَارلوت برُونتي

في حديثه عن هذه الرِّوائيَّة يقول: روائيَّة تتمتَّع بخصوصيَّة في كتاباتها، كأنَّها معنيَّة بسرِّ السِّيرة الذَّاتيَّة للمرأة.

مع هذه المرأة المبدعة نتعرَّف على بعض خصوصيّات المرأة" ولذلك أعتقد - والكلام ليوسف - أنَّ قراءة (شارلوت برونتي) هي هامَّة جدَّاً، لضرورتين:

– الأولى : أنَّه يتعرَّف على نمط يمتلك خصوصيَّة مميَّزة في شخصيَّة المرأة، وهذا يجعلنا نغيِّر الكثير مِن المفاهيم السَّائدة عن المرأة. وأعتقد يجعلنا نكنُّ لها احتراماً أكثر، بعد قراءة (برونتي).

– والثَّانية : أنَّنا نقف أمام إبداع نسويّ بامتياز، أي إنَّنا نتذوَّق نكهة حديث المرأة، أعني: نتعرَّف على وجهة نظر المرأة مِن المفاهيم والوقائع ومقوِّمات الحياة.

ربما ليست هناك مَن عانت في حياتها كما عانت (شارلوت برونتي)، الّتي تعدّ مِن رائدات الرِّواية في (فرنسا)، مع أخواتها اللّواتي انطلقن مِن ذات البيت، وذات الواقع التَّربويِّ الشَّديد.. فقد شاءت الأقدار أن تعيش هذه العائلة البالغة العبقريَّة والإبداع في ظروف بالغة القسوة.

فرنسواز ساغان

يعتبر (عبد الباقي يوسف) أنَّ الرِّوائيَّة الفرنسيَّة (فرنسواز ساغان) هي ممثِّلة الحساسيَّة الجديدة في (فرنسا)، وسائر أنحاء العالم، فيرى تطوُّر مفهوم المرأة للكتابة الرِّوائيَّة وفق تطوُّر الزَّمن، وقد استفادت كثيراً مِن التَّجارب الّتي سبقتها، سواء في الحياة الاجتماعيَّة، أو الإبداعيَّة. ولعلَّ اسم الرِّوائيَّة الفرنسيَّة (فرنسواز ساغان) يفرض في هذه الشَّخصيَّة النَّسويَّة التَّحوليَّة الّتي باتت لها خصوصيّتها، سواء في وقائع الحياة الاجتماعيَّة، أو في المشهد الرِّوائيِّ العالمي.

تُعَدُّ الرِّوائيَّة الفرنسيَّة (فرنسواز ساغان) مِن الرِّوائيّات اللّواتي لبثن تحت سيطرة أفكار الرِّواية الأولى، فهذه الرِّوائيَّة استمدَّت غالبيَّة أعمالها القادمة مِن أجواء وطقوس تلك الرِّواية الأولى الّتي قدَّمتها

للعالم، وبالتَّالي لبثت مخلصــة لهـذا العنـوان، وهي تتَّخذه منهجاً لحياتها.

جـاءت هـذه الكاتبـة إلى عـالم الأدب لتقول للنَّاس: إنَّ اللَّحظـة الأولى الَّـتي يفقـد فيها الإنسان ثقته بنفسه، هـي ذات اللّحظـة الّتي تعطـي إشـارة أولى للمحـيطين بـه" كـي يتردَّدوا مَن منحه هذه الثِّقة" لذلك قرَّرت أن تعتمـد علـى نفسـها، وهـي تطـرق وتـدخل أبواب الحيـاة الأدبيَّـة" إلى أن اسـتطاعت أن توصل أفكارها إلى الكـثير مِـن لغـات العـالم، وهذا ما كانت تنظر إليه عندما حملـت القلـم لتضع الكلمة الأولى في حياتها علـى مسـاحة صفحة بيضاء.

ختـاماً

إنَّ الرِّوائيَّ المتمكِّن مِن عمله عليـه أن يكون فيلسوفاً، وشاعراً، وفقيهـاً، وحكيمـاً، وقاضياً.. يكون واقعيَّاً إلى أقصى حد، ويكون خياليَّاً إلى أبعد مدى" ذلك أنَّه يكتب كتـاب الحياة.. فالقارئ لايطلب مِـن الرِّوائـيِّ كمـا يطلب مِن الشَّاعر، أو الفقيه، أو عالم الفلك، أو الفيلسوف، إنَّه يطلب مِـن الرِّوائـيِّ عالمـاً كاملاً بكلِّ تلك المعارف. وكلُّ رواية جديدة عليها أن تحمل عالماً جديداً" حتَّـى بفراشـاته، وهبوب رياحه،فإن لم تكن كذلك" فإنَّ كاتب الرِّواية يخفق في مهمَّته، ويفشل في أن يكـون له قرَّاء.

وعندما يمدُّ الرِّوائيُّ الخطوة الأولى نحـو نسيج عالم روائيّ جديد" فإنَّه بـذات اللّحظـة يكون قد سـحب الخطـوة الأخـيرة مِـن عـالم الواقع،ينسى تماماً بأنَّه سيخرج غداً ليجـالس النَّـاس، وسـيحدِّثونه عمَّـا قـدَّم في عملـه. ولذلك ترى بأنَّ الإدانات المختلفة تثار علـى الرِّوائـيِّ، بعـد أن يفـرغمِن عملـه، ويجـالس الواقع.

هنا يمكن القـول:إنَّ عـالم الرِّوايـة يحقِّـق مساحة أرحب للشَّجاعة، وانطلاق الفكر مِن عـالم الواقـع الّـذي يعيشـه. ودومـاً، فـإنَّ الرِّوائيَّيقول عبر روايته ما لايجسر علـى قولـه في المواجهة الميتافيزيائيَّة.

وهنا تكمن متعة قراءة الرِّوايـة، وكـذلك تكمــن خصوصُّــيتها، وأهميَّتهــا، وأظــنُّ أنَّ التَّعبير الأكثر دقَّة هنا هو أنَّه رغم كـلِّ هـذا الخروج عن عالم الواقع،فهـو بـذات اللّحظـة شديد الالتصاق بدقّة تفاصيل الواقع، الّـذي يغدو مسبحة في كفِّ الرِّوائي.

/ ألـف ليلـة وليلـة / " هـذه السِّلسـلة الرِّوائيَّة الأكثر خياليَّـة، والأكثـر واقعيَّـة، في ذات اللّحظة، ماتزال تتمتَّع بجماهيريَّة واسـعة في مختلف بقاع العـالم، وبغالبيَّـة لغاتـه الحيَّـة، وماذلك إلاّ لأنَّها تقدِّم الإنسان لنفسه، وتقدِّم له صوراً خفيَّة عن الواقع الَّذي يعيشه، رغـم كلِّ ماتتَّسم به مِن خياليَّة بالغة.

لقد استطاع (غابرييل غارسيا ماركيز) أن ينتهج مِن ذاك الخيال الثَّرِّ واقعيَّته السِّحريَّة الّتي اكتملت بـ(مئة عام مِن العزلة)، والّتي قدَّمت له (نوبل) بجدارة. ويمكن ملاحظة مثل هذه الشَّذرات لدى أكثر روائيّي مطلع القرن الثَّامن عشر واقعيَّة، إلى علاء الدِّين والمصباح السِّحري، وحكايا السّندباد،والواقدي، ثمَّ إلى / الحكواتي / الّذي يعتمد بالدَّرجة الأولى في / حكاياه / على السَّرد الرِّوائي، وتسلسليَّة / ألف ليلة وليلة / مِن ليلة إلى ليلة، إلى المقامة والسِّيَر والرَّسائل. حتَّى كبار الرَّسامين تأثَّروا بتشكيليَّة العالم الرِّوائيِّ في / ألف ليلة وليلة / حتَّى وهم في ذروة واقعيَّتهم التَّشكيليَّة، كواقعيَّة (رامبرانت) في لوحاته الزَّيتيَّة، وفيما بعد غدت الرِّواية المصدر للأعمال المرئيَّة.

كلُّ هذه المقوّمات تستقطب القرَّاء على مدى العصور لقراءة الرِّواية الّتي هي أكثر الأجناس الأدبيَّة قراءة" ذلك أنَّها تحتمل أن تقدِّم بين صفحاتها معظم الأجناس الأدبيَّة، دون أن يؤذي ذلك فنّيَّتها وخصوصيَّتها كجنسٍ أدبيّ مستقل.

ولا ننسى أنَّ الرِّواية حقَّقت للأدب العربيِّ جائزة نوبل للآداب على يد شيخ الرِّواية العربيَّة: نجيب محفوظ.

وبعد :

إنَّ هذا الكتاب شبيه إلى حدّ ما بالسِّيرة الذَّاتيَّة بالنِّسبة لـ(عبد الباقي يوسف)، وهنا تكون فرصة أمام قرّائه لإعادة قراءة أعماله الرِّوائيَّة على ضوء هذا الحديث عن حساسيَّة الإبداع، وعن تفاصيل علاقته بأفكاره، وشخوصه، وفنيَّة العمل الرِّوائي، مِن النُّقطة الأولى، وحتَّى ظهور الرِّواية إلى النُّور. إنَّها مراحل هامَّة، وبخاصَّة للرِّوائيّين الشَّباب، وكذلك لقرّاء الرِّواية، بشكل عام، وقرَّاء روايات اليوسف، بشكل خاص، الحاصد للعديد مِن الجوائز الرِّوائيَّة والقصصيَّة، والمؤلِّف للكثير مِن الأعمال الأدبيَّة.والملاحَظ أنَّه يمكن لكلِّ فصل مِن فصول الكتاب أن يكون بحثاً مستقلّاً ومتكاملاً وفق منهج عِلميّ متمكِّن❒

الهوامش:

- حساسيَّة الرِّوائيِّ وذائقة المتلقِّي – عبد الباقي يوسف
- منشورات وزارة الثَّقافة والإعلام السّعوديَّة
- سلسلة كتاب المجلَّة العربيَّة – يناير ٢٠١٢م.
- عدد الصَّفحات : ٢٥٠ صفحة مِن الحجم الوسط .

العراق ولاّدٌ بالشعر والشعراء

د.وليد جاسم الزبيدي:

أن نجلب نظريات وأساليب ومدارس نقدية ونضعها على النّص فهذه مفارقة خطيرة..

حاوره: بسام الطعان

ـ قدّمتَ للمكتبة العربية أعمالاً شعرية ونقدية مهمة، حيث أصدرت أحد عشر كتاباً من شعر ونقد، وشاركت في العديد من الملتقيات والمناسبات الأدبية.. ماذا يعني لك كل هذا؟

*كل أثر، ومنتج، للإنسان، في أي مجال إبداعي، ما هو إلا حصيلة كدّ وتعب وحفر في صخور المعرفة، ومناجم الفكر والمعرفة. وما إصداراتي المتواضعة إلا نقطة في بحر المعرفة الإنسانية. وكم كنت أتمنى، وأنا في بداية خطواتي الثقافية، أن أضعَ في مكتبتنا العربية إصداراً يستفيد منه الدارسُ والباحث. فالإنسان الأكاديمي(المثقف)، يشكلّ نتاجهُ هويتهُ التي من خلالها يعرفه المجتمع (المتلقي)، وخبرة الإنسان ومفاهيمه وأفكاره لا بدّ أن يضعها بين يدي المتلقي. فما فائدةُ العلم، دون نشره عن طريق كتاب أو جريدة أو مجلة أو ندوة أو مؤتمر. الحضور المعرفي، بكل أنواع النشر والإعلام والملتقيات، ضرورة وواجب، لتلاقح الأفكار، دون حبسها في أدراج المكاتب، أو في العقل. وما قدمتُهُ – بكل تواضع – أتمنى أن يكون خطوة في الفكر والأدب العربي، ويكون له بصمة واضحة ومؤثرة، وسيكون القادم أفضل – بعون الله–.

ـ بعض النقاد تكون لديهم فكرة مسبقة عن نظريات بناء الرواية أو القصة أو القصيدة أو المسرحية إلخ، ويحاولون تطبيق

هذه النظريات على العمل الذي يقرؤونه. أليس هذا يعتبر تعسفاً لا مبرر له، ويسيء إلى العمل المنقود؟

*النقد هو قراءة للنتاج، بكل صوره وفنونه، ويولدُ من رحم النّص، وضمن ظروف كتابته، مع ضرورة النظر الى ثقافة صاحب النّص. أمّا أن نجلب نظريات وأساليب ومدارس نقدية، ونضعها على النّص، فهذه مفارقة خطيرة، بل غبية،إذا ما استخدمها البعض الذين يدّعون (الحداثوية)، أو (النقد الجديد)، الذي يُترجم من أدبيات أخرى، كي أطبّقها وأحرق بها النّص العربي. البعض من النظريات والأساليب الأدبية، في الأدب والفكر الغربي، لا تتماشى مع نصنا العربي، لخصوصية النّص أولاً، ثم خصوصية المنتج (الشاعر، القاص، الروائي، المسرحي..). علينا أن نكتب وفق مقاييس ما وصلت إليه تجربتنا، لا أن نحلّق عالياً مع نظريات ارتبطت بنتاج لم يُكتب عندنا، أو لم نصل إليه إلى الآن. وأجدُ في الساحة العربية نقاداً من الطراز الراقي، يكتبون في المنجز العربي وفق أسس علمية وحداثوية، يضيف للنّص، ويضع المتلقي في رياض التنوير الفكري.

ـ هل يعتبر التذوق الشخصي للنصوص الأدبية، أساس كل دراسة نقدية؟ وما المعايير التي يجب استخدامها في عملية النقد؟

*التذوق الشخصي واحدٌ من معايير دراسة النّص الأدبي، وليس المعيار الوحيد. وقد تطورت وتغيرت مفاهيم المعايير النقدية عبر العصور الأدبية، منذ زمن (الجاحظ، حازم القرطاجني، ابن قتيبة، ابن طباطبا العلوي، والجرجاني، والثعالبي..) فمرةً تكون المعايير تهتم بالشكل الفني، ومرةً بالمعاني. وهكذا، منْ ينظر إلى موسيقى النّص والبحور والأوزان، ثم البحث في تداخل البلاغة مع النقد، في استخدام الاستعارة والكناية والتشبيه، وفي استخدام المحسّنات البديعية المتنوعة. أمّا اليوم، وقد اختلف النتاج الأدبي بتطور الحياة الأدبية والثقافية، فمع كل تطوّر في المنتج، لابدّ أن يقابله في الجانب الآخر تطوّر في المقاييس المستخدمة للمعيار النقدي، الذي يواكب عصر النّص. واليوم يقف الناقد العربي، ولابدّ أن يمتلكَ أدواته النقدية لقراءة النّص الحديث، ومن أدواته: التجربة، وثقافة الناقد، الاطلاع على الأساليب والنظريات النقدية. ويقف الجانب المعرفي والفني، والإحساس في بناء اللفظة وموسيقاها، وكذلك الدلالات الفنية والفكرية لكل إشارة في النّص. بل إن الناقد، عليه أن يمتلك مفاتيح النّص، بكل تفاصيله ودلالاته التاريخية والاجتماعية.. كل هذا يجعل للنّص قراءة جديدة، ويجعلها بيد المتلقي وفق نسق ومفهوم حاضر ضمن الهوية والتناسق الفكري. آخذين بنظر الاعتبار

الاختلاف الكبير، بل والإشكالية في تسميات الأجناس الأدبية في عصرنا الحاضر.

ـ ما هي المعوقات التي تقف في طريق بناء نظرية نقدية عربية؟

*البناء العربي، بكل أشكاله، يعاني من مشكلة رئيسة، وهي: الازدواجية في التفكير، والتعامل. وأعني: أن مفكرينا ومثقفينا وأدباءنا، والمنتج للنص، بكل أجناسه وفنونه، نعاني من هذه الازدواجية. وتبدأ باستخدامنا للغة العربية الفصحى في الكتابة، ونفكر بلغةٍ أخرى مختلفة، ونتعامل باليومي بلهجات متباينة، تكون أحياناً بعيدة عن لغتنا الأم. كما أن مقاييسنا لم تكن واحدة، بل اختلفت وتعدّدت، كما تعدّدتْ مدارسنا النحوية، ومدارس التفسير، وغيرها.. وكذلك نتعامل مع الآخر (الغرب) بأسلوب يختلف عمّا نكون عليه مع المنجز العربي، بل وحتى حينما نقوم بنقل أو ترجمة أو تعريب بعض المصطلحات أو النظريات أو المنهجيات، فإننا ننقلها إمّا نقلاً حرفياً، لا يوجد له قرين في لغتنا أو أدبنا، أو يُنقل خطأً، فنشوّه صورة النّص الأصل. وللأسف تقاعس العربي عن ابتداع ما هو جديد، لأنهُ اكتفى بنقل ما متوافر في الساحة الغربية، ونتمشدق بالألفاظ والمصطلحات، التي نفتخر بأننا نعلمها ونعلّمها.

ومع هذا الكم من التشاؤم، بالمقابل هناك فعاليات ونشاطات يقوم بها البعض كي نرتقي بالنقد العربي، بوجود أساتذة أجلاّء ينحتون ليومٍ قادم، إن شاء الله.

ـ النقد كنقد، هل يتم بمعزل عن إنجازات الفنون الأدبية؟ وإنجازات الفنون الأدبية، هل تتم بمعزل عن الرؤية النقدية التي يطرحها النقد؟

*لا نقد بدون نصّ، وإن أيّ نقد يولدُ خارج رحم النّص، يكونُ ميّتاً منذ (ولادته). ولا تولد النظريات، ولا المفاهيم، ولا المناهج، دون النّص. يظل النّص هو محور كل العلوم الأخرى، سواء: (التفسير، الحديث، النحو، التاريخ، الرواية، النقد...). وهكذا تعلّمنا: كلما يتطور النّص، تتطور الأدوات المصاحبة والمتاخمة له في فنون البلاغة والصرف، والنحو، والمنهج والجمال.

ـ على الدوام يتهم الأدباء النقاد بأنهم قاصرون عن مواكبة العمل الإبداعي، ما ردك على ذلك؟

*ما يزال نقدنا العربي – بكل صراحة وجرأة – متخلفاً، عمّا موجود من نوعٍ وكمٍ في النتاج الأدبي العربي. فالنتاج النقديّ اليوم في المكتبة العربية، لا يرقى – من ناحية العدد والنوعية – للنتاج الأدبي الذي أغرق الشارع والمكتبات.

ـ كثيراً ما نطالع في الصحف والمجلات،ما يمكن أن نسميه بقشور النقد، وهوامشه، ومقدماته. أما النقد النقد، فلا نجد له أثراً. ما السبب؟

*لستُ معك – صديقي– في هذا الجانب، فليست كل الصحف والمجلات هي ثقافية ورصينة. هناك مَنْ يعتمد السائد والمبتذل، لكن هناك مجلات ودوريات علمية رصينة ومحكمة، في عالمنا العربي، تشهد لها المؤسسات الأكاديمية العلمية، تنشر العديد من البحوث والدراسات التي تهتم بالنقد العربي الرصين. وأنا متفائل بأن نقدنا العربي سيأخذ دوره مستقبلاً، بعيداً عن المحسوبيات، ووعّاظ السلاطين.

ـ هل يمكنكم أن تحدثوا القارئ عن استراتيجيتكم في القراءة النقدية، وكيف تقرؤون النص الأدبي؟

*لكل كاتب، مهما كانت جهتهُ وتوجههُ، فلسفتهُ، ومنهجهُ، وطقوسهُ الخاصة به، وهي التي تشكل وتمثل شخصيته وهويته. قراءتي للنّص، قراءة مَنْ يريد الاستمتاع بسحر المفردة، وفرادة المعنى، وجدّة الموضوع، وسحر محيط النّص.. والنّص الجيّد، هو مَنْ يُشغلك عن محيطك، ويدعك لا تتركه، بل تظل لأن ترى أين ينتهي؟ وكيف؟ وأن ترى وتسمع لغتهُ، وأسلوبه. وأضعُ خريطةً للنّص: كيف بدأ، وعناصرهُ، وأدوات المنتج، وعليّ أن أبحث في صور النّص، ودلالاته، ومدلولاته، ورموزه. النّص الجيد والجميل ذلك الذي يجعلك تبحث وتستكشف في مصادره، لفك طلاسمه.

ـ ما السبب الذي قادكم إلى تخصيص كتاب نقدي لقراءة نصوص (وفاء عبد الرزاق)؟

*الكاتبة (وفاء عبد الرزاق)، كاتبةٌ متميزة، حيث إنها بدأت شاعرةً شعبيةً، ثم انتقلت لكتابة الشعر بالفصحى. وهكذا عرفتها شاعرةً، لكنّي، وبعد فترةٍ، وجدتها تكتب الرواية والقصة. والكاتبات في هذا النوع (خصوصاً الرواية) قلةٌ في عالمنا العربي، ثمّ إن المشهد الثقافي يسلّطُ الضوء على الرجال أكثر، حسب واقعنا المجتمعي الذكوري. قرأتُ، ودرستُ، ونقّبتُ في كل رواياتها وقصصها، وجدتُ أنها تجاوزت الكثير من الكتّاب، والكاتبات، بطريقة السّرد، والتقنيات والأدوات التي تستخدمها. لذلك أفردتُ لها كتاباً كاملاً، ليكون نظرةً نقديةً للرواية بصورتها الجديدة، وأن أعطي إشارة للمهتمين بالرواية، أن يقرأوا هذا النوع من الكتابات. وأرى أن الكاتبة (وفاء عبد الرزاق) كاتبة متميزة، وسوف يكون لها شأن في السرد العربي، لما تمتاز بها كتابتها من حداثة وأسلوب يختلف عن الآخرين والأخريات.

ـ كيف تكتب القصيدة، وما هو تصورك للشعر وطرائق تعبيره، وكيف تبدو رؤيتك، عبره، للعالم من حولك؟

*القصيدةُ هي التي تكتبني، هي التي تعيشني، وتتحرك وتنمو، تأكل وتشربُ

وتفكرُ معي، وما عليّ إلا أن تمسك أناملي القلم الرصاص لأكتبَ وأملي الورق. فربما أكتبها ليلاً أو نهاراً، فليس لها زمن محدّد، وليس لها مكان محدّد. أمّا العالم فيتشكّلُ بصورةٍ جديدة في القصيدة. فالقصيدة هي التي تخلق العوالم، وتكوّن الزمان، وتخطط المكان. وليس بيد الشاعر شكل النّص أيضاً، فالشكلُ يتشكلُ مع ولادة القصيدة كأن يكون (عمودياً، تفعيلة، نثر).

ـ القصيدة العراقية في عصر الجواهري وبدر شاكر السياب والبياتي ونازك الملائكة، أحسن وأبدع وأثرى من القصيدة العراقية اليوم. ما رأيك؟

*الشعراءالذين ذكرتهم هم عمالقة الشعر العربي، وهم مدارس في الأدب العربي، فما فعلهُ وتركهُ (الجواهري) الكبير، مثلما فعلهُ المتنبي والبحتري في عصرهما. لقد ظلّ طوال قرن كامل (القرن العشرين)، هو الصادحُ في فضاء الشعر العمودي. أمّا (بدر شاكر السيّاب) و(نازك الملائكة)، فهما رائدا الشعر الحر، وكوّنا مدرسةً خاصةً للشعر العربي الحديث، ولم يضيفا للشعر العراقي فحسب، بل للشعر العربي عموماً. لكن لكل زمان رجاله، والعراق ولاّدٌ بالشعر والشعراء، لم يتوقّف عند جيلٍ محدّد، أو اسماء معينين، بل اليوم في العراق جيلٌ يأخذ بالشعر العراقي نحو آفاق حداثوية جميلة، ولا يخلو يوم في العراق دون ولادة شاعر، ودون ولادة دواوين شعرية في مطابع العراق، ومطابع العالم.

ــ الشعر في الوقت الراهن، وخاصة قصيدة النثر، بات نصوصاً غامضة على نحو ما، يقرأ القارئ القصيدة فيغرق في ظلام المعاني، ويعجز عن رؤية أية صورة في هذه القصيدة، أو تلك.. هل توافقني الرأي؟

*الغموضُ لوحده ليس ميزةً حسنةً في أيّ فن من فنون الكتابة. كما أن ليست كل الكتابات الموجودة في وسائل التواصل الاجتماعي، أو في صحف، أو إصدارات، كلها تندرج ضمن عنوان قصيدة (النثر). فهناك (كتابات) لا تمتّ للأدب العربي بصلة، ولا تنتمي لأيّ جنس من الأجناس الأدبية. ووسط هذا الكم الهائل من الخطابات والخواطر المنفلتة، حيث لا ضوابط ولا أسس في فن الكتابة، بل تجدها مليئة حتى بالأخطاء الإملائية واللغوية والنحوية. لكن بالمقابل تجدُ نصوصاً راقيةً من نصوص النثر العربي الجميل والواعي والمحكم.

ـ كيف تقيّم الكتابات الشعرية المكتوبة باسم الحداثة، والتي تتسم بالتحلل من القيود التقليدية، أو المقيّدة جداً، وفي مقدمتها الوزن والقافية، وبالترميز عن معان يقصد بها الشاعر قصداً أن يعمها، وكأن هذه التعمية جزء لا يتجزأ من مفهوم الحداثة، أو كأن المطلوب ألا يفهم القارئ ما يقوله؟

*مازلنا نرى في أساليب (الحداثة)، التي يدّعيها البعض، تسيرُ في طريق التقليد الأعمى غير المدروس، والذي لم يتم تناولها عن وعي (لدى البعض)، أو على الأقل المتداول حالياً في وسائل التواصل الاجتماعي. توجد هناك محاولات جادة وحقيقية لدى البعض، ممن يستخدم التجديد بمفاهيم تطوّر من أدواتنا، ولها الصلة بإرثنا العربي في مفاهيم التجدد والحداثة. فالأدب العربي، منذ عصوره الأولى، في حالة تحديث وتطوير وتثوير، نابع عن أصالة فنوننا وعلومنا. أمّا أساليب التشفير والتعمية والغموض لذاته،فهي أساليب عيال على أدبنا وتاريخه.

ــ اللغة كإحدى اللبنات في النص الشعري، كيف تراها، وكيف تنظر إلى دورها في نصوصك الشعرية؟

*اللغةُ ركنٌ أساس في بنية النّص الأدبي، كيفما كان جنسه ولونه. وقد انتبه لهذه الظاهرة اللغوية منذ عصر (أبو تمام)، و(المتنبي)، ومن ثمّ (محمود سامي البارودي)، (فالجواهري)، وخروج اللفظ عن معناه الشائع الى معنىً آخر، وكذلك إعمال النحت، والأساليب البلاغية المختلفة في اللغة، كي يتمظهر النّص بأسس وبنى جديدة، ولها معنى آخر، منه المفتوح والمغلق" والابتعاد عن التكرار، وتنمية روح الموسيقى في روح النّص، وجعل المتلقي يفكّرُ في ماهية الموضوع، والإشكاليات التي يثيرها المنتج..

فالتطور اللغوي يحرّكُ النّص نحو أسس جديدة، وإعطاء النّص هويته.

ـ الكلمة الأخير لك، قل ما تريد..!

*كلمتي هي: أنني أرى مستقبلاً زاخراً بالنجاح والعالمية للنّص والنتاج العربي، أمّا الزبد، فيذهب جفاءً. وستذهب وتنتهي الأسماء والنتاجات التي لم تمثل أدبنا العربي. وتحيتي لكم، وأنتم تنقلون مشهداً ثقافياً صادقاً للمتلقي. مع تقديري واحترامي لكم❒

د.وليد جاسم الزبيدي

شاعر وناقد عراقي من محافظة بابل، قضاء المحاويل، مواليد ١٩٥٦، خريج الجامعة المستنصرية/ كلية الإدارة والاقتصاد.

١ـ بكالوريوس لغة عربية/ جامعة بابل. ٢ـــ ماجستير تحقيق مخطوطات عربية/ جامعة الدول العربية/ معهد التاريخ العربي. ٣ـــ دكتوراه تراث فكري جامعة الدول العربية/ معهد التاريخ العربي.

صدر له: ١ـ خرافة المرايا ـ ديوان شعري ٢ـــ جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام ـ دراسة وتحقيق ٣ـ حصى الانتظار ـ ديوان شعري ٤ـ ذاكرة المكان ـ دراسة اجتماعية ٥ـ محارتي ـ ديوان شعري ٦ـ محمد مهدي البصير مؤرخاً ـ نقد ٧ـ أوراق ورأي ـ نقد ٨ـــ تغريدات نخلة ـ ديوان شعري ٩ـــ فانتازيا النص في كتابات وفاء عبد الرزاق ـ نقد ١٠ـ الظاهرة الأدونيسية بين الاصالة وآفاق الحداثة ـ دراسة نقدية ١١ـ أيقونات على مكتب الذاكرة ـ ديوان شعر.

شهـــداء الوطـــن
وخـوارج الكفـــن

شعر : حسـين حسـن التلسـيني

في شـــــرعهم غـدر وكفـــر وانتقـــــامُ
للذبـــح في ســاطورهم عـرش مقـــامُ
لجهنـــــم الإحـــراق في أقـفـاصهـــــم
حـقـــد يصـــول ولايـمـــل ولاينـــــامُ

لازهـــــر ينمو في شـــغاف قلوبهـــــــــم
فـالمحـــلُ يســكنــه، وحـاديـه الضـــرامُ
أمـــا راوئـــح جـيـبـهـــم فكريهـــــــــة
مـــا دام فيــــه يعربــدُ المـــال الحـــرامُ
إن الســـبـايـــا في الليـــالي وليمـــــة
شهيــــة، لا كـفـــــر أتخـمـهـــا الـزحـــامُ
ولـحزنهـــن بكت دمـوع الدمـــع، مـــــا
لانـــت قلوبهـــمُ، ولا فـــــــــاح الكـــلامُ

خـطفـــوا القصـــور ســبيــة لسمـــومهم
والنـــازحون طوتهـــمُ تلك الخيـــــــــامُ
نسفـــوا (أبـــا تمـــام)، ثم (المـوصـــــلي) ٢
وتـــراثهـــم لجـروحنـا البيــــض المــدامُ
فتـــوشحـــت كـم (يـردلي)٣ ثوب الأسـى
وعلـى شـفـــي حـفـــــر اللظـى احتـرق المنـامُ
صلبـــوا الحـــوار بـفـــك نـــــار جـحـيمـهـــمْ
ورســـــولنـــا بشــــذا الحـــوار المســـتهـــامُ
ويـــرون فـي تـفخيـخـهـم بـدراً لهـــــم،
وبغيـــره دنيـــا المهيمـن لا تقـــــــــامُ
قالـــوا: تفجـــر بيـن جمـــع الرافـــديــ

ن، لك الجنـــان، وحورهـــا، ولك الســـــــلامُ
في شـرعهـم فجّـرْ قبـــور الأنبيـــــا،
ليضـمـــك المختـــار والمـــاحي الهمـــامُ
فتـألمـتْ أحشـــاءُ زمـــزم في الدجـــى
ولـجـرحـــه الســـيال مـا عـاد التـــآمُ

* * *

لـولا دم الشهـــداء مـا نبـت الخـــــزامُ
مـا طـــار فوق منـــارة النـــور الحمـــامُ
برصـاصهـــم عـــاد العـــراق موشـحـــاً
غـنـــاه فـــوق جبـــالنـــا ذاك الغمـــامُ
مـا جـــاع جوف سـلاحهـــم يـوم الـوغـى
فـرصـاصهـم لسـلاحهـم دومـاً طعـــــامُ
ظلت مـدافـعهـم جحيـمـــــاً غـاضبـــاً
بيـــن المدافـــع والقـذائـــف لا انفطـــامُ
والراجمـــات تـزحـــزحت عن نـومهـــا
إذ حـاصـرت أرواحنـــا المـوتُ الـــزؤامُ
والطـــائـرات تهب مـن فـك الـــــردى
فـــإذا بـأوكـــار الجـرائيـم الـركـــامُ

هـمــراتهم أقـمــارنـــــــا فـي نيـنـــــــــوى
حيـــــن اعتـلـى من سطـــوة الظلم الظـــــــلامُ

ولنصـــــرهم فـاحت قبـــــــــور الأنبيـــــــــــــــا
وغـدا اعتـدالَ شـريعـــــة الله الإمـــــــــــــــامُ

واســـتيقـظـت حدبـاؤنا من جــرحهــــــــــــا
شمســـــاً جدائلهـــــا المسرة والغـــــــــرامُ

وبهـــم غدا قلب العــــــــراق مجــــــــــــرة
بضيــــائهــا الغضبـــــان قد ســـقـط اللثــــــامُ❒

---

(١) استخدمت علـة الترفيـل في الكـامـل التـام، لا المجـزوء منـه، اجتهـاداً مني، لذا وجب التنـــويـــــــــــه.

(٢) الـمـوصـــــلي : هو الـمـــلا عثمـان الموصـلي (رحمـه الله): قـارئ، وشـاعــــر، وعـالـم بفنــــــــــون الـمــوســـــيقى.

(٣) يــردلـي : أغنيـــــــة تـراثيـــة موصليـــــة شهيـــرة تـتـغـــــزل بامـــرأة اسـمهـــــا يــردلــي.

(٤) منـــارة النـــور : هي منـارة الحدبـــــاء الشهيـــــــــــرة في الموصــــل .

بصراحة

في انتظار الحسم

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

لا يخفى على أحد أن (داعش)، في العراق، على وجه الخصوص، والمنطقة عموماً، يعيش أيامه الأخيرة، ويتلفظ آخر أنفاسه. واليوم صرنا نسمع، بين حين وآخر، آراء وملاحظات للمتابعين للشأن السياسي، حول مرحلة ما بعد (داعش) في العراق. ولحد هذه اللحظة، وبناءً على ما نراه، ونقرأه، يومياً، من الآراء والتوقعات، حول مجريات الأمور لمرحلة ما بعد (داعش)، فهناك خط مشترك واضح يجتمع عليه الكل، وهو: إن الحسم العسكري، والقضاء على (داعش)، لا يعني بالضرورة إنهاء المشكلات المختلفة الكثيرة العميقة، التي يعاني منها المواطن العراقي، والتي يرجع جزء كبير منها إلى مرحلة ما قبل ظهور (داعش). بل العكس، فمن يعرف أبجديات السياسة، ويدخل بيئتها، ولو للحظة، سيدرك جيداً أن المرحلة الأصعب التي ينتظرها العراق، هي مرحلة ما بعد (داعش).

ومن المؤسف جداً أن العراق – عسكرياً – مقبل على ضرب طبول انتصاراته على (داعش)، دون وجود خارطة سياسية واضحة المعالم للتعامل مع الواقع الجديد. وليس هناك برنامج عمل واضح بين الفرقاء، المختلفين سياسياً وطائفياً، للتعامل مع مرحلة ما بعد (داعش)، في حين يجب أن لا ننسى أن البيئة السياسية المأزومة، في عام ٢٠١٤، كانت إحدى الأسباب الرئيسة التي مهدت الطريق لوصول الإرهابيين إلى العراق، وسيطرتهم على أجزاء كبيرة منه.

العملية السياسية لم تُشف من جراحاتها بعد، كما أن وجود (داعش) على ثلث الأراضي العراقية، لم يشفع لهذه العملية المأزومة أصلاً، فطريق العملية السياسية في العراق مشحون ببراميل البارود، أكثر بكثير مما كان عليه قبل ظهور (داعش). وباختصار، فالمعركة السياسية هي الحاسمة بالنسبة للشعب العراقي المنهك حتى النخاع، وليس الحسم العسكري تجاه الإرهاب.

البطل ليس فقط هو من يفوز في ساحات الوغى، والفائز ليس فقط هو من ينبهر بفرحة الفوز والنصر، بل البطل الحقيقي هو الذي سيقطف ثمار ما يحققه في ساحات القتال، والفائز الحقيقي هو الذي سيحتفظ بمكتسبات فوزه حتى النهاية.

باختصار شديد: العراق سيواجه في الأيام القادمة إحدى أصعب مراحله السياسية، وبالتأكيد، هذه المرحلة ستحسم الكثير من القضايا العالقة الموجودة بين المكونات المختلفة، وستطوي بعض الصفحات، وستفتح أخرى❐

الإسلام والدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي — مصطفى عطية جمعة

الهند من خلال رحلة ابن بطوطة — د.محمد نزار الدباغ

(قراءة في كتاب)

الإسلام والدولة المستحيلة
الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي

د. مصطفى عطية جمعة جودة
Mostafa_ateia123@yahoo.com
Mostafa_ateia1234@hotmail.com

✍ هذا الكتاب ([1]) يتناول – بصراحة ووضوح – قضية محورية، نرى أن الكل يدور حولها، ولا يغوص بداخلها، ألا وهي الموقف من الدولة المدنية الحديثة، المؤسسة على المفهوم الغربي، والتي تم تطبيقهافي أقطار العالم العربي والإسلامي، بعد تفكك دولة الخلافة العثمانية، التي كانت تجمع غالبية أقاليم المسلمين في رحابها، وبعدما رحل المحتل الأجنبي، وهو ضامن أنه ترك ذيولاً لا نهاية لها، تتمثل في النظم التي شكّلها على طريقته وفق ما أراد.

فظهرت دول، وطفت على السطح دويلات، وباتت هناك حدود مرسومة، ومناطق مقسومة، وارتفعت أعلام وطنية، معززة بهويات جديدة، تربط المسلم المعاصر بحدود وطنه المصنوع، في مسعى إلى صنع هويات مضادة لهوية أخرى تولد معه، ويحملها في جيناته، تتصل بالإسلام: ديناً وحضارة وثقافة، وتستبدلها بما أسمته: دوائر الانتماء، مثل: الانتماء إلى العالم الإسلامي، والعربي، والقاريّ.

ومع نشوء الدولة الحديثة " تم استيراد كثير من أنماط الحكم والإدارة والمؤسسات، وأيضا المفاهيم والمبادئ، من النظم الغربية، إلى أطر الدول الجديدة، والتي تتابعت عليها العقود، وباتت واقعاً لا مفر منه. بل إن الكلام عن الوحدة – بأشكالها – توارى، وأصبح الحديث يدور – إن دار – عن أوجه من التعاون، وتلاقي السياسات، وتقارب الشعوب، والنظر في تسهيل التنقل بين الدول، بعدما زادت حدة الفروق بين أقطار غنية، وأخرى فقيرة، وثالثة أكثر فقراً، ودول تتمتع بحريات، وتتداول السلطة فيها، وأخرى تسمح بهامش من الحريات، ومع وجود بعض الأحزاب الضعيفة، أو الكرتونية، غير الطامحة للسلطة،والتي تكتفيبجريدة ومقر ومتحدثين باسمها. كما تنوعت في الدول أشكال الحكم نفسها، ما بين: ملكية مطلقة، وملكية دستورية، وجمهوريات متعددة، ولتكون المحصلة في النهاية متشابهة: تراجع معدلات التنمية، البطالة، سوء استغلال ثروات الوطن، تزاوج الثروة مع السلطة، ازدياد الهجرة داخل الوطن من الريف إلى المدينة، وإلى خارجه: إلى الدول الأكثر ثراء وتقدماً، والأسوأ: ازدياد اغتراب المواطن، وانكفائه على ذاته.

ستتمحور قراءتنا في هذا الكتاب على قضاياه المثارة في الكتاب نفسه، والتي تتوخى الإجابة عن سؤال مهم، ألا وهو: هل تصلح الدولة الحديثة، ببنائها الغربي، لتكون معبّرة عن المجتمع المسلم؟ وهل يمكن أن يقدم المسلمون المعاصرون بنية هيكلية جديدة للدولة المسلمة، تعبّر عن شريعتهم وأخلاقهم، ضد الهيمنة الغربية بعلمانيتها المفرطة؟ وتلك أسئلة تتخطى رؤية المفكرين السياسيين المعاصرين، الذين رأوا أن الدولة – بهيكليتها الغربية – مجرد وعاء يمكن أن يحوي ما نشاء من قيم، ولكن المؤلف يرفض هذا، ويقرأ الدولة الحديثة قراءة ثقافية، وأخلاقية، وسياسية، وعلمانية، فلا يعقل أن يتشكل وعاء بمعزل عن جوهره، فلحاء الشجر وساقها وجذورها أجزاء لا تتجزأ من طبيعة تكوينها، وما ستخرجه من أوراق وثمرات.

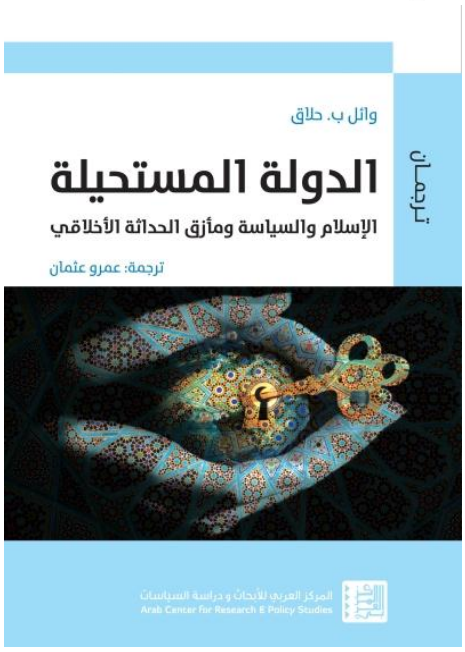

زمن تأليف الكتاب :

صدر الكتاب في زمن قريب (نوفمبر٢٠١٣م)، وجاءت الترجمة بدورها في السنة التالية لصدور الكتاب (٢٠١٤م)، أي إن أفكاره لا زالت تعتمل في الساحة الفكرية، تنهل من الواقع، وتساهم في النقاشات الدائرة حول أزمات دول العالم الإسلامي،حيث تتقاطع فيه عشرات الخيوط، وتتفجر فيه ألغام: الهوية، الانتماء، وتسلط الفاشية العسكرية، والحزبية، وضياع البوصلة لدى الأنظمة الحاكمة.

وفي وقت اندلاع ثورات ما يسمى (الربيع العربي)([٢])، التي كشفت – فيما كشفت – عن ترهل الدولة الوطنية،وفشلها، وهشاشة بنيتها، وقيامها على أسس تمييزية، مما أدى إلى اشتداد العصبيات الإثنية والطائفية، وتعاظم المذهبية، أكثر من مفاهيم المواطنة والعدالة والمساواة، وتأبيد بعض حكامها في كراسي الحكم، ورغبتهم في الاستئثار المطلق للسلطة، ومن ثم توريثها.فانتفضت الشعوب، ولعبت القوى الإقليمية والدوليةألعابها، وبدلا من أن تنجز الثورات ما طالبت به، وجدنا في النهاية، وإلى لحظتنا المعيشة الآن، أن الثورات أسفرت عن الارتداد إلى حكم عسكري مستبد،أو تفككت الأوطان المصنوعة ذاتها، وعصفت بها الحرب الأهلية، وسادت ساحاتها مليشيات مسلحة، مع ضعف الحكومات المشكلة، خاضعة لنفوذ جهات إقليمية أو دولية، مما جعل بعض الجماهير تترحم على أيام الدولة التسلطية، حين تنازل الناس عن حرياتهم في مقابل أمن وأمان منحه حاكم طاغية.

وليعودسؤالاالهويةيلح بقوة، بل وبحدة: ماذا عن هويةالمسلمالمعاصر؟التي لا تنفصل عنمطالباتهبالحرياتوالحياةالكريمة،وتمتعهبثرواتالا وطن،وحقالمشاركةفيالحكم،واختيارممثليه، مع سؤال:هل المنظومة القانونية والإدارية والسياسية المستوردة، تتواءم مع أخلاقيات المسلم، وغايات شريعته، ومبادئ دينه؟

وفي ضوء هذا الواقع، يأتي هذا الكتاب، ليعيد مناقشة القضية برمتها من جديد، لأن تجارب التطبيق لشكل الدولة المدنية المستورد من الغرب» لم تؤت ثمارها المرجوة،كما خطط واضعوها منذ أكثر من قرن، وإنما زادت الاغتراب، وأظهرت مشكلات الانتماء: فبعدما كانت الرابطة الإسلامية تعتمل في القلوب، لتجمع المسلم القاصي والداني في رباط واحد، باتت القلوب في حيرة: أتخلص لحدود مرسومة في الخرائط، غير محددة في الواقع، وتُقدِّم مصلحتها الضيقة على حساب العالم العربي والإسلامي الممتد؟ في ضوء التغني بأمجاد حضارات سابقة على الحضارة الإسلامية، مثل: الفرعونية في مصر، والبابلية والآشورية في العراق، والفينيقية في الشام، وغيرها. وهذا التغني ليس لأمجاد تلك الحضارات، وإنما محاولات لإيجاد عمق تاريخي، يساهم في تمييز الهوية الوطنية الضيقة على حساب الهوية الإسلامية الكبرى، التي تجمع القلوب في قبلة واحدة، وكتاب مقدس واحد، ومشاعر متوحدة نحو قضايا الإسلام التي لا خلاف عليها، مثل: احتلال فلسطين وكشمير، وأزمة مسلمي بورما والصين. وقد رأت الشعوب الإسلامية، أن دولة كبرى (الاتحاد السوفيتي) تأسست على فلسفة الاشتراكية المادية، وظلت أكثر من سبعة عقود، تسعى لمحو هوية شعوب مسلمة انضوت تحت لوائها، ولكن ما إن تفككت الدولة الأم، حتى عادت تلك الشعوب إلى هويتها الإسلامية بأقوى مما كانت، وكأنها كانت تختزنها طيلة حكم الحقبة الشيوعية.

كل هذه الملابسات والقضايا،وغيرها، تعود إلى بؤرة التفكير، بعدما توارت في غياهب النسيان، وتأتت في عنوان الكتاب بشكل مباشر: (الإسلام والدولة المستحيلة، الإسلاموالسياسةومأزقالحداثةالأخلاقي)، وهو عنوان يلج إلى الأزمة مباشرة، لأنه يفترض أن الفكر السياسي الإسلامي لا يقبل الدولة المدنية الحديثة، لأن ثمة اختلاف في الأسس بينهما، فالدولة في الإسلام تقوم على أساس الشريعة الحاكمة، بكلياتها الخمس، ومقاصدها المعتبرة، والتي نصت عليها كتب علماء الأصول والفقهاء، ومن تطرق إلى الأحكام السلطانية في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد ظلت الشريعة هي الحاكمة في بلاد المسلمين اثني عشر قرناً حتى القرن التاسع عشر الميلادي([٣])، قبل أن تتعرض دولة الخلافة العثمانية إلى التفكك، ومن ثم سقوط معظم أقطارها تحت نير الاحتلال الأجنبي الغربي، الذي عمل – وبدأب – على إقصاء الشريعة، وإحلال القوانين الغربية محلها إلا في النذر القليل من قوانين الأحوال الشخصية المأخوذة من الشريعة الإسلامية، بنفس بنية

القضاء الغربي ومحاكمه، والتي هي بطيئة في إجراءاتها، وآليات عملها، مما يطيل أمد التقاضي، ويضخّم المشكلات، خصوصاً أن النخبة الوطنية القومية – ما بعد الاستعمارية، التي حكمت الدول الإسلامية،وحاربت المستعمر، حافظت على الهياكل الاستعمارية الموروثة، ولم يظهر الإحساس بالمواطنة إلا بشكل بطيء، وبقيت الانتماءات التقليدية (العصبيات المختلفة)، ولم تملأ الفراغات السياسية الناتجة عن انهيار البنى التقليدية القديمة(٤)،فيمكن القول: إن الشريعة الإسلامية المرتكزة على أخلاقيات الإسلام وقيمه، ترسخت في الوجدان الجمعي للشعوب الإسلامية على المستوى الزمني الممتد، وعلى تنوع الشعوب الإسلامية وثقافاتها، لأن المسلم كان "يرى فيها ينبوعاً روحياً وأخلاقياً وصلة مع الله وسبيلاً إلى ترويض النفس...، فالغالبية العظمى من مسلمي العصر الحديث تتمنى العودة إلى تطبيق الشريعة، بشكل أو بآخر" (٥)، وتلك قراءة واقعية، لمشاعر جماهير المسلمين في عالمنا المعاصر، وما حدث من مراجعة نفسية وحضارية، بعد العديد من الأزمات التي عصفت بأقطار العرب والإسلام، فكانت الصحوة الإسلامية حركة مواكبة لها، ومعبرة عن نبضها، والتي لا يمكن لأي متخذ قرار أن يتجاهل تلك الرغبة، لأنها ليست هماً اقتصادياً ولا اجتماعياً، وإنما حاجة حضارية، تتصل بالهوية المشكِّلة لثقافة الأمة ومرجعيتها، وهي: الإسلام، وشريعته، ونظمه.

لذا، فإنه يضع تصوراً للدولة الإسلامية يرتكز على مفهوم النطاق المركزي Central Domain (٦) إقامة السيادة كلها لله تعالى، ودعم الفصل بين السلطات بشكل حقيقي، وإخضاع المؤسسات كلها، خاصة مؤسساتالتعليم للتوجيه الأخلاقي المرجو، وأن السلطتين التنفيذية والتشريعية خاضعتان للنظام الأخلاقي الشرعي المستهدف، ويقتصر عمل السلطة التنفيذية على تنفيذ السيادة الربانية، ويسمح لها بإصدار لوائح وقوانين في إطار تلك السيادة، كي يتحول مفهوم المواطن إلى مفهوم المجتمع الأخلاقي النموذجي، الذي يرتبط كل فرد فيه بالآخرين بعلاقة أخلاقية متبادلة، وينظر الأفراد والجماعات إلى أنفسهم أنهم امتداد للكون الأخلاقي(٧).

أزمة أخلاقية، أم أزمة مرجعية؟

تأسست الدولة الحديثة على مفاهيم الحداثة الغربية، التي تعني – فيما تعنيه– القطيعة بدرجات مع الماضي الموروث، وتأسيس مرجعيات جديدة، فنظرت بعين محتقرة إلى التاريخ القديم، والثقافات المتوارثة.

فمفهوم التحديث، وبناء الدولة الحديثة في العالم الإسلامي، ارتبط بتكرار تجربة الحداثة الغربية، والتلاقي عند المؤسسات والنظم الثقافية الغربية، وهي بحد ذاتها وهم من أوهام العصر الحديث([٨]). وتناست أن العالم الإسلامي حُكِم بنظام دولة تأسس أخلاقياً وثقافياً على شريعة الإسلام، فيما تأسست الدولة الحديثة على مفاهيم مأخوذة من التراث اليوناني والروماني، واجتهادات الفلاسفة الغربيين في العصر الحديث([٩]). فالمشروع الغربي التنويري سعى لاستبدال الأخلاق الدينيةوالعرفية والتقليدية، بأخلاق عقلانية ونقدية جديدة، تجعل الأخلاق التقليدية تحت إمرة العقل البشري، بهدف خلق حضارة كونية جديدة ([١٠]). لذا نظروا إلى أخلاق الأمم والشعوب كأنها كل واحد"بنية جماعية واحدة"، بدون تمييز، ترتبط بسرديات تاريخية دينية، وأنها جاءت ضمن منظور البشر في التطور والتقدم "الارتقاء التقدمي" ([١١])، فيمكن الاستغناء عنها، مادام عصر التنوير وصل لسيادة العقل، الذي سينظر إلى الأخلاق، وكل منتوج الديانات (كلها على الإطلاق)، بإمكانية تجاوزها، وتأسيس قواعد أخلاقية جديدة. ويستند في ذلك إلى مفهوم النموذج Paradigm، ومنها يفترض الحالة المثالية للحكم الإسلامي (Islamic governance paradigm)[١٢].

فالمشكلة محددة، تتصل بالمرجعية ذاتها. وإن كنت أختلف مع المؤلف في نعته المستمر بأنها "مرجعية أخلاقية"، تواجه "واقعاً أخلاقياً مغايراً في عصرنا"،مما يحتم علينا النظر إلى "المسؤولية الأخلاقية". ويسعى إلى البحث عن "مصادر أخلاقية"، ويعلن أنه سيبحث عنها في "المصادر الأخلاقية الإسلامية"([١٣])،فالشريعة مثّلت وعبّرت عن قانون أخلاقي، وتشكلت به ([١٤]).فهولم يحدد ماهية الأخلاق المقصودة، ولكن يبدو من كلامه وتأكيداته المستمرة أنها الأخلاق بمفهومها العام: الفردي، والأسري، والاجتماعي،وأيضاً: الأخلاق بأبعادها الإنسانية النظرية والسلوكية والعملية. فمنظوره شامل للفردي والجمعي، الدولة والعالم، وأيضاً تأثيرات العولمة أخلاقياً.ونرى أنه حصر الأزمة في الأخلاق، والأخلاق جزء منها، وليست كلاً، لأن الأخلاق جزء من نسق ديني وفكري وثقافي، كما أن الأساس الحضاري – بكل أبعاده – واقع، فالأخلاق معبرة عن منظومة حضارية متكاملة.

فإذا نظرنا إلى الجزء، فإن الكل سيغيب عن النقاش، ولكنه لن يتغيب عن الواقع، وسيظل يلح بقوة،أو سيكون الحاضر الغائب. وهذا لا يمنع من قيام المؤلف، طيلة صفحات الكتاب،بتوثيق وجهة نظره الأخلاقية بمنهج مقارن بين الحكم الإسلامي والدولة الغربية،

مدعماً وجهة نظره. فيمكن القول: إن المؤلف اتخذ الأخلاق منطلقاً وسبيلاً ومعايير للمقارنة بين الإسلام والغرب، على مستوى الدولة والحكم والممارسة، فانطلق من الجزء إلى الكل، ناظراًإلى الأخلاق في بعد كلي، ظهر في ثنايا فصوله، مثلما كان واضحاً في مقدمته وخاتمته.

فهو يرى أن الأخلاق كانت هدفاً للحكم الإسلامي، ونظمه، وهو يدين أخلاقياً أيضاًسلوكيات الدولة الحديثة في أوروبا،بكل ما ارتكبته في حق أبنائها أنفسهم، والدفع بهم في أتون حروب بنوازع قومية ووطنية مغلقة، مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية، وسماح الدولة بتسيّد أخلاق اجتماعية دون مرجعية لها، إلا مرجعية التوافق المجتمعي عليها، والقبول العام، بعكس الدولة الإسلامية المحكومة بالشريعة، أخلاقاً وقانوناً، التي لا تخضع شعوبها لأنانية الحاكم، أو التعصب لأرض، أو قومية.

كذلك، وهو في نظرته إلى العولمة، فإنه يذهب إلى أن الدولة الإسلامية ستثبت أخلاقياً أمام هجمات العولمة، بثقافتها وأخلاقها الغربية، وباقتصادها الليبرالي البعيد عن الأخلاق. وفي نفس الوقت،فإنه يشرح تفصيلاً أسس النظام الاقتصادي الإسلامي أخلاقياً، والمتضمن الحفاظ على الكليات الخمس، ومنها: الحفاظ على المال، جنباً إلى جنب مع العقل والدين والنفس، وكلها تحمي منظومة الدولة الأخلاقية، في مختلف أبعادها الاجتماعية والاقتصادية([١٥]).

فالشريعة الإسلامية ظلت هي المحور المركزي للحضارة الإسلامية، والدولة التي أقيمت على أساسها، فمنها انبثق التعليم والعلوم، وفي ضوء أخلاقها وُضِعت معايير اقتصادية واجتماعية وسياسية، كانت مطبقة في كثير من العصور، ولم تطبق في عصور أخرى، ولكنها ظلت المعيار والنموذج والنطاق المركزي ([١٦]). كما قام الحكم الإسلامي (وهو بمفهوم الدولة تقريباً) على اعتبارات أخلاقية وقانونية وميتافيزيقية واجتماعية وسياسية، تخالف ما تقوم عليه الدولة الحديثة، فالجماعة / الأمّة تحلّ محل الشعب الآن، والأمّة مفهوم معنوي ومادي، وفي كلتا الحالتين محكوم بقواعد أخلاقية، وبغض النظر عن جغرافية الدولة، فإن كل إقليم تطبق فيه الشريعة الإسلامية يُعَدّ مجالاً إسلامياً، أو داراً للإسلام ([١٧]).. ويذهب المؤلف إلى أن مبدأ الفصل في السلطات، في الدولة الحديثة،وأنظمتها الدستورية، أضعف مما نجده لدى نظام الحكم الإسلامي، وأن الفقهاء تفهموا حاجات الشعب ومصالحه،وعبّروا عنها، مما يجعل الحكم الإسلامي نسيجاًلحكم مدني عادل وديمقراطي ([١٨]).

ويكون السؤال:هل قبول مفكري الإسلام المعاصرون، للدولة المدنية الحديثة، في أدبياتهم، كافٍ لإحداث التواءم المطلوب بين القديم والجديد، أو الأصالة والمعاصرة؟

للإجابة عن هذا السؤال، يورد المؤلف رأي (جماعة الإخوان المسلمين)، بوصفها الجماعة الأكبر في الحركات الإسلامية المعاصرة، والتي قبلت بنمط الدولة المدنية الحديثة، ونظمها الغربية، إذا كانت قواعدها لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية، لأنها تأتي ضمن الاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة في الشأن السياسي والتنظيم الإداري للدولة[١٩].فهم يرون أن الشريعة يمكن أن تقدم حلولاً وإجابات لأزمة القيم الأخلاقية المعاصرة، وتناقش الأزمات الاجتماعية والنفسية المعيشة[٢٠]. أما قضية أن الشريعة إنما هي تفسيرات واجتهادات بشرية، كما يقول العلمانيون، وإنما الجماعة المسلمة هي التي قدمت الفقهاء / الخبراء الشرعيين والقانونيين، الذين تلمسوا حاجات الناس الاجتماعية والنفسية،وسعوا لاستنباط ما يتواءم معها من الشريعة[٢١]، وللفتاوى أسس وقواعد لا يتخطاها الفقهاء، والذين هم يترفعون عن الدنايا، بكافة أشكالها، وإن وُجِدَعلماء يخالفون شروط الفتوى، فلا يعتد بآرائهم، وإنما الفتاوى المعتبرة هي التي استندت عليها المؤلفات الشرعية الرصينة[٢٢]. أما التوجس الذي كان ينتاب البعض من بعض الفقهاء الخاضعين للولاة والأمراء، فإنهم كانوا منبوذين علمياًومجتمعياً، والتوجس نفسه دال على الالتزام نحو الأخلاق وحقوق المجتمع[٢٣].

أزمة الذات المسلمة المعاصرة :

وهي الذات التي تشكلت ونمت في ضوء منظومة المؤسسات التعليمية المقامة على النظام الغربي في البلاد الإسلامية، من مدارس وجامعات ومعاهد عليا ومراكز بحثية، فتلقت التعليم المدني، وفي نفس الوقت سعت إلى التوافق مع القوانين والنظم والدساتير وشكل الدولة المستورد من الغرب، فقبلت بأية أشكال منها.

وفي سبيل إيضاح نظرة الشريعة للإنسان ذاته، يورد المؤلف رأي (أبي حامد الغزالي)، في كتابه (إحياء علوم الدين)، موضحاً أن الإنسان كائن قابل للتشكل، تتنازع فيه نوازع أربعة: سبعية، بهيمية، شيطانية، ربانية.. وأن الشريعة، بهديها وقانونها، تقود الإنسان إلى طريق الخير، الذي يدعمه نظام الدولة الأخلاقي كله[٢٤]. فالسلوك الأخلاقي مكتسب بالكامل، ومسألة تدرب، ولو لم يكن هكذا لما كان هناك معنى على الإطلاق للتربية والتوجيه والإرشاد[٢٥].

ويطلق عليها المؤلف (ذاتية علمانية)، تقبل الانتماء للإسلام، وتتكيف مع الدولة الغربية، دون أن تلتزم بـ" تقنيات الذات Technologies of the Self"([٢٦])، في فروض وممارسات ونظم. ولكن ثمة أدلة على فشل هذا التوجه، كما وضح في فشل الحقبة الناصرية، والشعارات الاشتراكية، وصعود قوى الإسلام السياسي، وهجومها الشديد على هذا الإخفاق([٢٧]).

إن رأي المؤلف المتقدم، يقيسه على فشل المشروع الناصري، ومختلف التجارب التي شابهته، في العراق وسورية والجزائر وليبيا وتونس، لأنها – ببساطة – ارتكزت على المشروع الغربي كله، فلسفة وقيماً وأخلاقاً وسياسة ونظماً ومؤسسات، وسعت لاستنساخه، في ضوء منظور بناء التاريخ والتقدم على المركزية الغربية، أي هيمنة البنية الفكرية الغربية([٢٨])، دون النظر إلى حاجة الشعوب النفسية والفكرية والاجتماعية لهذه النظم. أما الإسلام في تلك الفترة، فيمكن أن نقول إنه كان إسلاماً محدوداً ومقتصراً على المساجد والمؤسسات الرسمية، مثل الأزهر في مصر، والقرويين في المغرب، يتصدره علماء تقليديون، يقدمون العلوم الشرعية القديمة، وغير منشغلين بمناقشة مدى قبول الشعب لشكل الدولة الغربي، وجلّ ما فعلوه هو محاولة التجسير بين الإسلام الدين، وبين الاشتراكية المستوردة، وهي محاولة أشبه بصبغ الجدار الذي سرعان ما جف وتقشر، وسقط الطلاء كله، وأبان عن فشل التجربة برمتها.

فالدولة القومية الحديثة ترى نفسها مصدر السلطة والتشريع والتنفيذ، ولا يتقدمها شيء آخر، فلها الحق في بسط سلطانها على كل شيء في الدولة، بما فيها المؤسسات الدينية ذاتها، لتخضعها لنظامها القانوني. أما الدولة الإسلامية، فإن الشريعة مصدرها، وهي التي تنظم المجال الإنساني فيها عامة، إما بصورة مباشرة أو من خلال تفويض محدد وواضح، وتتحكم – بالتالي – في منظومة المؤسسات في الدولة الإسلامية، وتخضعها للإرادة الأخلاقية الشاملة، التي هي الشريعة ([٢٩])، التي سعت إلى تدعيم المنظومة الأخلاقية الاجتماعية والسياسية عبر اجتهادات شرعية مستمرة، لتعزز الجوانب التطبيقية لقانون الشريعة ([٣٠]) في وعي الناس العام.

فشتان بين تلك التجارب ورأي المفكرين السياسيين المعاصرين في شكل الدولة، فهم يقبلون الشكل الغربي المؤسس على قاعدة حريات، وحقوق الإنسان، ومحاسبة الشعب لحكومته بعد اختيارها، واستقلال المؤسسات القضائية والتشريعية، وكل هذا له جذور في الفكر السياسي الإسلامي القديم، الذي

كانت له مؤسساته ونظمه التي تخالف النظم الحالية. ولكن نظام الحكم الإسلامي اعتمد على مبدأ السيادة لله تعالى، وأن الأمة وأفرادها ليسوا غاية للدولة، وإنما هم ساعون ومرتهنون لغاية عظمى، وهي تحقيق خلافة الله على الأرض، وعمارتها ونشر القيم الربانية فيها([٣١]).

ويؤكد المؤلف على أن: التماهي بين الذات وبين الدولة الحديثة ذات السيادة، والذي يعد تشكيلاً للذات، بوصفها مصدراً لكل من القانون والأمة ذاتها، على أن مختلف المفاهيم المتصلة بالدولة هي مفاهيم لاهوتية معلمنة، أي تفصل الدين عن الدولة، فمن المستحيل نشوء دولة إسلامية السيادة على أسس القومية الغربية، والدولة موجودة لأجل وجودها، ومن ثم فإن المواطن لا قيمة له، بل يمكن التضحية به من أجل بقاء الدولة واستمراريتها، لذا فإن الدولة تمتلك القانون والقوة لتطبيق القانون، ولها نظامها البيروقراطي المهيمن، الذي لا يتغير إلا بتغييرات تشريعية([٣٢]). فالدولة لا تعرف إلا نفسها، وأنها غاية نفسها، ولا تعرف غاية أخرى([٣٣])،فالدولة الحديثة تمثل وحدة مترابطة إدارياً وقانونياً وعسكرياً([٣٤])، وبمرور الوقت تعاظمت سلطة المؤسسات والنظم في الدولة، وباتت متحكمة، وأدى مبدأ تقاسم السلطة إلى زيادة سلطاتها([٣٥])، ونشأت بالتالي سلطات مدعمة لسلطة الدولة نفسها،التي تسعى إلى مصلحتها بغض النظر عن اتفاقها أو تعارضها مع القيم الأخلاقية الإنسانية العليا: فإذا كانت حركتها تصب في مصلحة الدولة ذاتها فأهلاً بها، ولو أدت إلى السيطرة على شعوب أخرى مغلوبة على أمرها، ونهب ثرواتها، واستعباد سكانها، وإبادتهم أحيانا. فهي تقوم بكل ذلك من أجل مصلحة الدولة العليا فقط ([٣٦])، وهي أنانية مفرطة، أخضعت الشعب والقانون والسلطة التنفيذية، وأيضاً الشعوب الأخرى، لإرادتها.

إن مفهوم التماهي غاية في الأهمية، لأنه يعطي بعداً مهماً في بناء الدولة، وتأسيس شرعيتها. فالفرد –ببساطة– يتمثل توجهات الدولة، وفلسفتها،وقيمها، وهو الذي ينتخب حكومتها. وربما لا يكون هناك تلاق بين فكرة الدولة القومية والدولة في المفهوم الإسلامي، لأن الدولة القومية ترى الشعب صفوفاً متراصة في بنية الدولة التي هي هدفهم جميعاً، ومن واجبات الدولة الحفاظ على حقوق المواطن، وحمايته. أما الدولة في الإسلام، فهي قائمة على تحقيق مقاصد وغايات، نصّت عليها الشريعة،وشدّدت، فالشريعة تسبق الدولة والسلطة التنفيذية، والفرد والدولة والجماعة مسؤولون أمام الله سبحانه ([٣٧])، فالله سبحانه وتعالى هو صاحب

السيادة، وهو جل شأنه يملك كل شيء، بالمعنى الحرفي، فيملك الأشياء والبشر. وأما ما يملكه الناس من متاع أو عقار، فهو ملكية مجازية لا أكثر، ويظل كله لله تعالى ([٣٨]). وبالتالي هناك فرق بين مكانة الفرد في الدولة الوطنية / القومية، وبين مكانته في دولة الإسلام، ففي الثانية ينتمي لها عقدياً، ويرى أنها تحقق مقاصد الشريعة، وقائمة على تطبيقها، فإذا لم تطبقها، فيمكن أن تسقط، لتأتي دولة أو حكومة أو أمراء آخرون يقومون بهذه المهمة.

إن النتيجة التي يصل إليها المؤلف([٣٩])، في نهاية كتابه،تركز على أهمية تفكير المسلمين المعاصرين في تشريع نظم لدولهم، تتخذ من النطاق المركزي الأخلاقيالإسلامي نموذجاً وهدياً، بحيث يكون قابلاً للتطوير والبناء عليه، ويكون لديهم تخيل لشكل تلك الدولة الأخلاقية ذات المرجعية الشرعية، يساهمون به في الفكر السياسي الإنساني، بصياغة قواعد شريعتهم بطرائق جديدة، والدخول في نقاش مع نظرائهم الغربيين، وفي العالم كله، يبرزون فيه الطابع الأخلاقي الفاضل للشريعة، وفائدتها للإنسانية، خصوصاً أن هناك اتجاهاً أخلاقياً مهماً في الحضارة الغربية، يرتكز على المسيحية، وإن كان معارَضاً من اتجاهات علمانية أخرى،ترتكز على الرؤية السقراطية للإنسان، ولكن لابدّ من تدعيم الأخلاقيات وفق مبدأ التعددية الأخلاقية والثقافية، كما يجب الوصول إلى ميثاق أخلاقي مع سائر البشر، وأيضاً: الطبيعة والكون الذي يحوينا❐

الهوامش:

١) تأليف وائل حلاق، ترجمة: عمرو عثمان، سلسلة ترجمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، دولة قطر، ط١، أكتوبر ٢٠١٤م .

٢) كان هذا البعد حاضراً بقوة في وعي المؤلف، وعبّر عنه في مقدمته، وفي ثنايا الكتاب، وفي نهايته أيضاً. انظر على سبيل المثال الصفحات: ٢٢ حيث يشير إلى الثورات المعاصرة ذات الطابع الإسلامي، مثل الثورة الإيرانية، وصعود تيارات الإسلام السياسي في الربيع العربي. وفي ص٢٩٤ يؤكد على أهمية تحرك المسلمين مستغلين ثوراتهم في تقديم مشروعهم الأخلاقي.

٣) ص١٩ .

٤) ص٣١، ويستدل على ذلك بإيران، حيث أخضعت الثورة الإسلامية مؤسسات الدولة للشريعة الإسلامية، فشوهتها في الإجراءات والتطبيق، فلم تتحقق مزايا الدولة المدنية الحديثة،ولا الدولة الإسلامية المأمولة. وقد أورد المؤلف هذه الملحوظة عن إيران، دون توثيق لمصدره، فهي رأي على إطلاقه، لا يستند إلى بحوث ميدانية في ميدان الإدارة والحكم.

٥) ص٢٠ .

٦) يقصد به:فكرة أو مجموع الأفكار التي تنبع من النطاق، وتدور حوله الأفكار الأخرى. والنطاق هنا هو نطاق الإسلام المركزي الأخلاقي . انظر التعريف ص٣٠١

٧) ص٢٥٠ .

٨) ص٥٧.

٩) ص٣٣ ، ٣٤ .

١٠) ص٤٠ ، ٤١.

١١) ص٥٣ .

١٢) ص٣٠٢.ويعني بالنموذج: الأفكار السائدة، والمسلمات، والافتراضات، في عصر ما .

١٣) انظر الصفحات : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

١٤) ص٤٣ .

١٥) انظر الصفحات ٢٦٠–٢٦٥ .

١٦) ص٤٥ .

١٧) ص١٠٥.

١٨)ص١٤٨ .

١٩) ص٢٢ .

٢٠) ص٥٠ .

٢١) ص١١٣.

٢٢) ص١١٦.

٢٣)ص١١٩ .

٢٤) ص٢٣٦ .

٢٥) ص٢٣٩ .

٢٦) يعود المفهوم إلى (ميشال فوكو)،ويشير إلى: الوسائل المتاحة التي يستخدمها الفرد للتأقلم داخل النظام الاجتماعي القائم، وكيفية إخضاع نفسه لقيود المجتمع. واستخدم المؤلف المصطلح في حديثه عن إخضاع المسلم للعبادة والأخلاق. ص٢٩٩ .

٢٧) ص٤٧ .

٢٨) ص٥٤ .

٢٩) ص١١١.

٣٠)ص٢١٤ .

٣١) ص١٠٦ .

٣٢) انظر : ص٧٠ –٧٨ .

٣٣) ص٨٢ .

٣٤) ص٨٧ .

٣٥)ص١٩٤.

٣٦)ص١٩١ ، ١٩٢ .

٣٧) ص١٠٨ .

٣٨)ص١٠٩ .

٣٩) الصفحات : ٢٩٤–٢٩٧.

الهند من خلال رحلة ابن بطوطة

(دراسة في الجوانب السياسية والحضارية)

كتاب للدكتور ياسر عبد الجواد المشهداني

عرض: د.محمد نزار الدباغ

نشأت في بلاد الهند إحدى أبرز الحضارات القديمة أصالةً، وكان لها صلات بالمراكز الحضارية الأصيلة في بلاد العرب. ومما يدل على ذلك، تماثل الأوجه الحضارية بين الطرفين. وبعد ظهور الدين الإسلامي، في القرن السابع للميلاد، شهدت العصور الوسطى الإسلامية اللاحقة، تطور صلات الهند بالعرب والمسلمين، كما شهدت أيضاً ترسيخ مبادئ الإسلام، ونظامه السياسي، هناك. ومن ثم، تعزيز تراثها المحلي بالتراث العربي الإسلامي، الذي يعدّ– بحقّ – مفخرة للعرب والهنود، على حدٍ سواء.

ونظراً لأهمية هذا التراث، وديمومته من جهة، وتداخل عوامله ومكوناته، من جهة أخرى، فقد كان من الطبيعي أن تحظى عدد من جوانب هذا التراث، وعصوره، بعناية عدد من الدراسات العلمية، ومن بينها موضوع: (الهند من خلال رحلة ابن بطوطة)، الذي يلتقي في سياقه العام، وهدفه، مع غيره من الدراسات التي سبقته. إذ تكمن أهميته

في أن (ابن بطوطة) كان الرحالة الوحيد الذي دخل الهند،ومكث فيها قرابة عشر سنوات، ودوَّن عنها كثيراً من المعلومات، كما حصل على التوظيف الرسمي قاضياً للمالكية في (دلهي)، وصاهر أُسراً معروفة هناك. وقد شكّلت رواياته عن الجوانب السياسية والحضارية، أهمية كبيرة لكل من يتصدى للبحث عن تاريخ الهند، في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. كما أن رحلته، والمعلومات الفريدة التي أوردها، تعد أحد أشكال جسور التواصل مع الحضارة الهندية الأصيلة العريقة، على سبيل رؤية الحاضر بعين الماضي، من أجل إدامة الصلات السابقة بين الطرفين.

إن ما يميز الموضوع هو الدافع الطوعي الذي حدا بـ(ابن بطوطة) إلى القيام برحلته، فهو لم يكن تاجراً، ولا مؤرخاً، ولا جغرافياً، بل استطاع أن يوازن بين عنايته بوصفه فقيهاً وعالماً دينياً، وبين الأمور الأخرى المتعلقة بمختلف جوانب الحضارة والحياة.. كما أن ميزة الموضوع الأخرى، هي أن(ابن بطوطة) كان شاهد عيان مباشر على أغلب الأحداث، باستثناء عدد من الأخبار التي رواها عن العلماء الثقاة الذين التقى بهم هناك، مما يعطي رواياته موثوقية أكبر.

يهدف الموضوع إلى تحقيق غايتين: الأولى: هي الوقوف على صحة ودقة المعلومات التي قدمها (ابن بطوطة) عن (الهند)، من خلال التطرق إلى من ضعَّف، ومن أشاد به من المؤرخين، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة من خلال مناقشة أهمية ما أورده عن الهند، وتفنيد ما ذُكِرَ ضده.والهدف الثاني، هو: توظيف الرحلة، بوصفها مصدراً للتاريخ الحضاري للهند في تلك المدة، وإبراز الأثر العربي الإسلامي فيها. ومن أجل الوصول إلى الحقيقة، فقد اعتمد الكتاب على تحليل الروايات، ومن ثم مقارنتها بما ذكرته المصادر الرديفة السابقة،أو المعاصرة،أو اللاحقة له، مع الابتعاد عن السرد النظري.

ارتأى المؤلف، وحسب طبيعة المعلومات الواردة، أن يتضمن الكتاب تمهيداً وأربعة فصول، فضلاً عن المقدمة والخاتمة والخرائط

المساعدة والملاحق. جاء التمهيد في بيان طبيعة عصر ابن بطوطة، وسيرته، ورحلته، وكيفية دخوله الهند، حتى خروجه منها. ومن ثم بيان حدود الهند، ووصفها، وما كانت تضمه من أقاليم ومدن آنذاك. وكذلك الإشارة إلى طبعات كتاب الرحلة، والنسخة التي اعتمدها المحقّق، وسبب ذلك.

عالج الفصل الأول (الجوانب السياسية والإدارية) في ثلاثة مباحث: تناول المبحث الأول: نشوء عصر السلطنات الإسلامية في (دلهي)، قبل وأثناء وصول (ابن بطوطة) إليها،وبيان طبيعة حكمها، وأهم نظمها السياسية، ومن ثم محاولة تكوين صورة واضحة عن شخصية سلطان الهند (محمد تغلق)، من خلال كتاب الرحلة. في حين ضمّ المبحث الثاني:أعمال السلطان (محمد تغلق)، على الصعيدين السياسي والإداري. وتناول المبحث الثالث:العلاقات الخارجية للهند، في تلك المدة.

أما الفصل الثاني: (الأوضاع الاقتصادية)، فقد اشتمل على مبحثين: تطرق المبحث الأول إلى مرويات ابن بطوطة عن الزراعة، وما يتعلق بها من المحاصيل، وطرائق الري، ومواسم الزراعة، والإجراءات التي اتخذتها السلطنة عند حدوث الكوارث والمجاعات. ولم يغفل المبحث الإشارة إلى الصناعات الغذائية والإنتاجية، وبيان المواد المستخدمة فيها، وأماكن تمركزها، فضلاً عن ذكر العوامل التي ساعدت على إنعاش الوضع الاقتصادي الهندي، ولاسيما دعم السلطنة للتجار والفلاحين وأهل الحرف، واستقرار قيمة العملة...إلخ. في حين تحدث المبحث الثاني عن التجارة الداخلية والخارجية، وبيان أهم الصادرات والواردات، فضلاً عن التطرق إلى أهم النقابات التجارية، التي أدت دوراً متميزاً في الحياة الاقتصادية، ليس في الهند فحسب، بل في كافة الدول التي ارتبطت معها بعلاقات تجارية بحرية.

كما احتوى الفصل الثالث: (الحياة الاجتماعية) على مبحثين: إذ عدّد المبحث الأول أهم الطبقات الاجتماعية والطوائف الدينية في الهند. وتناول المبحث الثاني: مرويّات الرحالة عن المظاهر والتقاليد السلطانية، التي كانت تخص الأسرة الحاكمة في الهند، وكذلك المظاهر الاجتماعية والتقاليد المحلية الأخرى والدينية التابعة للهنود، وما يتعلق بحياتهم اليومية وأفراحهم وأحزانهم، ثم الإشارة إلى مكانة المرأة ودورها في الحياة الاجتماعية، وتقديم ما ذكره عن تقاليد الزواج في مختلف المدن في الهند. كما أشار المبحث إلى ظاهرتي الحرق والغرق، اللتان تحدّث عنهما الرحالة السابقون، بإسهاب.

أما الفصل الرابع: (الحياة الثقافية)، فقد جرى فيه تناول ثلاث مباحث: الأول

ذكر دور العلم، سواء أكانت مساجد ومدارس وغيرها،وبيان طبيعة العلوم السائدة، وتخلل ذلك بيان أهم مناهج التعليم في الهند. أما المبحث الثاني، فاحتوى عرضاً لسير عدد من العلماء المسلمين الذين التقى بهم ابن بطوطة في الهند، ومن ثم ذكر رعاية السلاطين الهنود لهم.وفي المبحث الثالث، جرى تناول الحركة العمرانية، من أبنية ومساجد، لعدد من المدن الهندية، كـ(دلهي Delhi) و(سيوستان Sehwan) و(هنور Hanovar)، وبيان الأثر العربي الإسلامي في فن العمارة على الطرز الهندوسية القديمة التي امتزج معها.

وجاء تقديم هذا الكتاب بقلم سعادة الأستاذ الدكتور (عبد الهادي التازي)، عضو أكاديمية المملكة المغربية، مُسطراً بهذه الكلمات البليغة، قال:"كنا بحاجة إلى هذا البحث الجيد الذي قدمه إلينا الدكتور (ياسر عبد الجواد المشهداني) عن (الهند من خلال رحلة ابن بطوطة). نحن نعتقد أن كل عنوان من عناوين الرحلة يقتضي منا أن نتتبعه بالشرح والتعليق، ولا سيما (الهند) التي قضى فيها ابن بطوطة (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٩م) فترة هامة، كانت فترة القمة من حياته...

وقد أحسن الدكتور (ياسر) عندما أشعرنا أنه لا يقصد إلى الهند في رقعتها الحالية، ولكنه يقصد إلى الهند الواسعة الأطراف، التي كانت تشمل: سيلان، وجزر مالديف، والبنغال، وجانب من جبال الهيمالايا، وملتان،..إلخ.

وقد أكبرت في الأستاذ سعة صدره، عندما قام باستشاراته لعدد مهم من المصادر والمراجع، سواء المكتوب باللسان العربي، أو غير العربي. وكان في مقدمة تلك التآليف، مصنف الدكتور (مهدي حسين)، الذي كان الباحث الوحيد، من بين المهتمين بابن بطوطة، الذي رحل إلى (باريز)، ليتأكد من المخطوطات التي تحتضنها المكتبة الوطنية بالديار الفرنسية.

وقد استحسنتُ صنيعه عندما كان يوثق تواريخه بذكر الموافق بالشمسي إلى جانب التاريخ القمري، هذا إلى حرصه على كتابة الأسماء والأعلام بالحروف اللاتينية إلى جانب الحروف العربية. إن مثل ذلك الصنيع هو الجدير اليوم بالباحثين.

ولا أدري هل ما إذا كانت بعض الإحالات في التعاليق تحتاج إلى مراجعة من أخينا الأستاذ (المشهداني)، فقد كنت أحتار في الوصول إلى حقيقة أرقام الأجزاء والصفحات، وأنا أعرف متاعب الأخطاء المطبعية..

هناك موضوع ثان كنت أريد أن أسأل الدكتور (المشهداني) عنه: ذلك موضوع (المركب الثلاثي)، الذي يقدّم لضيف الهند، والذي يعتبر في تقاليد القارة رمزاً للتكريم.. هذا (الثلاثي) يتألف:أولاً من

أوراق (التنبول)، وليس من أزاهيره، ولا من وروده، إنه أوراق فقط.

وثانياً: إلى جانب أوراق التنبول، يقدم (الفوفل) الذي يعني جزءاً من (جوزة الطيب)، التي يتناولها الضيف إلى جانب ورقة التنبول.

ثالثاً: ومع هاتين المادتين، تقدّم مادة (النورة)، وهي ليست نباتاً، ولكنها شبه حجر يلوكه الضيف.

يعتبر تقديم الثلاثة مبادرة تكريمية للضيف في الهند، سواء على الصعيد الرسمي أو الشعبي.

وأذكر أنني تناولت الثلاثة في أعقاب مأدبة غذاء حضرتها في (دهلي)، بوزارة الشؤون الخارجية، كما أذكر أنني تناولت هذا المزيج في القصر الجمهوري، بمناسبة العيد الوطني...

أريد القول: إن الحديث المفصل عن هذه المواد مما قد يكشف لقراءة الرسالة هذا النمط من الفولكلور الهندي الذي صمد إلى اليوم: ورق التنبول، أجزاء من جوز الطيب، حصة من النورة، ولا أدري أصول هذا التقليد عندهم.

هناك رجاء يبقى لي، أتمنى أن يبرز الحدث الدبلوماسي، وبعده الدولي الكبير... هذا الحدث: سفارة ملك الصين لدى سلطان الهند، وسفارة الهند جواباً على هذه السفارة. لقد قمتم مشكورين بالإشارة إلى هذا النوع من العلاقات الدولية، ولكني كنت أطمع في أن تتحدثوا مثلاً عن الأطنان من المسك الذي قدمته الصين للهند.. وعن الهدايا التي كانت جواباًمن الهند على هدايا الصين..

هذا الحدث الكبير استأثر بذكره (ابن بطوطة)، دون سائر الكتب التي تناولت تاريخ الصين والهند، وقد طرح عليّ السؤال في أعقاب محاضرة لي بـ(جامعة بكين): ما هي المصادر التي اعتمد عليها ابن بطوطة؟!

وهنا كان الجواب: إن المصدر الذي يعتمد عليه (ابن بطوطة)، هو (ابن بطوطة) شاهد عيان!! (ابن بطوطة) الذي كان يتمتع بمصداقية عالية رفيعة.

أريد أن أخلص في هذا التقديم المقتضب، إلى التأكيد على أنكم بإلقاء الضوء على مقام ابن بطوطة بالهند، قمتم بدور هام في سبيل التعريف بالعمل العظيم الذي تفرد به الرحالة المغربي بامتياز، عمل جاد قدمتموه إلينا، كنا نستمتع بالاستفادة منه، وأشعر بأنني أمام باحث عميق الغور،يتطلع إلى إبلاغنا بأسلوبه الخاص..

هناك معلومات (بطوطية) من الهند، ما تزال قصية عنا..عن مصير أحمد، الابن الوحيد المتبقي لابن بطوطة، والذي تركه أمانة عند الحفيد الثالث للخليفة المستنصر بالله العباسي، عندما سافر إلى الصين.عن بعض المعلومات التي وعد ابن بطوطة

بالحديث عنها، ولم يفعل: السلطان هريب، مثلاً.

ونحن نودع الدكتور (ياسر)، الذي لاحظ اختزال الرحالة لبعض المعلومات عن الهند، نؤكد أن السبب في ذلك يعود للناسخ (ابن جزي)، الذي كان على حال صحي لم يسمح له بالإطناب والإسهاب..

مهما يكن.. فأنا أجدّد الرجاء للأستاذ (المشهداني) أن لا يقطع الصلة بابن بطوطة في الهند، وأن يعمل على استثمار مقام هذا الرحالة العربي بالهند، بكل ما يتوفر عليه من معلومات، لا سيما وأن له رسالة سابقة عن علاقات الهند بمصر، مكنته من اختراق فضاء العوالم الأخرى..

التهنئة مجددة لـ(ابن بطوطة)، الذي يكتسب زبناء جدداً له كل مطلع شمس.

وإذا أعظم البلاد بنوها *

أنزلتهم منازل الإجلال!"

ومما يجب التنويه إليه،أن المؤلف من مواليد مدينة (الموصل)، سنة ١٩٧٥، وهو من الباحثين والأساتذة الأكفاء،الذي يختار عناوين بحوثه بعناية،ويمتاز بعلمية جادة في تخصصه بالتاريخ الإسلامي، وتحديداً (الإسلام في الهند وجنوب شرق آسيا). له خمسة كتب مطبوعة – مع هذا الكتاب – أحدها تأليف بالإشتراك،فضلاً عن عشرة بحوث منشورة في دوريات أكاديمية وعلمية مُحكمة، وما يزيد عن خمسة عشر مقالاً منشوراً في مجلات علمية وثقافية، جُلّها في مجلة (مناهل جامعية)،التي تصدر عن شعبة الإعلام في جامعة الموصل، ومجلة (موصليات) التي تصدر عن مركز دراسات الموصل/ جامعة الموصل. وشارك المؤلففي مؤتمرات وندوات علمية وثقافية:عراقياً وعربياً وعالمياً، وصلت إلى ثلاثة وعشرين مشاركة.

وهذا الكتاب كان في الأصل مشروع أطروحته للدكتوراه، والتي نوقشت في قسم التاريخ/ كلية التربية، جامعة الموصل، سنة ٢٠٠٥، تحت إشراف الأستاذ الدكتور (حسين علي الطحطوح). وها نحن نراه اليوم يخرج للنور في طبعة جميلة، وبحلة قشيبة،صدرت عن منشورات المعارف في الرباط بالمغرب، سنة ٢٠١٠، في (١٩٢) صفحة.

وأخيراً، أتوجه بالتحية والتقدير للزميل والصديق العزيز – مؤلف الكتاب – الدكتور (ياسر عبد الجواد المشهداني)على هذا النتاج العلمي المهم، الذي سيأخذ مكانه في المكتبة البلدانية العربية، متمنياً له المزيد من التقدم والنجاح والعطاء العلمي، بحثاً وتأليفاً❐

- الأمين العام يدعو السياسيين إلى الحوار
- الاتحاد الإسلامي ومشروع التعاون الإسلامي
- الملتقى الفكري لـ(المنتدى العالمي للوسطية)

تقرير: المحرر السياسي

أربيل/ الحوار

متابعة: سرهد أحمد

الأمين العام يدعو الفرقاء السياسيين للعودة إلى طاولة الحوار لتحقيق مصالحة وطنية شاملة

تقرير: المحرر السياسي

دعا الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين) الأمين العام لـ(الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) الفرقاء السياسيين للعودة إلى طاولة الحوار لتحقيق مصالحة وطنية شاملة، وتجاوز الأزمة الراهنة التي يمر بها إقليم كوردستان.

جاء ذلك في رسالة وجهها الأستاذ الأمين العام يوم الجمعة الموافق ٢٠١٧/٥/٢٦، بمناسبة حلول شهر رمضان الفضيل.

وقال الأمين العام:"آمل استثمار هذا المناخ المعنوي والروحي لشهر رمضان المبارك، لتحقيق مصالحة وطنية بين الفرقاء السياسيين، والكفّ عن الصراع السلبي والانتهازية الحزبية للأحداث، فشعبنا لا يستحق هذا الحرمان والتردّد. شهر رمضان فرصة جيدة للتصالح والجلوس إلى طاولة الحوار للوصول إلى معالجات جدية".

كما ودعا سيادة الأمين العام نشطاء مواقع التواصل الاجتماعي، والوسائل الإعلامية، والإعلاميين، إلى الصبر وتجنّب المعارك الإعلامية والصراعات، والابتعاد عن استخدام العبارات غير اللائقة والتشهير، ونكئ الجراحات، وتقليب التاريخ، مبيّناً أن "هناك مساحات جمالية كثيرة يمكن أن ينشغلوا بها، وأوصيهم أن لا يخربوا هذه الأجواء الروحية والمعنوية العامرة لشهر رمضان، ويطفئوا نار التخريب والفتنة.. تلك المساحات هي التعايش معاً، واحترام بعضنا البعض".

وفي جزء آخر من رسالته، ناشد الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين) المواطنين الميسورين إلى انتهاز الفرصة لإغاثة المحتاجين والمعوزين، قائلاً: "في ظلّ هذه الأوضاع المالية السيئة، والحالة المعيشية المتردية، نتيجة الفشل الاقتصادي الذي لحق بإقليمنا، بعيداً عن الجدل التحليلي والتقاضي، حان وقت إطلاق حملة مساعدات، والبدء بالتعاون، والالتفات المالي والاجتماعي بين المواطنين، على مستوى القرى والمدن والأحياء، حملة مكافحة الفقر، وإعانة ذوي الاحتياجات الخاصة، والمتعففين، والأطفال المحرومين. إنها فرصة مهمة للإخوة والأخوات الميسورين أن يستحصلوا البركة في أرزاقهم، ومكاسبهم، بإدخالهم السرور إلى قلوب إخوانهم المواطنين".

وكان الأستاذ الأمين العام قد وجّه في مناسبات عدة دعوات مماثلة إلى الفرقاء السياسيين، مناشداً إياهم تنحية خلافاتهم جانباً، والشروع في حوار جاد وشامل لكسر الجمود الحاصل في العملية السياسية، وإخراج الإقليم من أزماته، عبر تفعيل البرلمان الكوردستاني، وإعادة هيكلة الحكومة من جديد، والخروج بتوافق حول المسائل الوطنية، لا سيّما مسألة رئاسة الإقليم، التي تعد نقطة الخلاف الرئيسة بين الأحزاب والقوى الكوردستانية❐

الاتحاد الإسلامي الكوردستاني:

سنواصل العمل بجدية حتى يتحقق الهدف المنشود من مشروع التعاون الإسلامي

أربيل: الحوار

أكّد الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين) الأمين العام لـ(الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) قائلاً: "سنواصل العمل بجدية حتى يتحقق الهدف المنشود من مشروع التعاون الإسلامي بين الأحزاب والمنظمات والشخصيات الإسلامية في إقليم كوردستان".

كلام الأستاذ الأمين العام جاء خلال مأدبة إفطار رمضاني أقامها لعدد من ممثلي الجهات والمنظمات والشخصيات الإسلامية في أربيل يوم ١٩/ ٦/ ٢٠١٧.

وأوضح: "إذا كان أي طرف ينوي التملّص من المشروع، سنواصل نحن مع بقية الأطراف والمنظمات والشخصيات الأخرى

العمل ضمن هذا المشروع، إلى أن يحقق الأهداف التي تكون مبعث سرور لمناصري التيار الإسلامي"، مشدّداً على أن متغيرات الساحة السياسية الكوردستانية تفرض على الإسلاميين موقفاً موحداً، معبّراً عن أمله في أن يسعى كل طرف من الأطراف الإسلامية إلى تنمية مشروع التعاون الإسلامي وتفعيله.

وكان الأستاذ الأمين العام قد كشف خلال تفقده لكوادر الحزب وتنظيماته في منطقة (بازيان) بالسليمانية، يوم الثلاثاء ٢٠١٧/٦/١٣، عن اعتزام (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) تشكيل قائمة انتخابية باسم (الإصلاح الوطني)، وإعلانها، لخوض الانتخابات التشريعية المقبلة في إقليم كوردستان.

وتابع الأستاذ (صلاح الدين بهاء الدين): "ستضم القائمة الانتخابية شخصيات إسلامية متخصصة في كافة المجالات، ومساعينا متواصلة لإشراك غالبية الشخصيات والأطراف الإسلامية في هذه القائمة المرتقبة، وسيكون الاتحاد الإسلامي المعزز لها".

جاء ذلك غداة تحديد رئاسة الإقليم، في اجتماع موسّع مع رؤساء وممثلي أحزاب كوردستانية، موعد إجراء الانتخابات البرلمانية والرئاسية في ٢٠١٧/١١/٦.

ويبذل (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) جهوداً حثيثة في تقريب الأحزاب والهيئات والشخصيات الإسلامية الكوردية، والعمل معاً تحت مظلة واحدة، وكانت هذه المساعي قد نجحت قبل أشهر في إعلان (مشروع التعاون الإسلامي)، بعد عقد لقاءات قمة لرؤساء الأحزاب الإسلامية الثلاثة: (الاتحاد الإسلامي) و(الجماعة الإسلامية) و(الحركة الإسلامية)، في أربيل والسليمانية.

وكان الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاء الدين) قد أجرى آخر زيارة يوم الأحد ٢٠١٧/٥/٢٨ إلى (الجماعة الإسلامية الكوردستانية)، والتقى خلالها (الشيخ علي بابير)، أمير الجماعة، حيث بحثا سبل تفعيل خطوات مشروع التعاون الإسلامي❐

في الملتقى الفكري

لـ(المنتدى العالمي للوسطية) - فرع كوردستان..

- الدكتور محسن عبد الحميد:

الكون كله مبني على أسماء الله الحسنى، وهي مصدر القيم..

- الدكتور عماد الدين خليل:

الجهاد مشروع حضاري، وليس لفرض الهيمنة على العالم بقوة السلاح

تابع الملتقى وأعده للنشر: سرهد أحمد

نظم المنتدى العالمي للوسطية/ فرع كوردستان يوم الاثنين ٢٠١٧/٦/١٢، الملتقى الفكري الرمضاني في العاصمة (أربيل).

ودعي كل من الدكتور (محسن عبد الحميد)، الأكاديمي والباحث الإسلامي، والدكتور (عماد الدين خليل) الأكاديمي والمؤرخ الإسلامي، لإلقاء محاضرتين في الندوة

التي حضرها جمع غفير من الشخصيات الدعوية والسياسية والمهتمين بالفكر الإسلامي إلى جانب إعلاميين وصحفيين.

عقدت الندوة على قاعة (الشهيد فؤاد جلبي)، في مبنى المركز االثاني لـ(الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، وأدارها الأستاذ (عمر إسماعيل) الباحث في الفكر الإسلامي، وعضو فرع كوردستان للمنتدى العالمي للوسطية.

وتأتي هذه الندوة ضمن سلسلة ندوات فكرية وعلمية ينظمها المنتدى العالمي للوسطية – فرع كوردستان، في عدد من مدن الإقليم، لعرض الطروحات الفكرية الهادفة لتشخيص مستجدات الواقع الحالي من منظور المنهج الاعتدالي والوسطي وكيفية التعامل معها.

بداية ألقى الدكتور (محسن عبد الحميد) محاضرته، وهي بعنوان (القيم في القرآن)، ابتدأها قائلاً: "إن موضوع القيم في القرآن موضوع واسع ومتشعب وله خصوصية كبيرة جداً، وتختلف القيم الإسلامية النابعة من القرآن الكريم عن غيرها مما يعرف بالقيم في معتقدات دينية وفكرية شتى، على سبيل المثال: عندما كانت تحتل الولايات المتحدة الأمريكية بلداً ما، تعتبر ذلك وفق منظورها (قيماً حضارية). وبهذا الصدد يقول (جون ديوي) (John

Dewey)، وهو فيلسوف وعالم نفس أمريكي، وزعيم من زعماء الفلسفة البراغماتية، عن هذه (القيم) بأنها (مصلحة)، ويضيف بأنه إذا لم تحقق هذه (القيم) شيئاً، فلا بد أن تتغير كل (٢٥) عاماً إلى قيم جديدة.. إذاً، هذه هي (القيم) من المنظور الغربي (الأمريكي). وهذا يذكرنا بما عبّر عنه الشاعر العربي (أديب إسحاق)، في قوله: (قتل امرئ في غابةٍ جريمةٌ لا تُغتَفر وقتل شعبٍ آمنٍ مسألةٌ فيها نظر).. وأود هنا التذكير بأننا حين كنا طلاباً في كلية التربية ببغداد، خلال حقبة الخمسينيات، كان كتاب (التربية والديمقراطية والعلم) لـ(جون ديوي) منهجاً مقرراً ندرسه آنذاك"... "وبحسب مطالعاتي، يعني تعريف القيم: الميول والرغبات التي يفضلها المجتمع، وتعد سمات اجتماعية حميدة عند مجتمع من المجتمعات"... "أما (القرآن الكريم) فكله مبني على (القيم)، كما أن (القرآن الكريم) مبني على (الأسماء الحسنى). ليس هذا فحسب، بل (الكون) كله مبني على (الأسماء الحسنى)، وهي مصدر (القيم)، بل (القيم) نفسها!! فـ(الله) – جل شأنه– خلق هذا الكون، وبث في الإنسان، وبقية المخلوقات، أنصبة من (الأسماء الحسنى).. فبالنسبة لنصيب (الإنسان) من (الأسماء الحسنى)، يحدد الإمام (أبو حامد الغزالي) (رحمه الله) في مصنفه (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) نصيب كل عبد من هذه الأسماء، فيقول: نصيب العبد من هذا الاسم كذا وكذا.. هو أخذ بالحديث الذي رواه الإمام الترمذي في سننه (عَن أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً، مِائَةً غيرَ وَاحِدَةٍ، مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الجَنَّة). طبعاً هنا المقصود الالتزام بأسماء الله الحسنى، قولاً وعملاً، وليس فقط العد والإحصاء... "والقيم في القرآن الكريم لا نهاية لها، لأن كل اسم من هذه الأسماء يحدث ظلالاً في الوجود، فيمكن الاستنباط من كل اسم ما نشاء من (القيم)، من الآن وحتى قيام الساعة.. مثلاً: (الحق)، و(المحبة)، و(العدالة)، و(الاتفاق)، و(الأخوة)، و(التفكر)، و(التواضع)، و(الثبات)، و(حسن الظن)، و(العطف)، و(الرأفة)، و(الرحمة)، وكذلك نقائضها.. طبعاً (الأسماء الحسنى) منحت لـ(الإنسان) في إطار بشريته، لأن كل تلك الصفات، من (رحمة)، و(عدل)، .. وإلخ، عند (الله)، لا يمكن قياسها بـ(الرحمة) و(العدل) لدى الإنسان"... وفي هذا المقام سأفصل أكثر في هذه المسألة، حتى لا يتهمنا حفظة النصوص، وأصحاب المذهب الظاهري، بالخروج عن الملة – والعياذ بالله –، فأقول: إن القيم المستنبطة من (أسماء الله الحسنى، وصفاته)، شاملة، أي تشمل كل زمان

ومكان، لأن الحكمة من نزول (القرآن الكريم) هي ما عبّر عنه الصحابي (ربعي بن عامر)، في حواره مع (رستم)، بالقول: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"... "و(القيم) مؤيدة بـ(العقل المنطقي) وليس (العقل الفردي)، لأن (الإسلام) لا يتعامل مع (العقل الفردي).. فـ(العقل المنطقي) هو الحد المشترك بين العقول، كـ(الأوليات العقلية).. مثال على ذلك: أي شخص حين يمشي في الشارع، ويرى شخصاً ما يقتل شخصاً آخر، فسيستهجن هذا الفعل. هذا يعني أن (الرأفة) و(الرحمة) و(العطف) مشاعر فطرية، وهي كما قلنا (قيم) مستنبطة من (الأسماء الحسنى). فـ(الله) تعالى لم يحرم حتى الحيوانات من هذه القيم".. "ولـ(القيم) أيضاً أبعاد روحية، مثل: (الصلاة)، و(الصوم)، و(التقوى)، و(الخشية)، و(الرجاء)"... "ولها كذلك أبعاد اجتماعية، مثل: (الأخوة)، و(الدعوة إلى الخير)، و(التعاون)، و(المسؤولية الاجتماعية)، و(التواضع) "... "ولـ (القيم) بعد معرفي، مثل: (التعليم)، و(التعلم)، و(التفكر)"... "كما أن لها أبعاداً صحية، مثل: (الرعاية)، و(الاهتمام بصحة الجسم)"... "وهناك قيم التفاعل، مثل: (المحبة)، و(الأمل)"... "وقيم السلوك، مثل: (الإحسان)، و(الحلم)، و(الكرم)، و(الصدق)"... "وكل هذه القيم في القرآن متداخلة، ومترابطة، لا يمكن أن تفصل (قيماً) عن (قيم) أخرى. وأورد هنا مثالاً عن (الرأفة) و(الرحمة)، ضربها لنا (صلاح الدين الأيوبي)، أثناء تحرير (القدس) من قبضة الصليبيين، فعلى الرغم من أن الصليبيين قتلوا (٧٠) ألفاً من المسلمين في (القدس)، بعد احتلالها، ولكن حين حررها (صلاح الدين)، لم يثأر، ولم ينساق إلى الانتقام، بل على العكس أعطى الأمان، وجمع بين الأسر.. هذه (القيم القرآنية) التي تحلى بها (صلاح الدين)، جعلته مثار إعجاب وتقدير المؤرخين والمستشرقين الأوربيين.. وهذه القيم لا تقبل التجزئة، بل هي وحدة واحدة تسري على المسلمين، وغيرهم" ... "لكن للأسف ظهر الأشقياء، في وقتنا الحاضر، وبددوا شمولية هذه القيم، وأقصد (داعش)، فهؤلاء فعلوا بـ(الموصل)، وغيرها، الأفاعيل – كما تعلمون–، والدكتور (عماد الدين خليل)، الجالس بجانبي، شاهد حي على ما فعله هؤلاء الأشقياء، فقد عاش سنتين ونصف محاصراً في داخل الموصل، وكنا دائماً ندعوا له بالنجاة من براثن هؤلاء الأشقياء".

"أعود إلى حديثي عن (القيم القرآنية)، وهي (قيم) كبيرة وعظيمة، لأنها رحمة الله للوجود.. فـ(القرآن الكريم) كلمة الله

الأخيرة في الوجود، ورحمة منه، لذلك بدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، و(الحمد لله رب العالمين)، ولم يقل ربّ المسلمين، لذلك فتح المجال للحرية"..."ولـ(القيم القرآنية) خصائص، أولاً: أنها ربانية، مصدرها الله تعالى. ثانياً: هي قيم شاملة، تصلح للفرد والمجتمع، على حد سواء، وصلاح الفرد والمجتمع يتأتى من انتهاج سياسة رشيدة.. وعن هذا يقول (أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي): "السياسة ما كان من الأفعال، بحيث يكون الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولا نزل به وحي.. بمعنى أن السياسة يجب أن تكون موافقة لـ(الشرع)، ولكن القول بأن لا سياسة إلا ما نطق به (الشرع)، فهذا خطأ، لأنه وردت من الخلفاء الراشدين، والصحابة، والتابعين، اجتهادات لم ترد بها نصوص ثابتة في كتاب الله وسنة نبيه، وإنما المجتهد يستنبط، وقد يتجاوز.. ومثال على ذلك: استرجاع (عمر بن الخطاب) ما عجز (بلال بن الحارث) عن عمارته، فقد جاء في الأثر أن (بلال بن الحارث المزني) أتى إلى (رسول الله صلى الله عليه وسلم) فاستقطعه أرضاً، فقطعها له طويلة عريضة. فلما ولي (عمر) (رضي الله عنه) قال له: (يا بلال، إنك استقطعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أرضاً طويلة عريضة، فقطعها لك، وإن رسول الله (عليه السلام) لم يكن يمنع شيئاً يسأله، وأنت لا تطيق ما في يديك، فقال: أجل. فقال: فانظر ما قويت عليه منها، فأمسكه، وما لم تطق، وما لم تقوى عليه، فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين. فقال: لا أفعل والله شيئاً أقطعنيه رسول الله. فقال عمر: والله لتفعلن. فأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسمه بين المسلمين). هذا هو الاجتهاد"...

"ومن خصائص (القيم القرآنية) أيضاً، خاصية (التوازن)، وهذه الخاصية لا يمكن لـ(المسلم) أن يتجاوزها أبداً، وواقعياً الإسلام لا يتعامل مع الفرضيات، (الإسلام) يتعامل مع الواقع المادي.. وعليه، فإذا قلت: إن (الشريعة الإسلامية)، أو(الفقه الإسلامي)، فقه مادي، فإنك لا تجافي الحقيقة، لكن عليك أن تتبع ذلك القول قولاً آخر، وهو إن الفقه مهتد بهداية (الله) سبحانه وتعالى، بمنهج القرآن"... "لذلك فإلمام المسلم بهذه القيم، واستعمالها، يجب أن يكون في إطار (أصول الشريعة، وقواعدها)، والنظر في (مآلات تنفيذ الأحكام الشرعية).. إذا لم نلتزم بها، لا يمكن أن نتحدث عن (الشريعة). فهذا الإمام (ابن القيم الجوزية)، الذي يعدونه شيخ السلفية، يقول في بداية مصنفه: (إعلام الموقعين): "ولا يتمكن المفتي، ولا الحاكم، من الفتوى، والحكم بالحق، إلا بنوعين من الفهم،

أحدهما: فهْم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع، بالقرائن، والأمارات، والعلامات، حتى يحيط به علماً. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به، في كتابه، أو على لسان رسوله، في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر".. لذلك لما احتل الأمريكان العراق، وظهرت مجموعات مسلحة معلنة المقاومة، حذّرناهم من الانسياق وراء بعض الفتاوى السطحية، لأن مالآت عملهم ستعود بالضرر على أهل السنة في العراق.. فلا يمكن تطبيق ما ورد في (الشرع) حول مسألة الاحتلال، أو أي مسألة أخرى، مباشرة دون النظر إلى شبكة من العلاقات بين النصوص، وبين الأصول التي تحرك هذه النصوص، والقواعد التي تجمع بين الجزئيات والمقاصد والمآلات.. وفي هذا السياق يقول الإمام (الشاطبي): "إن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها، وإنما قصد بها أمور أخرى هي معانيها، وهي المصالح التي شرعت لأجلها". ولما جاءت النصوص الشرعية تمكّن لمبدأ جلب المصالح ودفع المفاسد، فالواجب التعامل مع النصوص وفق هذا الاعتبار، بحيث نحرص على حسن تفهم النصوص، والاجتهاد في تلمس جوانب المصلحة فيها، ومن ثم تطبيقها تطبيقاً يراعي هذا البعد المصلحي، والنظر الى مآلات التطبيق. وهذا كله اعتماداً على ما تقرّره النصوص، وتؤسس له، من معايير تضبط المفاهيم، وترشد إلى سبل التعامل مع المصالح والمفاسد.. والعلماء المجتهدون يجمعون على أنه في حال لم يحقق تطبيق نص إلى مصلحة (المسلمين)، فعلى الإمام، أو رئيس الدولة، إيقاف التطبيق"..

"ومن خصائص (القيم القرآنية) أنها إنسانية، فهي تستهدف الإنسان ذاته، عموم الإنسانية.. لذلك فقد ترك (الإسلام) للإنسان حرية المعتقد، أي يختار اعتناق الدين الذي يرتضيه، شريطة أن لا يتجاوز النظام العام في المجتمع، ولا يمكن لأحد أن يحاسبه على معتقده، فهذا الحساب مؤجل إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وبهذا الصدد يقول شيخ الإسلام (ابن تيمية) (رحمه الله)، في (مجموع الفتاوى): "إنَّ التكفير له شروط وموانعُ، قد تنتفي في حقِّ المعيَّن، وإن تكفير المطلَق لا يستلزم تكفيرَ المُعَيَّن، إلاَّ إذا وُجِدَتِ الشروط، وانتفتِ الموانع". وحين يأتي شيخ الاسلام إلى مسألة (الجهاد – القتال) في سبيل الله، يؤكد إنه ليس موجهاً للقضاء على الكفر، لأن الذي يقول بأننا يجب أن نقضي على الكفر بالقتل وسفك

الدماء، فذلك اصطدام مع قدر الله في الوجود. قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. انظر قوله تعالى: (وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)، ولم يقل: سنعذبه، أو عذبوه، في الدنيا! وللأسف ظهرت فئات تدعي الجهاد وإقامة الدولة الإسلامية، مثل (داعش)، وهذا التنظيم يعتمد أدبيات وفتاوى كارثية، تبيح قتل الإنسان على معتقده، فهو يفتي بجواز قتل الأشخاص فقط لأنهم يعتنقون ديناً آخر، وحتى إن كان هؤلاء الأشخاص أناساً مسالمين ماكثين في بيوتهم، يوم يدخل ما يسمونه (الجيش الإسلامي) مدنهم. ومن هذه الكتب: (إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام)، كما أن هناك إصدار آخر لهذا التنظيم، بعنوان (إدارة التوحش)، حيث يضع خطة عمل لإدارة ما يسميه (مناطق التوحش)، التي تنتج عن فقدان سيطرة الحاكم على هذه المناطق، ليأتي المتطرفون ليسدوا هذا الفراغ. ويحدد المؤلف عدداً من الدول تصلح لإثارة التوحش فيها، اعتماداً على أسباب، منها: ضعف النظام الحاكم، وضعف قواته، وبخاصة المتمركزة على أطراف دولته، ووجود مد إسلامي جهادي – على حد زعمه – مبشر في هذه المناطق، وطبيعة الناس في هذه المناطق، إضافة إلى انتشار السلاح بأيدي الناس فيه.. وحين سقطت (الموصل) في قبضتهم، رأينا من على شاشات التلفاز كيف أن أحدهم كان يشهر خنجراً طويلاً ويصيح: جئناكم بالذبح.. وأنا بصدد إصدار كتاب بعنوان: (منظومة آيات القتال في القرآن الكريم، وتطبيقاتها المعاصرة)، للرد على هؤلاء وأمثالهم ممن يدعون الجهاد.. للأسف أية كارثة جلبها هؤلاء على المسلمين. لقد حفروا قبراً يكفي لدفن الأمة الإسلامية فيها كاملة"...

"ومن خصائص القيم القرآنية أيضاً، أنها تنشئ حضارة إنسانية متوازنة، وسأترك هذا الموضوع ليتحدث بشأنه الدكتور (عماد الدين خليل)"...

"أيها الحضور الكريم، أقول وبالله التوفيق: إن (الأسماء الحسنى) تستظل الإنسانية جمعاء، والقيم المنبثقة منها تعد قانوناً فوقياً، ولا يمكن للبشرية أن ترتقي إلى مستوى (الأسماء الحسنى) بنسبة ١٠٠٪، فإذا سلّمنا أن ذلك قد حصل بالفعل، فسيكون البشر حينها معصومين، وهذا لن يحدث. ولكن يمكن الاقتراب إلى مستويات كبيرة من كنه (الأسماء الحسنى)، وقيمها، وعليه سيكون البشر أقرب إلى (الله)، وما شرعه (عز وجل)، لأن سقف (الشريعة

الإسلامية) عال. فحتى في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن الأفراد ملتزمين ١٠٠٪ بالشريعة، وأنا أقول بهذا، وقلته سابقاً، في عدة ندوات في خارج العراق.. فالمجتمع آنذاك، رغم وجوده في عصر النبوة والوحي، إلا أن أفراداً فيه كانوا يرتكبون المعاصي، وحتى أن بعضهم كان منافقاً، رغم مجاورته للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك. وما رواه أبو عثمان النهدي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه): أَنّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النّبِي (صلى الله عليه وسلم) فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللّهُ ﴿أَقِمِ الصّلاَةَ طَرَفَيِ النّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللّيْلِ إِنّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السّيّئَاتِ﴾، فَقَالَ الرّجُلُ : يَا رَسُولَ اللّهِ! أَلِي هَذَا؟ قَالَ: لِجَمِيعِ أُمّتِي كُلِّهِمْ)، دليل على ارتكاب البعض للمعاصي، وهم في حالة من الضعف الإنساني. ويقول الله سبحانه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.. وكلما ابتعدنا زمنياً عن عصر الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ودخلت أقوام وأمم شتى في الإسلام، كان الالتزام بالشريعة متراخياً.. قال النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ): (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ).. وبالنسبة لعودة دولة الإسلام من جديد، فنحن مأمورون بالعمل لأجل هذا الهدف، وربما تقوم الساعة ولم يتحقق، المهم هو العمل لا انتظار النتيجة"...

"وبالعودة إلى إشراقات (أسماء الله الحسنى)، فوفق مطالعاتي، ومتابعاتي، لم أجد عالماً في العصر الحديث كـ(سعيد النورسي) فصّل في الحديث عن هذا الموضوع، فقد ألف ما يربو على (١٢٠) رسالة في الأسماء الحسنى.. وشهد الشيخ (محمد بخيت المطيعي)، مفتي الديار المصرية، لـ(النورسي) بالنباهة، عندما زار اسطنبول في عام ١٩٠٨، ودار بينها حوار في مقهى قرب جامع (أيا صوفيا)، حيث سأل مفتي الديار المصرية (النورسي): (ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية؟ وماذا تقول في مدنية أوروبا؟ فأجابه سعيد النورسي: إن الدولة العثمانية حبلى بجنين أوروبا، وستلد يوماً ما. أما أوروبا، فهي حبلى بجنين الإسلام، وستلد يوماً ما).. ونحن في العراق، حين كنا ندعو لقراءة (رسائل النور)، انتقدنا البعض وقالوا لنا: أنتم تنتمون إلى مدرسة فكرية أخرى، كيف تطالعون تلك الرسائل؟! هذا الكلام مردود جملة وتفصيلاً، لأنه تمزيق لوحدة الأمة.. إننا قرأنا لكثير من الكتاب والمنظرين، ذوي مشارب فكرية شتى، ممن لا ينتمون إلى

التيار الإسلامي، كما قرأنا لمنظرين ماركسيين، وليبراليين، وغيرهم"... فلماذا الخوف من قراءة فكر يستلهم أسماء الله الحسنى..

"حقاً إن أسماء الله الحسنى لها قبسات وإشراقات تنفذ إلى الوجدان، فهي قد عدّلت مسار مفكرين كانوا من أشد المنكرين للغيب، فهذا (زكي نجيب محمود)، المتاثر بالفلسفة الوضعية المنطقية، ألف كتاباً بعنوان (موقف من الميتافيزيقا)، وأصدره سنة ١٩٥٣، أنكر فيه الغيب وحقائقه المطلقة، حتى أنه تجاوز الفلاسفة الغربيين، الذين كانوا يستثنون الدين في مقولاتهم عما يسمونه خرافة الميتافيزيقا.. فهذا الفيلسوف المصري انقلب كيانه رأساً على عقب، حين قرأ كتاب الإمام الغزالي: (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى)، وعدل عن آرائه السابقة، وأعلن التزامه. وكان يقول: إننا تأثرنا بالطروحات الغربية، ولم ننهل من قيمنا الإسلامية، وهي قيم يمكن أن نبني عليها ما يجعلنا نقيم نظاماً حضارياً متكاملاً، ونؤثر إيجاباً حتى في الحضارة الغربية نفسها. وأذكر أن أستاذاً جامعياً من بغداد قال لي بأنه رأى (زكي نجيب محمود) في الحج، وهو جالس أمام الكعبة المشرفة، وقد ناهز عمره الـ٨٠ عاماً، وهو يذرف الدموع أسفاً على ما سلف من الأيام التي ربى فيها جيلاً من الشباب على الإلحاد. وأنا شخصياً تحاورت مع المؤرخ العراقي الكبير (صالح أحمد العلي)، بشأن طروحاته السابقة المنكرة للغيب، والمروجة للإلحاد بين طلابه، فأجابني: من أين آتي بطلابي ثانية، وأعترف أمامهم بأني نادم على طروحاتي".

وختم الدكتور (محسن عبد الحميد) محاضرته قائلاً: "أوصيكم أيها الحضور الكريم أننا ننتمي إلى الدعوة الإسلامية الشاملة الواسعة، وكلنا أخوة في هذا الدين، ويجب أن لا تفرقنا العناوين والأسماء، ولا بد أن نربي الأجيال على القيم الإسلامية".

المشروع الحضاري الإسلامي

وبعدها ألقى الأكاديمي والمؤرخ الدكتور (عماد الدين خليل) محاضرته، وكانت بعنوان (المشروع الحضاري الإسلامي)، واستهلها قائلاً: "إن الظلمات التي تحيط بالأمة في اللحظات الراهنة تكاد تطبق عليها من كل مكان، وحتى لا نتقهقر إلى الوراء، ونلجأ إلى ردود الأفعال الخاطئة تجاه الأفعال الخاطئة، نبحث عن ممرات، عن حقنة من الأمل، لنعرف دورنا في هذا العالم، وهو دور مؤقت، قرآنياً ونبوياً. ولهذا اخترت موضوعي: (المشروع الحضاري) لأنه نوع من إعطاء الأمل لما يمكن أن يقدمه هذا الدين، ليس للمسلمين أنفسهم وحسب، وإنما للبشرية كافة، وهو دور كبير وعظيم"...

"وقبل سنوات وجهت إليّ دعوة من إحدى المؤسسات الدعوية، لتأليف كتاب أجمع فيه المقولات الإيجابية للمستشرقين والمفكرين الغربيين بشأن الإسلام. وافقت على المشروع، وعملت عليه لسنوات طويلة، وخلالها طالعت العشرات من الكتب: كلمة، كلمة، وأنا انتزع من هذه الكتب الشهادات المنصفة لهؤلاء المفكرين والمستشرقين، بحقّ هذا الدين: قرآناً، ونبياً، وعقيدة، وشريعة، وعبادة، وانتشاراً في الأرض، وسلوكاً، وتنظيماً أسرياً، وواقعاً، ومستقبلاً، في سبع سياقات، ووجدت العجب العجاب، وتكدس لديّ كم كبير من النصوص التي جمعت فيها أقوال هؤلاء، كم كبير جداً، حتى أن الجهة التي كلفتني بالموضوع استحسنت أن اختصر، وأن أكتفي بكل شاهد من هؤلاء في (٣) إلى (٥) مقولات، وأترك الباقي، توخياً للايجاز المحمود، وانجاز ما هو مطلوب مني بسرعة"...

"أيها الحضور الكريم، نحن نعيش تجربتنا الإسلامية من الداخل فقط، ولهذا فقدنا القدرة على اكتشاف محطينا، لأننا اعتدنا على هذا الدين وتفاصيله الخصبة، والتي عشناها على مدى عشرات السنين. أما الذي يأتي من الخارج، فيسلط عليها الضوء بدقة، ويتفحص جوانب مدهشة، وقد تأخذه الدهشة لبعض حلقات هذا الدين، فيدلي برأيه حراً.. ولأننا نعرف أن المستشرقين كذبوا كثيراً، ونفثوا سمهم الزعاف ضد هذا الدين، ولكنهم أيضاً كانوا يقولون كلمة حق، متى اقتضت الظروف ذلك. ولهذا فما قالوه من شهادات منصفة بحق هذا الدين، لا يمكن أن يسعها مجلد واحد. وقد صدر الكتاب بعنوان: (قالوا عن الإسلام). وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الشهادات المنصفة في حق الإسلام، وقرآنه الكريم، ونبيه العظيم، وتاريخه، وحضارته، ورجاله.. وهذه الشهادات صدرت عن أعلام، معظمهم من غير المسلمين، فيهم السياسي، والأديب،

والشاعر، والعالم، والعسكري، والرجل، والمرأة"... "نحن في العصر الراهن، وعلى المدى المنظور، لا يمكن أن نقول بأن (الجهاد – القتال) يقودنا إلى تصدّر المشهد العالمي، لا يمكن أن يقول بهذا عاقل، فالجهاد مشروع حضاري، وليس فرضاً للهيمنة على العالم بقوة السلاح. أي أن نقتحم العالم، نقتحم البنيان الذاتي للعالم الغربي، من خلال مشروعنا الحضاري فقط. ويمكن أن نقطف ثماراً خصبة، ونحقق الكثير الكثير من أجل هذا الدين"...

"كنت في العاصمة الفرنسية (باريس)، سنة ٢٠٠١، حدث وأن دعيت إلى دعوة عشاء مع المسؤول عن المنظمات الإسلامية في فرنسا كافة، فقال لي بالحرف الواحد: "لقد أدركنا الآن أن علينا أن نخترق البنية الغربية والعقل الغربي بالتنظيم على طريقة اللوبيات.. وهذه خطوة ذكية جداً، أن نلّم كل طاقاتنا، وكل تجمعاتنا، وأن نقضي على خلافاتنا، ونتوجه بخطاب واحد إلى رئيس الجمهورية، وأنا من سيقوم بتمثيل هذا التجمع المغاربي، الذي يبلغ أربعة ملايين مسلم في فرنسا، وأقول لرئيس الجمهورية: إن شئت منحناك أصواتنا في الانتخابات، في مقابل تحقيق مطالبنا، وإلا فسنعطيها لخصمك.. حين ذاك سيتغير الحال، وسيحقق المسلمون في الساحة الفرنسية الشيء الكثير"...

" قبل سنوات كنت في (ماليزيا)، والتقيت هنك بالداعية الإسلامي المصري (عبد الحليم الخفاجي)، والذي أسس في (ألمانيا) داراً للنشر، قدّم فيها أهم ترجمة للقرآن بالألمانية، حيث قال لي: إنه خلال أسابيع قلائل نفذت هذه النسخ من السوق، وقد أثرت كثيراً في قارئيه.. وحين التقيته كان يجلس معه سكرتير (الحزب الديمقراطي المسيحي) الحاكم في المانيا، والذي أعلن إسلامه.. حقاً لقد انتشر الإسلام بسرعة في المجتمعات الغربية.. قبل واقعة (١١) أيلول الأسود، التي ربما خطط لها لتدمير هذا التوجه الإسلامي للانتشار في الساحة العالمية"...

"أيها الحضور، يتحتم علينا أن نفصل بين تاريخنا السياسي وتاريخنا الحضاري، تاريخنا السياسي متخم بالثقوب السوداء، بالقتل والصراع والمؤامرات ومحاولات تسلق المشروع الإسلامي للوصول إلى السلطة.. ورغم ذلك توجد مساحات بيضاء أيضاً في تاريخنا السياسي، وإذا ما قارناه بالتاريخ السياسي الغربي، لوجدنا أن الأخير متخم بأبشع صنوف الصراعات وحوادث القتل واندلاع الحروب، ويحوي شواهد إبادة قاسية لشعوب بكاملها"... "ولو ركزنا على تاريخنا الحضاري الإسلامي، لوجدناه مترعاً بالعطاء.

يقول (روجيه غارودي)، المفكر االفرنسي المعروف، الذي كان ماركسياً، وتحول إلى المسيحية، ثم أعلن إسلامه فيما بعد، وعلى ما في طروحاته من أخطاء يؤاخذ عليها، يقول: إن مشكلة الغرب في اللحظات الراهنة، مشكلة كونية، ولا بد أن يكون الجواب كونياً، والإسلام هو الوحيد الذي يقدم هذا الجواب، لأن الإسلام ممكن أن يتحدث عن قضايا الوجود، والعالم، والمصير، وكل ما يتعلق بأمور الإنسان، في حياته الراهنة"...

"فالقرآن الكريم، والسنة النبوية، في ضوء ما قدماه لنا من إنجازات مترعة بالضوابط والأحكام التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وسأعرضها في أربعة سياقات: (نشوء الحضارات)، (سقوط الدول وانهيار الحضارات)، (قضية نهاية التاريخ، التي هي من معطيات الحضارة الغربية)، (تاريخ تشكل الكون).. فحول هذه السياقات الأربعة، قدم لنا هذا الدين في كتاب الله وسنة رسوله، إجابات قاطعة علمية كثيرة، دحضت كل الخرافات والترهات، والظنون والأهواء، التي أحاطت بالعقل الغربي عن طريق فلاسفتهم، وخصوصاً بشأن التاريخ، في مسألة نشوء الحضارات، وسقوطها، وفكرة نهاية التاريخ، ومسألة البنية الكونية"...

"السياق الأول: نشوء الحضارات.. في الآيات ٣٠ و٣٩ من (سورة البقرة)، نجد عرضاً قرآنياً محكماً لنشوء الحضارة وتشكلها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.. منذ اللحظات الأولى قدّر لهذه البشرية أن تسفك دماء بعضها بعضاً، وسيقدّر لها أن تنشىء حضارات.. ولو واصلنا قراءة هذه الآيات القرآنية من (سورة البقرة)، لوجدنا كيف أن الأمور كلها سارت بإحكام، بإرسال إنسان إلى الكرة الأرضية – إن صح التعبير – لأداء مهمة حضارية. وخلق الله الانسان في أحسن تقويم، ليقوم بهذه المهمة العظيمة، والسؤال هنا: ماذا لو أن هذا الإنسان الذي خلقه الله، لم يكن محرر القدمين واليدين، هل كان باستطاعته إنشاء حضارة؟ لقد خلق الإنسان ليكون محرر القدمين، محرر الأصابع من الأظلاف، وغيرها، ويتميز بها عن الحيوانات الأخرى.. فالحيوانات لا تستطيع أن تنشئ حضارة، ولو امتد ذلك إلى ملايين السنين.. قال تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، والبنان هي الأصابع، فهذه أدنى جزء من أعضاء البدن الذي يتحرك في الاتجاهات كافة، وهو الذي بها ينشئ الحضارة، بضغطه على

الأزرار، وغيرها.. وحتى لا يحس الانسان بالدونية تجاه الخلائق الأخرى، أمر الله تعالى من الملائكة بالسجود، تكريماً لهذا المخلوق الجديد: ﴿فسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.. وهنا لا بد من قدح الشرارة، كما يقول المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي)، لإيجاد فرصة لصراع هذا الكائن الجديد مع قوة مضادة، من أجل تنمية قدراته على الفعل الحضاري، فبرز الشيطان قبالته: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، والإنسان عندما يجابه هذه القوة العاتية الخفية غير المنظورة، عليه أن يشمر عن ساعد الجد، وأن يواصل طريق المجابهة، وحين ذاك تتشكل نواة الحضارة، ونوعيتها.. وذلك بالتحدي والاستجابة، فالشيطان هو التحدي الأكبر لقدرات الإنسان على المجابهة والفاعلية، والوقوف أمام قوة الشر.. وعندما أغوى الشيطان آدم، صدر الأمر الإلهي بأن يهبط إلى الأرض: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أو في الأرض، لأنه ليس بالضرورة أن يكون الهبوط من أعلى إلى أسفل، وإنما قد يكون الهبوط الأفقي – إن صح التعبير– .. الهبوط إلى الأرض هو تجربة قد أعطيت لآدم أن يمارس دوره في هذا العالم بتلقي كلمات الله، ما الذي حدث؟ حدث أن قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، وفي (سورة طه) تجد هذه الآيات ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، بمعنى أن وجود الإنسان في هذا العالم هو وجود حضاري، لتلقي التعاليم القادمة من السماء، وبناء حياته على الأرض في ضوء هذه التعاليم، ومن لم يتلق هذه التعاليم، ويرفضها، فإن له المعيشة الضنك، والتي يحذرنا منها القرآن الكريم: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.. وبهذا الصدد، أنا قرأت في سنة ٢٠١٠ تقريراً جاء فيه أن ١٠٪ من الأمريكيين يعانون من داء الاكتئاب المركز، الذي يقودهم إلى تعاطي المسكرات، وربما إلى حالات الانتحار الفردي والجماعي.. وقرأت في السنة التي بعدها، إعلاناً صادراً عن دائرة بحوث يابانية، واليابان من أكثر دول العالم تقدماً، جاء فيه بأن الحكومة خصصت في سنة ٢٠١١ (٣٠) مليار دولار لرصد حالات الاكتئاب والانتحار.. وهي مصداق للآية القرآنية التي تؤكد بأن الإنسان إذا تخلى عن الكلمات الآتية من السماء، وعن المنهج الإلهي الذي يوجهه التوجيه الحضاري المطلوب، فستتحول حياته ضيقاً وضنكاً".

"فيما يتعلق بـ(سقوط الدول وانهيار الحضارات)، نجد أن القرآن الكريم يؤشر ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، هذه الآية تتحدث عن نشوء الدول والامبراطوريات والحضارات الكبرى، لا تتحدث عن مرحلة اتساعها، لأن هذه لحظات من عمق الزمن، هناك حضارات أقصى ما عاشته (٣) آلاف سنة، وهي لا تعد شيئاً قياساً إلى المنظور الإلهي للكون، والبعد الزمني للكون الذي لا يعد سوى دقائق معدودة.. ففي هذه الحالة عندما يقول القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، يختزل مرحلة امتداد الحضارات وانتشارها في الأرض، وينزل مباشرة إلى القضاء الإلهي على هذه الحضارات، الذي يزيلها من الوجود.. فالله جل شأنه هو الذي يحكم هذا العالم: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. فالمنطوق الإلهي يجعل الألف سنة مما نعدّ يوماً واحداً: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، وبالتالي ما نراه في هذه الدنيا من قيام حضارات، وسقوطها، وانتشار دول، وزوالها، وممارستها للقتل والتدمير ضد بعضها البعض، كل هذا لا يكون سوى لحظات من عمر الزمن الإلهي"... "وفيما يتعلق بمسألة نهاية التاريخ، طرح المفكر السياسي الأمريكي (فرانسيس فوكوياما) نظريته (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، التي تقول بأن التاريخ البشري قد بلغ قمة أوجه في التجربة الليبرالية الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية هي من تقود هذه التجربة. وعلى الجانب الآخر ظهرت التجربة الماركسية بنظرية نهاية التاريخ، وذلك بتسلم طبقة (البروليتاريا) الحكم، وحينها سيتوقف التاريخ ويبلغ منتهاه عند هذه التجربة.. هذه مجرد ترهات، فلا سكون لحركة التاريخ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، فالمعطيات القرآنية تؤكد أن لا نهاية للتاريخ، وفق ثلاثية سنن: (التدوال)، و(التدافع)، و(التغاير).. فسنة (التداول): ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وستدول الأيام، ولن تبقي على حضارة، ولا دولة، ولا أمة على وجه الأرض.. وسنة (التدافع): ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، فلو توقف التدافع، لسكن التاريخ، وقاد ذلك إلى الفساد.. والقرآن الكريم يقول: لا فساد، لأن التدافع ماض إلى يوم القيامة.. وأما سنة التغاير والاختلاف، فالقرآن يقول: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي: خلقهم للتغاير والاختلاف في هذه

الدنيا. وبناء على ما تقدم، أيهما أكثر علمية وانطباقاً على وقائع التاريخ وصيروته الأبدية التي لا تتوقف مطلقاً، وهذا من (القرآن الكريم) الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، وهذه الثلاثية المعجزة في التنوع التاريخي والصيرورة التاريخية"... "وحول كيفية نشأة الكون، ما تقوله الماركسية مجموعة من الترهات التي لا يمكن أن يسلم بها عقل إنسان.. تقول بأن الكون نشأ بجملة من التراكمات الكمية التي تتغير، بالصدفة، دون إرادة فوقية، إلى تراكمات نوعية.. يقول أحد الأدباء والنقاد الغربيين: لو أتينا بجذع شجرة، ووضعناها بانتظار أن يتغير هذا الجذع، ويتحول إلى منضدة مصقلوة الأطراف والسطح، وذات قوائم، ولو انتظرنا ملايين السنين فلن يتحول هذا الجذع إلى منضدة.. فكيف نسلم بهذه المقولة التي يبني عليها الماركسيون رؤيتهم لنشوء الكون، والمتغيرات التي حدثت فيه.. إن (القرآن الكريم) يصف لنا نشأة الكون، وصيرورته، وانتهاءه، بنفس الوقت، وتلك ثلاثية عجيبة، أولاً: (الانفجار الكوني): ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وهو خطاب إلى الكفار، وهم من سيكتشفونه، وهو الانفجار الذي مزق الكتلة الكونية الدخانية الأولى إلى أجرام وسدم ومجرات تسبح في الفضاء. ثانياً: (التمدد الكوني): ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وهذا ما أكده (أنشتاين) في النظرية النسبية المعروفة، وسماها بالمنحنيات الكونية التي تتمدد باستمرار. وثالثاً: نهاية البنية الكونية: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.. بهذه الآيات الثلاثة يختصر القرآن الكريم نشأة الكون، بدون تمحولات وخرافات وأساطير وأباطيل الفكر الغربي.. وتكشف لنا الأيام كيف أن المعطيات العلمية في هذا الشأن تتطابق مع القرآن الكريم، وهو الحق المطلق".

"السؤال هنا: ما الذي تم في تاريخنا الحضاري على مستوى الفعل الحضاري؟ الجواب هناك نقلات أساسية كبرى حققها هذا الدين، سبق أن تحدّثت عنها في كتابي: (حول إعادة تشكيل العقل المسلم)، وهي (النقلة التصورية)، التي نقلت الناس من ظلالات الوثنية، إلى عمق (التوحيد). و(النقلة المعرفية)، التي قدمت معرفة للعرب، ما كانوا يحصلون عشر أعشارها لولا هذا الدين، وقد أكد ذلك (موريس بوكاي) الطبيب والباحث الفرنسي المعروف، في كتابه بعنوان: (التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث)، حيث أكد بعد دراسة أجراها على مدار ٢٠ عاماً، تطابق القرآن

الكريم مع الكشوفات العلمية الحديثة، وقال قولته المشهورة: "إن القرآن فوق المستوي العلمي للعرب، وفوق المستوى العلمي للعالم، وفوق المستوى العلمي للعلماء في العصور اللاحقة، وفوق مستوانا العلمي المتقدم في عصر العلم والمعرفة في القرن العشرين، ولا يمكن أن يصدر هذا عن أميّ، وهذا يدل على ثبوت نبوة محمد، وأنه نبي يوحى إليه".. نعم إن هذا الكتاب يأتي من قوة فوقية، من الله جل جلاله.. نقل العرب والمسلمين نقلة منهجية، علمهم كيف يفكرون تفكيراً وفق ثلاث أبعاد سننية تحتم عليهم إعمال العقل، وهي أولاً: السنن التاريخية، أي إن التاريخ لا يتحرك على غير هدى، وإنما وفق ضوابط وقوانين تصعد بها حضارات، وتنهار بها أخرى.. ثم سنن (البحث الحسي والتجريبي)، وهذا المنهج منح الله اكتشافه للمسلمين. وفي هذا المضمار يؤكد كبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين، منهم (روبير) الفرنسي، و(سارتور) الأمريكي، إذ يؤكدان أن الحضارة الغربية مبينة في أساسها على مفاهيم (البحث الحسي المختبري) الذي قدمه العقل المسلم.. وثالثاً: سنة مثلث: التسخير، والاستخلاف، والاستعمار، بدلالته اللغوية الاصطلاحية: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، يعني أننا أمة سخر الله لنا هذا العالم، وقد استخلفنا عليه، لكي نبينه ونعمره. فهذا مثلث يقودنا إلى الفعل الحضاري، وأن نتقدم بالبشرية خطوات إلى الأمام، والله تعالى هيأ أسباب القيام بالفعل الحضاري من خلال تهيئته للأرض بالشكل والصورة التي عليها، وما يجري فيها من تفاعلات الجاذبية والمناخ والضوء والدوران، وهي تفاعلات تنتج عوامل العيش والبقاء من حرارة وبرودة ونهار وليل وغيرها، للإنسان ولبقية المخلوقات..

"أيها الحضور الكريم، لقد كان لعصر الرسالة إنجازات كبيرة، فـ(الأمة) ألغت (القبيلة)، و(الدولة) ألغت (العشيرة)، و(التشريع) ألغى العرف والتقاليد، والمعرفة ألغت الجهل، والإنسان المنضبط النظيف الوضيء، أطاح بالبدوي المترب، الذي لا يغتسل ربما في العام مرة واحدة.. ويقول الشيخ (محمد الغزالي)، الداعية الإسلامي المعاصر: إن شقوق أقدام البدوي كانت تفقس فيها العقارب والحيات، فجاء الإسلام ليصنع منه إنساناً، فهذا الإنسان بوضوئه وبشاشته وتركيبه الروحي هو الإنسان المتمدن حقاً، وليس الإنسان الغربي الذي إن كان ذا بشرة نضرة، لكنه خرب من الداخل"... "فالفعل الحضاري الإسلامي قدم للبشرية (٣) خدمات كبرى، هي: (حماية التراث البشري السابق على مجيء الإسلام)، و(النقل الجغرافي)، فقد عبر المسلمون شمال

أفريقيا والبحر المتوسط، سواء في عصر الحروب الصليبية، وفتح القسطنطينية، أو الاستكشافات الجغرافية، وهذا النقل الجغرافي ساهم في صيانة التراث الإنساني. والخدمة الثالثة هي (الإضافة والإبداع)، فالمسلمون لم يتلقوا حضارتهم عن الغرب، وإنما أضافوا إليها قدرات مدهشة، جعلوا الكشف والابتكار في سياقات المعارف كافة، في الفيزياء والكيمياء والصيدلة والطب، والتاريخ والفلك والجغرافية.. يكفي أن العلامة (عبد الرحمن بن خلدون) هو من اكتشف قوانين الحركة التاريخية، أي إن التاريخ لا يتحرك على غير هدى، وإنما وفق ضوابط تقود الأمم والجماعات إلى الصعود وفق أسباب، والهبوط وفق أسباب أخرى.. وذكر ذلك في كتابه: (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)"، المشهور بـ(المقدمة)... "وعلى الجانب الآخر، نرى العقل الغربي يعاني اختلالات فكرية، ويعاني مفاهيمياً، وظهر ذلك جلياً في طروحات مفكري وفلاسفة الغرب، فالفرنسي (أوغست كونت)، الذي يعتبرونه فيلسوفاً اجتماعياً، تحكّمت عواطفه في طروحاته وكتاباته، وأتذكر كيف أن أساتذتنا في الجامعة صدعوا رؤوسنا بمقولات (كونت)، رغم أنه ناقض نفسه في عدة مسائل اجتماعية، عاش وقائعها شخصياً.. وكذلك الفيسلوف الألماني (هيغل)، الذي وقف مع ثورة عسكرية حدثت في (ألمانيا)، ضارباً عرض الحائط مواقف مدنية سابقة.. وأيضاً (لينين)، وكيف تراجع عن نظرية الكبت الجنسي، بعد أن رأى آثار الانحلال على المجتمع السوفيتي.. وكذلك (جان بول ساتر)، وكيف عدل عن طروحاته الوجودية السابقة، والتي نشرها في كتابه (الكينونة والعدم)، وأكد يقول: (أنا لست ذرة تائهة في هذا الكون، وإنما أنا مخلوق وجدت لغاية، من قبل قوة فوقية)، ونشر هذا الطرح الجديد في مجلة (الدوحة)، وترجم إلى العربية من قبل (أحمد جابر الأنصاري).. وقد وصف المفكر (عبد الوهاب المسيري)، في محاضرة حضرتها في (الإمارات) سنة (٢٠٠١)، الحضارة الأمريكية التي عاشها، بأنها حضارة التسوق واللذة فقط".

"وختاماً، علينا نحن المسلمين أن نجد فرصة لاختراق الحياة الغربية، بعد أن نستعيد فعلنا الحضاري عبر الرؤية القرآنية المدهشة للمفاهيم الحضارية، والتي لم نتحدث سوى عن خطوطها العريضة فقط، وليكن الشباب أكثر اعتزازاً بحضارتهم وعقيدتهم، ويندفعون باتجاه العمل الجاد لتحقيق مفاهيم هذا الدين. وشكراً"❐

آخر الكلام

التوفيق بين الماضي والحاضر؛ الأنموذج الحضاري الأمثل!

محمد واني

الماضي والحاضر عالمان مختلفان، لا يلتقيان أبداً في نقطة واحدة مشتركة، لكل واحد منهما منطقه الخاص، ومساره الزمكاني الذي يختلف عن الآخر، ولكنهما مع ذلك مترابطان، تحكمهما علاقة جدلية قوية، مثل العلاقة التي تربط بين الحر والبرد، والموت والحياة.. وكما يستدل الحر بالبرد، والبرد بالحر، وكذلك الموت بالحياة، ولايمكن أن يكتمل معنى أي واحد منهما بدون الآخر، فإن الحاضر ابن الماضي، الذي يحمل موروثاته الجينية نفسها، ومهما حاولنا أن نجرّد أحدهما عن الآخر، فلن يكتب لنا النجاح، وستبوء محاولتنا بالفشل الذريع.. والمثال التركي ماثل أمامنا بوضوح، عندما حاول الزعيم (مصطفى كمال أتاتورك) الخروج من مسار التاريخ العثماني العريق، ونسف كل إنجازاته الحضارية والثقافية، وتحديث المجتمع وفق أساليب الحياة الغربية. ولكن محاولته فشلت، وها هو الشعب التركي يحاول الآن أن يلملم نفسه، ويعود إلى أصوله القديمة، ويعيد أمجاد سلاطينه السابقة. وإذا كان الحاضر والماضي متداخلان بشكل عضوي، ويمثلان وجهين لعملة واحدة، فإن التوازن بينهما عمل حضاري وإنساني ضروري لابد منه، فالارتماء إلى الماضي، والتحليق في عالمه (الجميل)، الذي يتمنى كل فرد منا أن يعيشه، ويغوص فيه، لن ينجم عنه غير الجمود والتخلف، وعدم مواكبة التطور المعاصر، والسير باتجاه الغلو والتطرف.. وكذلك، فإن التشبث بالحاضر على حساب الماضي،لا ينجم عنه غير التعقيد والابتعاد عن عالم البساطة والروحانيات، والنظرة الأحادية، والحسابات المادية المجردة، والعلاقات القائمة على المعرفة النفعية، والابتعاد عن عالم البساطة والروحانيات و.. ينتهي الأمر أيضاً بنوع من الغلو والتطرف المشابه..!

ولا تتوقف المسألة عند أفراد وجماعات، فما زالت بعض الدول، مثل: (مصر)، و(اليونان)، وغيرها، تتغنى وتتفاخر بماضيها الحضاري التليد، دون أن تربطه بالحاضر، فتخلّفت عن ركب التقدم الحضاري، وعاشت في أسفل قوائم الدول المتطورة، بخلاف (الصين)، التي استلهمت ماضيها الحضاري الكبير، لبناء حاضرها العلمي، وتطورها الهائل، الذي أنجزته في فترة زمنية قياسية..

ولم تزل المعجزة اليابانية تبهر العقول، في الطريقة التي تم فيها الدمج بين الحاضر والماضي.. فقد استطاعت هذه الدولة، على الرغم من تقدمها العلمي الهائل، أن تحتفظ بعلاقة حميمة مع الماضي. ويكفي أن نشير إلى أن ٨٠٪ من اليابانيين ما زالوا يدعمون ويؤيدون زيارة المعابد، بحسب هيئة الإذاعة البريطانية، ولديهم ملايين الآلهة يعبدونها بهدوء وانسجام، بينما نحن المسلمون لدينا إله واحد، لا شريك له، ومع ذلك لا نكف عن الاختلاف، والصراع، والقتل على الهوية!❐